

المغالطات المنطقية

عادل مصطفى

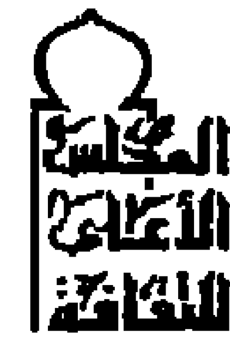
المجلس الأعلى للثقافة

المغالطات المنطقية

طبيعتنا الثانية وخبزنا اليومى

(فصول فى المنطق غير الصورى)

عادل مصطفى



٢٠٠٧

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

مصطفى ، عادل.

شيء من المنطق : المغالطات المنطقية : طبيعتنا الثانية وخبزنا اليومي :

فصول في المنطق غير الصوري / عادل مصطفى

- ط١ - القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٧

٢٦٨ ص ، ١٧ × ٢٤ سم

١- المنطق

(أ) العنوان ١٦٠

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٢٦٤١٤

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-437-569-6

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El- Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 27352396 Fax : 27358084

المغالطات المنطقية

المحتويات

الإهداء

إلى الأخ الكريم

اللواء د . هانى مصطفى خضر

نابغة جراحة الأنف والأذن والحنجرة

صديق العمر وشريك الذكريات

عادل مصطفى

"كم يكون رائعاً لو أمكننا أن نُقَيِّضَ لكل خُدْعة
جدلية اسماً مختصراً وبَيِّنَ الملاءمة، بحيث يَتَسَنَّى لنا
كلما ارتَكَبَ أحدٌ هذه الخدعة المعينةَ أو تلك أن
نُوَبِّخَه عليها للتو واللحظة"

آرثر شوبنهاور

مقدمة

"الحكيم هو من يُفَصِّلُ اعتقادَه على قَدْ البَيِّنة"

ديفيد هيوم

دَفَعَنى إلى كتابة هذه الفصول ما أشاهدُه كلَّ يومٍ فى الفضائيات التليفزيونية ووسائل الإعلام الأخرى من أغلاطٍ أساسية فى منطق الحوار والجَدَل، تجعل المناقشاتِ غيرَ مجديةٍ من الأصل، وتجعلها عقيمةً أو مجهَضةً منذ البداية؛ فلم أجِدْ بُدًّا من العودة بالقارئ إلى أصول الحوار المثمِر وقواعد الجدل الصحيح، التى أصبحت الآن مَبْحَثًا قائمًا بذاته هو "المنطق غير الصورى" informal logic (أو "المنطق العملي" practical logic).

وإذْ أَخَذْتُ نفسى دائمًا بأن أحاول، جهد ما أستطيع، أن "أُعَلِّمَ القارئَ كيف يصطاد بدلاً من أقدم إليه سمكًا"، فقد رأيتُ أن أعود إلى هذا المبحث، الحديث نسبيًا، وأسلط عليه الضوء، وأقدمه إلى القارئ بطريقةٍ سائغةٍ قريبة المأخذ؛ مرتكزًا فى ذلك على الجانب السلبى من المبحث، وهو "المغالطات المنطقية": تعريفها وتشريحها، وكيف نكشفها ونتجنبها، والحالات التى تَصِحُّ فيها ولا تعودُ مغالطة.

ما المنطق غير الصورى ؟

المنطق غير الصورى هو استخدامُ المنطق فى تَعَرُّفِ الحجج، وتحليلها وتقييمها، كما تَرِدُ فى سياقاتِ الحديثِ العادى ومداولاتِ الحياةِ اليومية(*): فى المحادثات الشخصية، والإعلانات، والجدل السياسى والقضائى، وفى شتى ألوان التعليقات التى نصادفها فى الصحف والإذاعة المرئية والمسموعة وشبكة الإنترنت وغير ذلك من وسائل الإعلام .

كان الدافع من وراء نشأة هذا المبحث الجديد هو الرغبة فى إيجاد سُبُلٍ لتحليلِ الاستدلالِ العادى وتقييمه، سُبُلٍ يمكنُ أن تندرجَ كجزءٍ من التعليم العام، ويمكن أن تُرْشِدَ تفكيرَ الناس، وترتقى بالمناقشات والمساجلات اليومية. من هذه الوجهة تلتقى همومُ المنطقِ الصورى بهموم "حركة التفكير النقدى" Critical Thinking Movement التى تهدف إلى تطوير نموذج للتعليم يُولِى اهتمامًا أكبر بالتساؤل النقدى، ويُفضِى إلى فهم علاقة اللغة بالمنطق، فيُمَكِّن الطالبَ من تحليلِ الأفكارِ ونقدها والدفاع عنها، ومن التفكير الاستقرائى والاستنباطى، ومن استخلاصِ نتائجَ وقائعيةٍ حصيفةٍ قائمة على استدلالاتٍ سليمة مستقاة من قضايا، معرفية أو اعتقادية، واضحةٍ لا لَبس فيها.

ترتبط نشأةُ المنطقِ غير الصورى بالحركات الاجتماعية والسياسية فى ستينيات القرن العشرين، وما صَحِبَها من دعوةٍ إلى تعليمٍ عالٍ أوثقَ اتصالاً بالحياة والتصاقًا بالواقع المَعيش. هنالك أَلَحَّت الحاجةُ إلى تطبيقِ التحليل المنطقى على أمثلةٍ حَيَّةٍ ملموسةٍ من تفكيرِ الحياةِ اليومية، والتخلى عن الأمثلة المصطنَعة والحجج المفتعَلة التى تعجُّ بها كتبُ المنطقِ القديمة. على أن المنطق غير الصورى لم يتأسسْ كفرعٍ بحثى مستقل إلا فى أواخر السبعينيات مع أعمال رالف جونسون وأنتونى بلير، الفردية والمشتركة، وإصدارِهما صحيفةَ "المنطق غير الصورى".

(*)The Cambridge Dictionary of Philosophy. Cambridge University Press, 1995, p. 376.

وعلى الرغم من مرورِ أكثرَ من ربع قرنٍ على نشأة المنطق غير الصورى ، فإنه مازال فى طور التكوين، تصطَرِعُ فيه تياراتٌ متباينة وتتنازعُه اتجاهاتٌ مختلفة، ومازال يتلمسُ طريقَه ، ويفتشُ عن هويّتِه، ومازال يتساءل عن جدوَى نظريةِ المغالطات ومبادئ المنطق الصورى بالنسبة إليه، وعن أهمية استخدام الرسوم البيانية، وعن دور نظريات التواصل والاعتبارات الديالكتيكية والحوارية فى تقييم الحجج. ومازال فى كل ذلك يلتمسُ العونَ من أفرعٍ بحثيةٍ قريبةٍ ويتداخلُ معها: علم البلاغة (الخطابة)، علم اللغة، الذكاء الصناعى، علم النفس المعرفى، التواصل الكلامى ، ... إلخ.

كان اهتمامُ المنطق غير الصورى فى بداياته مُنْصَبًا على "المغالطات المنطقية" logical fallacies؛ غير أنه تجاوزَ مبحثَ المغالطات، وجَعَلَ يوسِّعُ من حقله كلما تَبَيَّن له أن دراسةَ الحججِ المصوغةِ باللغة العادية تتطلب ارتيادَ أصقاعٍ جديدة من البحث. تتضمن هذه الدراسةُ المكوناتِ التالية:

- التمييز بين الأصناف المختلفة من الحوار التى يمكن للحجة أن تَرِد فيه (النقاش العلمى مثلاً غير التفاوض أو عقد الصفقات)
- تحديد المعايير العامة للحجة الصائبة (الاستنباطية والاستقرائية..).
- دراسة مفهوم اللزوم، أو الترتُّب، المنطقى، الذى يفسر لنا متى يصِحُّ أن نقول إن هذه الجملةَ تترتب منطقيًا عن تلك.
- دراسة المغالطات المنطقية وأهميتها فى تقييم الحجج.
- دراسة المواضع التى يصِحُّ فيها ما نأخذُه عادةً مأخذَ المغالطة (الاحتكام الصائب إلى السلطة، الهجوم المبرَّر على شخص الخصم، التفكير الدائرى الصحيح... إلخ)
- تَفَهُّم الدور الذى تضطلع به المشاعر (الباثوس) والشخصية (الإيثوس) وغيرها من المفاهيم البلاغية فى تحليل الحجة وتقييمها.

– تبيان الواجبات الجدلية المنوطة بالحجج فى أنواعٍ معينةٍ من السياقات.

أهمية الإلمام بالمنطق غير الصورى

يقول أفلاطون فى محاورة جورجياس: "فى جدالٍ حول الغذاء يدور أمام جمهورٍ من الأطفال، فإن الحلوانى كفيلٌ بأن يهزم الطبيب. وفى جدالٍ أمام جمهورٍ من الكبار، فإن سياسيًا تَسلَّحَ بالقدرة الخطابية وحِيَلِ الإقناعِ كفيلٌ بأن يَهزِمَ أىَّ مهندسٍ أو عسكرى حتى لو كان موضوعُ الجدال هو من تخصص هذين الأخيرين، وليكن تشييد الحصون أو الثغور! إن دغدغةَ عواطفِ الجمهور ورغباتِه لأشَدُّ إقناعًا من أى احتكامٍ إلى العقل".

حقًا .. ليس بالحق وحدَه تَكسبُ جدَلاً أو تقهر خصمًا أو تُقنع الناس. من هنا يتبين لنا أهميةُ دراسةِ الحجة كما تَرِدُ فى الحياة الحقيقية ، وتتجسد فى اللغة العادية ؛ ذلك أن الحجة حين تَرِد فى الواقع الحى لا تأتى مجردةً مُصَفَّاة، ولا تَكشفُ صيغتَها المنطقية للمتلقى بسهولةٍ وطواعية، إذن لكان تمحيصُها أيسرَ عليه بما لا يُحَد، إنما تأتى الحجةُ دائمًا ممتزجةً بلحمِ اللغةِ ودمِها، متلفعةً بانفعالاتِ الناسِ وأعرافِهم، مُوَرَّبَةً بتضاريس الواقع، وبشؤون الناس وشجونها.

وما تُشكِّلُ الصيغةُ المجردةُ للحجة (المقدمات المؤدية إلى نتائج) إلا لُبًّا ضئيلاً أو هيكلاً نحيلاً متواريًا وراء طبقةٍ كثيفةٍ من الاعتبارات الدلالية semantic والتداولية pragmatic للغة(*)، ومن طبيعة الخصم وأيديولوجيته وسيكولوجيته، ومن مَقام الحديث وسياق الجدل، ومن عواطف جمهورِ الحاضرين وانتماءاتهم وتحيزاتهم.

(*) السيمانطيقا semantics (علم دلالة الألفاظ، أو المعانى) : الدراسة التى تتناول علاقة العلامات اللغوية بالعالم أو الواقع الخارج عن اللغة extra-linguistic reality. أما البراجماطيقا pragmatics (التداولية) فهى المبحث الخاص بدراسة العلاقة بين العلامات اللغوية ومستخدميها من بنى البشر.

ونحن فى مجال المنطق غير الصورى إنما ينصبُّ جهدُنا على هذه الطبقة الكثيفة التى تُغَلِّفُ اللُّبَّ الصورىَّ للحجة؛ نتلمَّسها ونتناولها بالتحليل والتفتيت، وننفذ منها إلى ذلك اللُّبِّ الصورى المفترَض. فى مجال المغالطات، على سبيل المثال، يكون عملُنا أشبهَ بـ "أخذ صورة أشعة" x-raying للحجة المطروحة، عسانا نَطَّلِعُ على هيكلها الصورى المطمور، ونُقَدِّرُ نصيبَه من الصواب والخطأ. ويكون معيارُنا فى ذلك هو المعيار المنطقى الصورى العتيد: صدق المقدمات وصواب الاستدلال. وكثيراً ما تَجْبَهُنا صورةُ الأشعة بغيابِ أى لُبٍّ صورى وانعدامِ أى هيكلٍ منطقى فى الحجة!!

أمثلة لعملية التجريد فى المنطق غير الصورى

مثال (١)

نقتبس هذا المثال من بين تلك "الحجج المندمجة" coalescent arguments التى أشار إليها ميشيل جلبرت، والتى تعبر فى زعمه عن جملةٍ من المواقف والاعتقادات والمشاعر والحدوس التى تميز صاحبَ الحجة:

فهذه طالبةٌ جامعية تبكى فى مكتب الأستاذ، كى تبثَّه قلقَها للأهمية التى يوليها الأستاذ لحصول الطالب على درجة A فى مادةٍ معينة(*). بوسعنا أن نؤوِّلَ هذا على أنه "قياسٌ مُضْمَر"(**) enthymeme تقديرُه:

إنه لمن أشد دواعى البؤس والجزع ألا أحصل على درجة A ! .... (مقدمة ١)

إن عليكَ ألا ترمى بى فى حضيض البؤس والجزع .... (مقدمة

(*) Gilbert, Michael, 1997. Coalescent Argumentation. Mahwah; Lawrence Erlbaum Associates.

(**) القياس المضمَر" enthymeme : هو قياس منطقى حُذفَت مقدمتُه الكبرى أو الصغرى إما لظهورها والاستغناء عنها، وإما لإخفاء كذبها. ومن البيِّن أن القياس الوارد هنا قد طُوِيَت مقدمتاه معًا !، وناب التعبير الانفعالى عنهما.

عليكَ، إذن، أن تمنحنى درجة A .... (النتيجة)

ورغم أننا نُسلِّم بأن هذه الحجة تندرج ضمن فئة "الحجج الانفعالية" التى تحدَّثَ عنها جلبرت، فليس ما يمنع أن نعاملَها كغيرِها من الحجج؛ فنفحص مقدماتها ونقيِّمها من حيث القبول والرفض، وننظر فيما إذا كانت النتيجة فيها تلزم عن المقدمات.

ولا يخفَى على القارئ الآن أن المقدمة (٢) فيها نَظَر؛ فالأستاذ، بعد كل شىء، يعمل بمَرفَقِ التعليم العالى وليس بمَرفَق الشؤون الاجتماعية. إن عليه أن يُعِين الطالبَ ويَدعمَه بأن يقرِّبَ إليه مادتَه العلمية ويُذَلِّلَ قَطفَها، وليس بأى طريق آخر. والحجة من ثم تندرج فى مغالطة "الاحتكام إلى الشفقة" ad misericordiam .

مثال (٢)

هذا إعلانٌ مصوَّرٌ عبارة عن رأس أسد يزأر مكتوب عليه "كينا بسليرى الحديدية". إذا تأملنا إعلانًا كهذا وجدنا أنه لا يعدو أن يكون "استعارة بصرية" visual metaphor مُفادُها أن تناول كينا بسليرى الحديدية بانتظام تجعل المرءَ قويًا مفعمًا بالنشاط. وبالنظر إلى أنه إعلانٌ تجارى، فإن بوسعنا تأويلَه إلى "قياس مضمَر" أيضًا تقديرُهُ:

إذا تناولتَ كينا بسليرى صِرتَ قويًا مفعمًا بالنشاط .... (مقدمة١)

النشاط والقوة أمران مرغوبان .... (مقدمة٢)

إذن من المرغوب فيه أن تتناول كينا بسليرى (تشتريها) .... (النتيجة)

فإذا ما أمْعَنَّا فى التجريد خلصنا إلى الصورة التالية:

ق تلزم عنها ك

ك (مرغوبة)

إذن ق (مرغوبة)

وهو قياس مغلوط صوريًا؛ لأنه يقع في خطأ "إثبات التالي" affirming the consequent. بوسعنا تبيان خطأ هذا القياس بأمثلة كثيرة مثل(*):

١ - منعُ مباريات الكرة كفيلٌ بمنع حوادث الشغب في الملاعب .

منع الشغب في الملاعب أمرٌ مرغوب .

إذن علينا منع مباريات الكرة .

٢ - إلغاء خطوط السكك الحديدية يفضي إلى انتفاء تصادم القطارات .

انتفاء تصادم القطارات أمر مرغوب .

إذن ينبغي إلغاء خطوط السكك الحديدية.

أهمية دراسة المغالطات المنطقية

قلنا إن اهتمام المنطق غير الصوري كان متركزًا في البداية على مبحث المغالطات. وكان التعريف التقليدي للمغالطات هو "تلك الأنماط من الحجج الباطلة التي تتخذ مظهر الحجج الصحيحة". ولعل من الأصوب أن نقول إنها أنماطٌ شائعة من الحجج الباطلة التي يمكن كشفها في عملية تقييم الاستدلال غير الصوري.

لمنطق المغالطات آباء قدامى، يأتي في مقدمتهم أفلاطون في محاورة "يوثيديموس" Euthydemus وأرسطو في كتابه "on sophistical refutations"، و يلحق بهما في القرون التالية فلاسفة كثيرون من أبرزهم : جون لوك، وواتلي، وشوبنهاور، وجون ستيوارت مِل، وجِريمي بنتام. ولا يزال مبحثُ المغالطات يثير اهتمامَ كثيرٍ من المناطقة

(*) إذا شئتَ مثالاً عيانيًا شديد الوضوح ، فإن وجودي في العتبة يعني أنني في القاهرة، وأنا الآن في القاهرة، إذن أنا الآن في العتبة!!!

حتى اليوم. غير أن هذا الاهتمامَ بدأ ينحسرُ بعضَ الشيء مع تطورِ المنطق غير الصورى وارتياده آفاقًا جديدة من البحث. وقد ذهب بعضُ المناطقة، وبخاصة منهم من تأثَّرَ بنظرية التواصل، إلى أن دراسة المغالطات ليست بديلاً لدراسة مبادئ الاستدلال الصحيح؛ فمادامت المغالطات هى انحراف عن القواعد الضمنية التى تحكم شتى أصناف التداول الحوارى، فإن الأجدر بنا أن نركز على دراسةِ هذه القواعد، وألا نقنَع بدراسة الانحرافات. يرى هؤلاء أن دراسة المغالطات لا تكفى لإجادة التفكير الاستدلالى مثلما أن معرفة الأخطاء فى لعبة كرة القدم مثلاً لا تكفى لإجادة اللعب. إنما ينبغى أن نتجهَ مباشرةً إلى دراسة قواعد الجدل الصحيح ومعايير الاستدلال الصائب.

ورغم وجاهة هذا الرأى، فإن تَفَشِّى المغالطات المنطقية فى واقعنا اليومى، وطغيانها على تفكيرنا كله، حقيقٌ بأن يَرُدَّ إلى نظرية المغالطات أهميتَها الأولى، ويعيدَها إلى الصدارة من جديد. "يقول مالبرانش: "لا يكفى أن يقال إن العقل قاصر، بل لا بد من إشعاره بما هو عليه من قصور. ولا يكفى أن يقال إنه عُرضةٌ للخطأ، بل يجب أن نكشف له عن حقيقة هذا الخطأ". وهذا قولٌ صادق؛ إذ لا يكفى من أجل تمييز الحق أن نحدد شروطه فحسب، بل لا بد أيضًا لكى يكون التمييز واضحًا كل الوضوح أن نبين أين يكون الغلطُ حتى يظهرَ الحقُّ أجلى وأوضح، كالنور يكون أجلى بجوار الظلمة منه لو أخذ وسط فيض آخر من النور، ثم إن الأضداد إن لم تكن واحدة كما يقول هيجل، فهى على الأقل مرتبطة تمام الارتباط سواء من الناحية العقلية أو من الناحية الوجودية، ولهذا كان العلم بالأضداد – كما يقول أرسطو – علمًا واحدًا؛ فإذا كان تمييز اليقين فى التفكير الإنسانى موضوع المنطق، فكذلك تمييز الخطأ فيه يدخل فى بابه"(*). يؤثَرُ عن الإمام الشافعى قولُه: "مَثَلُ مَن يطلبُ العلمَ جُزافًا كَمَثَلِ حاطبِ ليلٍ يقطع حزمةَ حطبٍ فيحملها، ولعل فيها أفعى تلدغه وهو لا يدرى".

ويقول شوبنهاور: "يتوجب على مَن يدخل فى مناظرة أن يعرف ما هى حِيَلُ الخداع؛ ذلك أن من المحتم عليه أن يصادفَها ويتعاملَ معها". عليك إذن أن تلم إلمامًا

جيداً بالمغالطات المنطقية حتى يتسنى لك أن تتجنب الطرقَ المسدودةَ أثناء الحوار، وتتعرف على "النقلات الخاطئة" فى الجدل، وأن تُظْهِرَ خصمَك على الخطأ الاستدلالى الذى ارتكبَه، بل أن تُقَيِّض لهذا الخطأ اسماً؛ لكى يَعلَم الخَصمُ أنك تجيدُ التفكيرَ، وتفهمُ حجتَه ربما أكثر منه! كما أن كشف المغالطة وتسميتها وتحليلها من شأنه أن يُقصِي الحجةَ الباطلة من ساحة الجدل إقصاءً نهائيًا، ولا يكتفى بإضعافها أو تحجيمها؛ ذلك أن الخصوم المتمرسين بالجدل والمراء لديهم من الخبرة والمهارة ما يُمَكِّنهم من إنعاش حجتهم الجريحة وإعادة تجنيدها فى حلبة الصراع.

فن التعامل مع المغالطات

غير أن الناس – الخصم الفكرى أو السياسى، والقضاة، وجمهور الحاضرين – ليسوا جميعًا مناطقةً ملمِّين بفقه المغالطات و سُبُل كشفها وإقصائها؛ ومن ثم فإن عليك أن تتقن فن التعامل مع المغالطات وكشفها وإقصائها، حتى لا تفشلَ حملتُك وتأتى بعكس المرجُوِّ منها، وتجعلك غرَضًا للتهكم والسخرية. عليك باختصار أن تجعلَ رَدَّكَ جزءًا من مَساق الحديث، غيرَ ناشزٍ أو مُستغرَب. عليك أن تُسمِّى المغالطةَ باسمها، بالعربية واللاتينية إن استطعت، وأن تُبادرَ بتبيان ما تعنيه المغالطة، ولماذا هى مغالطة، وأن تفعل ذلك بليونةٍ وخِفَّةٍ وإيجاز، دون أن تَعلوكَ سيماءُ التعالُم والتكلف والحذلقة. عليك أن تَذْكُرَ اسمَ المغالَطةِ وفحواها كما لو كنتَ تُعيدُ على مسامع القاضى الذكى شيئًا بسيطًا يعرفه من الأصل، ثم تُثَنِّى بمثالٍ بالغِ الوضوح يَزيدُ مقصدَك جلاءً وسطوعًا، ثم تختم حجتَك وكأنك تداوى خصمَك ، وتفتحُ له طريقًا آخر للجدل غير مغالطته البائدة. قُل شيئًا كهذا:

"إن توجُّهَكَ يا سيدى يتكئُ بشدةٍ على التأييد الشعبى وعلى فوزه الساحق فى الاستفتاء الأخير. لقد صَوَّتَ أغلبُ الناس لهذا التوجه، نعم وهذا حقُّهم فى بلدٍ ديمقراطى يتولى فيه الشعبُ حكمَ نفسه وعلى مسؤوليته؛ غير أنه لا يجعل من الرأى السائد حقًّا بالضرورة. إنه خطأ "الاحتكام إلى عامة الناس" **ad populum** كما تعلمون: إن عدد الأصوات المؤيِّدة ليس معياراً للحق، ولا يجعلُ الرأىَ حقًّا بالضرورة؛

فالحق والباطـل لهما معاييـرُ أخرى تعرفونهـا. لقد قفز هتلر إلى السلطة من صناديق الاقتراع، وقادَ ألمانيا إلى الهاوية بتأييدٍ شعبى عارم. لقد حَظِيَ الرِّقُّ يومًا ما بتأييدِ الأغلبية فى بعض الولايات الأمريكية. لقد كانت الأرضُ ذاتَ يومٍ هى مركز الكون فى اعتقـاد الجميـع عدا جاليليو. دعنا إذن من هذه الحجة المغالِطة، ولننصرف الآن عن التفكير بصندوق الاقتراع إلى التفكير بالعقل. يبقى أن حجتَك الأكثرَ وجاهةً وسَداداً هى ....".

التفكير النقدى مرحلة متقدمة من النمو المعرفى

يُقَسِّم جان بياجيه مراحلَ النمو المعرفى للإنسـان إلى أربع مراحل، يَعدها بيولوجية عمومية تشمل أفراد البشر جميعًا: الأولى هى المرحلة الحسية الحركية sensorimotor (من الولادة إلى سن سنتين) ؛ حيث لا توجد بناءات ذِهنية (مخطَّطات)، وحيث يسعى الرضيع إلى تكوين هذه البناءات من خلال استكشاف البيئة. والمرحلة الثانية هى مرحلة ما قبل العمليات pre-operational (من سن سنتين إلى سبع) وفيها يكتسب الطفـل اللغة ، ويكَـوِّن بناءات ذِهنية أكثر تعقيداً وإن تكن قبل – منطقية pre-logical، فلا يزال غير قادر على أن يفهم أن جوهر الشيء لا يتغير وإن تغير شكله وهيئته، ولا يزال غير قادر على "فض المركزية" decentering أى الانفصال عن ذاته ورؤية الأشياء من منظورٍ مختلف. والمرحلة الثالثة هى مرحلة تفكير العمليات العيانية concrete operational (من سن سبع سنوات وحتى المراهقة)، وفيها يتفهم ثبات الجوهر ، ويتخذ منظورات مغايرة، ويبدأ فى التساؤل عن الحياة ، ويحل المشكلات ولكن بشكلٍ عشوائى. إنها عمليات منطقية ، ولكنها لا تزال لصيقة بالعالم المادى العيانى والأفعال المادية العيانية. والمرحلة الرابعة هى مرحلة العمليات الصورية formal operational، وفيها تواتيه القدرة على التفكير المنطقى المعقد، والتفكير التجريدى غير المرتبط بالأشياء والأحداث المادية، والتفكير الافتراضى، والحل المنطقى للمشكلات.

يقترح بعض المَنظِّرين إضافة مرحلة خامسة أرقى من هذه المراحل الأربع، هى مرحلة التفكير الجدلى dialectical thinking، وهى مرحلة بعد - منطقية، إن صح التعبير، وفيها يكتسب المرءُ التفكير النقدى، ويدرك مفارقات الحياة، ويتناول الأسس التحتية التى يقوم عليها المنطق ويحللها ويضعها موضع التساؤل والنقد. وهى مرحلة غير عمومية وغير بيولوجية ولا يَبلُغُها المرء إلا بالتعلُّم والتدريب والممارسة.

يتألف التفكير النقدى من ثلاث مراحل: (١) الوعى بوجود افتراضات(*) أساسية assumptions. (٢) التصريح بهذه الافتراضات وإخراجها إلى واضِحة النهار. (٣) تسليط أضواء النقد على هذه الافتراضات: هل هى ذات معنى؟ هل تنسجم مع الواقع كما نفهمه ونعيشه؟ متى تَصِح هذه الافتراضات ومتى تبطل؟

فى غياب التفكير النقدى نكون رهائن للمؤثرات المحيطة؛ فلا يسعنا إلا أن نكرر، تكراراً أعمى، تلك الاستجابات التى تعلمناها من قبل، ولا يسعنا إلا أن نقبل، قبولاً أعمى، كل ما يقال لنا فى أبواق الدعاية السياسية والتجارية، وفى الصحافة والكتب، وكل رأى يصدر عن "سلطة".

إن التفكير النقدى والعلمى ليس شيئًا فطريًا نأتيه بالطبيعة ونعرفه بالسليقة؛ وإنما هو عمل حِرفى يتطلب حِذقًا ومهارة. ليس من الصحيح أن لدينا قدرة طبيعية على التفكير الواضح والنقدى بغير تعلم وبغير ممارسة. ولا ينبغى أن نتوقع من غير المدرَّب أن يفكر تفكيراً واضحًا أكثر مما نتوقع من غير المدرَّب أن يجيد لعب التنس أو الجولف أو العزف على البيانو.

ذلك أننا إذ نمارس التفكير العلمى والنقدى إنما نمضى ضد مقاومةٍ شديدة ونسبح ضد تيارٍ عارم من التحيزات المتأصِّلة والأوهام الجِبِلِّية، ونَتَجَشَّم اجتياز العديد

(*) الافتراض assumption : هو نقطة بداية مسلَّم بها دون نقاش أو جدل. إن ما بوسعك أن تثبته خلال نقاش أو حجة سيعتمد دائمًا على الافتراضات التى تبدأ منها.

من العوائق "الطبيعية" التى تحوُل بيننا وبين التفكير الواضح: فنحن بطبيعتنا لا نتحمل الغموض ولا نطيق معايشة السر! وإن بنا نزوعًا طبيعيًا إلى طلب اليقين حيث لا يقين، والتماس الإجابات البسيطة عن الأسئلة المعقدة، وشغفًا بالدعاوى العريضة و"نظريات كل شىء" محمولة على ظهر بَيِّنة ضامرة هزيلة، وميلاً إلى الأخذ بالفرضيات التى تُرضِى رغائبنا وتدغدغ أمانينا؛ والالتفات إلى أضغاثٍ من الأمثلة التى تؤيد فرضيتنا وغض الطرف عن تلال من الأمثلة المفنِّدة؛ وإلى تَذَكُّر الرميات الصائبة وتَناسي الرميات الخائبة، وإلى أخذ الاستعارات التوضيحية والتشبيهات المقرِّبة مأخذَ الدليل، وإلى الانضواء مع القطيع والتلفع بالرايات والانضمام إلى "الزفة"، وإلى قتل الرسل بدلاً من تفنيد الرسالة، وإلى التخلص من عبء البرهان وإلقائه على عاتق الخصم، وإلى الاستدلالات الدائرية وتحصيلات الحاصل، وإلى التعويل الزائد على السلطة والانبهار الزائد بالمشاهير، وإلى التعميم الكاسح المتسرع، وإلى تحويل التعاقُب أو الاقتران إلى عِلِّيَّة، .. إلى آخر تلك الأغاليط التى نغرق فيها إلى الأذقان، والتى يتناولها هذا الكتاب بالتحليل والدرس.

يمضى التفكير النقدى ضد هذه المقاومات الشرسة، فيحتاج إلى طاقة نفسية كبيرة، غير مقصورة على الذكاء الذهنى المحض.. يحتاج إلى شيء من "الذكاء الانفعالى" emotional intelligence : إلى التسامح، والتعاطف، و"المواجدة" empathy أى القدرة على أن يضع المرءُ نفسَه موضعَ الآخر، ويرى الأمور من وجهة نظر الآخر، ويتخذ الإطارَ المرجعى للآخر، القدرة على اكتشاف "ماذا يشبه أن يكون" what it is like أن يعتقد المرءُ تلك الأفكار التى يضعها موضع التساؤل(*) قبل أن يهم بتقويضها.

إنها رحلة طويلة شاقة، ليس لها خرائط محددة، غير أننا لا نعدم بعض المبادئ المرشدة:

(*) يطلق على ذلك أيضًا "لعبة الاعتقاد" the believing game، كمقابل لـ "لعبة الشك" the doubting game .

- فَكِّر بنفسك لنفسك. ذلك لأن التقدم في التفكير النقدي لا يتم إلا كرحلة فردية وكَدْحٍ شخصي. صحيح أن هناك سُبُلاً كثيرة يمكن أن تجعل من الفلسفة جهداً مشتركًا ومهمة جماعية، شأنها في ذلك شأن العلم، إلا أن على كل شخص في النهاية أن يفكر لنفسه، وألا يَكِلَ إلى غيره أن يفهم نيابةً عنه ("افهمْ لي ذلك من فضلك" هو نموذج لطلبٍ مستحيل!)(*).

- اكتسب القدرة على الانفصال عن رأيك، و "مَوْضَعَتِه"، ووضعه على محك التحليل والنقد، مثلما تفعل مع آراء الغير.

- لا تُصَدِّقْ كلَّ ما تسمع، ونصفَ ما ترَى! ولا تبخل بجهدٍ من أجل الخروج من "مركزية العرق" ethnocentrism .. من كهف الآراء الشائعة في عُرف جماعتنا الإثنية، والتمييز بين حقائق العالم وبين مجرد المسايرة لما تَصادَفَ أن يكون هو رأي الأسلاف أو اتُّفِقَ أن يكون هو الرأي السائد في مسقط رأسنا وزمان وجودنا.

- كن على استعداد، من حيث المبدأ، للتخلي عن رأيك إذا ما تَبَيَّنَ خطؤه. اسألْ سؤالاً حقيقيًا، سؤالَ مَن يبحث عن الحق لا عن مجرد تبرير لما يعتقده سلَفًا.

- تَعَلَّم كيف تَسُلُّ الافتراضات التي تتبطن الرأي، وتضعها تحت أضواء النقد. ليكنْ وَلعُك بالأسس، وانتحاؤك إلى الأسس.

- لا تُسقط رغباتك على الأشياء ولا تجعل من أمانيك معياراً للحق. فأكبر الظن أن العالم لم يُخلَق من أجلها ولم يُفَصَّلْ على مقاسها.

- "خذ" البلاغة، ولا "تؤخذ" بها. وفَرِّق دائمًا بين الخطابة والبرهان. ولا يَخْلُبْكَ زخرف القول عن جوهر الحجة، ولا تقف عند التشبيه البليغ وتظنه المحطة النهائية وتأخذه مأخذ الدليل.

(*) وليم جيمس إيرل: "مدخل إلى الفلسفة"، ترجمة: عادل مصطفى، المشروع القومي للترجمة، العدد ٩٦٢، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥، ص ٣٥ .

- لا تجعل من درجة حرارة الاعتقاد معياراً لصوابه؛ فكثيراً ما تتناسب قوة هذا الانفعال عكسياً مع قوة البينة، بحيث يمكننا تعريف "التحيز اللامعقول" بأنه "ما يجلب الغضب عند مساءلته"، ويمكننا أن نحدد مكمن تحيزاتنا بأن نلاحظ متى أخرجتنا الآراءُ الأخرى عن طورنا وأثارت غضبَنا!!

- ومهما بلغ نضجُكَ فى التفكير النقدى ستظل بحاجة أبداً إلى تحصيل العلم واكتساب المادة المعرفية التى تُعمِل فيها فكرك النقدي. ولا يغب عن بالك قول رَسِل "المنطق والرياضيات هما أبجدية كتاب الطبيعة، وليسا الكتاب نفسه!"

- وأخيراً: تَعَوَّدْ صحبةَ السِّر، وتَذَوَّق لذةَ التساؤل؛

الأجوبةُ تُثْقِلُكَ وتُطْفِئُكَ وتُجَمِّدُك،

وَحدَها الأسئلةُ ما يَشُوقُكَ ويهزك ويَحدوك

وربما اقتضى المرءَ عمرَه كله كي يَعرِفَ أن هذا الشوقَ وهذا والولوع

هو الغاية القصوى والثروة النهائية.

عادل مصطفى

Philoadel @ yahoo.com

الفصل الأول
المصادرة على المطلوب

begging the question ; petitio principii

"وفسَّرَ الماءَ بعد الجهد بالماءِ"

المصادرة على المطلوب هى التسليمُ بالمسألةِ المطلوبِ البرهنةُ عليها من أجل البرهنة عليها!! وذلك بأن تفترض صحة القضية التى تريد البرهنة عليها وتضعها بشكل صريح أو ضمنى فى إحدى مقدمات الاستدلال، وأنت بذلك تجعل النتيجة مقدمةً، وتجعل المشكلةَ حلاً وتجعل الدعوى دليلاً! وهو ضرب من الحجة الدائرية arguing in a circle، والاستدلال الدائرى ليس مغالطًا فى صميمه، ولكنه يغدو كذلك حيثما استُخدِم لكى يموِّه على فشلٍ فى حمل عبء البرهان، وتنجم المشكلة حيثما كانت النتيجة المراد إثباتها مفترضة أصلاً داخل المقدمات التى يتعين على الخصم أن يُسَلِّمَ بها ويبدأ منها(*).

ذلك أن الأصل فى البرهان أن يكون أوضح وأوثق معرفةً مما يُراد البرهنة عليه، ومن البديهى أننا حين نختلف حول شيء فإننا نلجأ إلى شيء آخر لا نختلف حوله،

(*) فى تعريفات الجرجانى: "المصادرة على المطلوب" هى التى تجعل النتيجةَ جزءَ القياس، أو يلزم النتيجة من جزء القياس، كقولنا الإنسان بشر، وكل بشرٍ ضَحَّاك، ينتج أن الإنسان ضحاك، فالكبرى ههنا والمطلوب شيء واحد، إذ البشر والإنسان مترادفان، وهو اتحاد المفهوم، فتكون الكبرى والنتيجة شيئًا واحدًا.

ونحاول أن نستدل منه على ذلك الشيء الخلافي. ولكي تكون للحجة قوة إبستمولوجية أو ديالكتيكية يتوجب أن تبدأ من مقدمات معروفة ومقبولة أصلاً لدى الحضور، ثم نتقدم منها لكي نستخلص النتيجة غير المعروفة أو غير المقبولة. أما أن "نصادر على المطلوب" ونستند على ذات النتيجة الخلافية وقد تَنَكَّرَتْ كمقدمة، وأما أن ندور في حلقة مفرغة ونحاول أن نَخْلُصَ إلى نتيجة تستند إلى مقدماتٍ ملقمة بها أصلاً (أي تستند إلى ذاتها!) فهذا فكرٌ عبثي فارغ لا يمكن أن يفضي إلى أي تقدم في المعرفة البشرية.

تتلون المصادرة على المطلوب بألوانٍ كثيرة، وتتخذ أشكالاً متعددة، وتجيد التخفي أحيانًا في هيئةٍ يتعذر كشفها إلا على المنطقي الخبير.

من أبسط صور المصادرة على المطلوب وأكثرها شيوعًا أن تجعل المقدمة صيغة أخرى من النتيجة المراد البرهنة عليها، مثال ذلك:

- تستلزم العدالة أجوراً مرتفعة، وذلك لأن من الحق والصواب أن يكون الناس أقدر على الكسب الوفير. (وهي لا تعدو أن تقول إن العدالة تتطلب زيادة الأجور لأن العدالة تتطلب زيادة الأجور!)
- يجب إلغاء المواد غير المفيدة كاللغة الإنجليزية من مقررات الكلية، وذلك لأن إنفاق اعتمادات لمادة غير مفيدة للطالب هو شيء لا يقره أحد. (نحن أيضًا لا نوافق على تبديد أموال في تدريس مواد غير مفيدة. غير أن الحجة هنا لم تثبت لنا أن الإنجليزية مادة غير مفيدة، وهو لب المسألة، وكل ما فعلَتْه هو أن "صادرت على المطلوب" ، وكررت النتيجة في المقدمات، دون التفات إلى المقدمة المحذوفة في هذا "القياس المضمَر" enthymeme، وهي: "اللغة الإنجليزية مادة غير مفيدة")
- أيُّما شيء أقل كثافةً من الماء سوف يطفو فوقه، وذلك لأن مثل هذه الأشياء لا يمكن أن تغطس في الماء.

- مادمتُ لا أكذب، فأنا إذن أقول الحقيقة.

قد يبدو للقارئ المبتدئ أن المصادرة على المطلوب هى مغالطة واضحة العيان سهلة الانكشاف وليست بحاجة إلى دراسة وتحليل يختلق صعوبةً حيث لا صعوبة. غير أن الأمر ليس دائمًا ببساطة الأمثلة السابقة. ويكفى أن نقول إن عقلاً بحجم عقل أرسطو، المعلم الأول ومؤسس المنطق الصورى، قد ارتكب مصادرةً على المطلوب بَيَّنَها جاليليو، "حينما أراد أرسطو أن يثبت أن الأرض فى وسط العالم فقال: الأجسام الثقيلة تميل بطبعها إلى مركز العالم والأجسام الخفيفة تبتعد بطبعها عنه. والتجربة تدلنا على أن الأجسام الثقيلة تميل إلى مركز الأرض والخفيفة تبتعد عنه. إذن مركز الأرض هو بعينه مركز العالم". (إن المقدمة الكبرى هنا فيها مصادرة على المطلوب، فإن التجربة تدلنا حقًا على أن الأجسام الثقيلة تميل إلى مركز الأرض والخفيفة تبتعد عنه، ولكن من أين يقول لنا أرسطو إنها تميل إلى مركز العالم، إذا لم يكن يفترض أن مركز الأرض هو بعينه مركز العالم؟ وهذا هو المطلوب البرهنة عليه!)(*)

بديهى أن أرسطو كان ممتلئًا بـ "مركزية الأرض" geocentrism وهو يصوغ هذه الحجة. وإنه لمن العسير حقًا أن تصوغ حججًا مُنتجةً لميولٍ أيديولوجية أو التزاماتٍ انفعالية. ولعل هذا هو السبب الذى يجعل السياسيين يخدعون الناس عن قصد ويخدعون أنفسهم عن غير قصد، ويمطروننا بوابلٍ من المصادرات على المطلوب التى تبدو دائمًا كفرضٍ عام يقدمونه لكى يدعم حالةً جزئيةً، بينما الحالة الجزئية لا تعدو أن تكون شطراً من ذلك الفرض العام؛ انظر إلى المثال التالى:

" يجب ألا نسمح ببيع هذه القطع من مقتنيات توت عنخ آمون إلى أى بلد أجنبى مهما كان الثمن؛ وذلك لأن آثار مصر العظيمة ليست للتصدير"

نحن أيضًا نأبى أن يباع أى شىء من الآثار المصرية مهما غلا الثمن. غير أن الحجة لم تقل لنا لماذا. وكل ما فعلته هو أن أعادت صياغة النتيجة (لا بيع لبلدٍ أجنبى) فى المقدمة (لا تصدير)(**).

(*) عبد الرحمن بدوى: "المنطق الصورى والرياضى" الطبعة الخامسة، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨١، ص ٢٤٤ .

(**) لاحظ أن "التصدير" ما هو إلا "البيع لبلدٍ أجنبى" وقد صيغ بعبارة أخرى! وكأن الحجة تقول ببساطة: لا بيع لأنه لا بيع!! وهذا التبديل فى الصياغة هو الذى يوهِم بأن المقدمات تحمل شيئًا مختلفًا.

ليس من المستغرَب أن تكون أحفلُ الحجج بالمصادرة على المطلوب هى الحجج الأيديولوجية والأخلاقية. ذلك أن هذه الحجج تكون موجهةً غالبًا إلى الشكاك، وأنها تتناول مجالات تفتقر بطبعها إلى قضايا وقائعية factual يلمسها الجميع؛ ومن ثم تكون المصادرة على المطلوب خطراً محدقًا بها ومنزلَقًا سهلاً. وكثيراً ما تكون الألفاظ المستخدمة فى هذه الحجج هى ألفاظ مُلْقَمة (مشحونة) loaded، أىْ ألفاظ تختزن داخلَها افتراضاتٍ خفيةً ونظرياتٍ بتمامها (مثال ذلك: رجعى، انتحارى، استشهادى، ضحية، اضطهاد، إرهاب..) وكأنها مصادراتٌ "جاهزةٌ" للاستعمال الفورى. يخوض المفكرون معاركهم وفى جعبتهم مخزون ضخم من هذه الألفاظ، وبخاصة حين يريدون أن يخبرونا ماذا نفعل وكيف نسلك. إن الواجبات التى يريدون أن يفرضوها علينا إنما هى مخبوءة سلفًا فى هذه الألفاظ المفَخَّخة. تبدو هذه الألفاظ كأنها تصف "وقائعَ" facts خالصةً لا شِيَةَ فيها، غير أنها تنطوى على "يَنْبَغِيَّةٍ" oughtness مطمورة فى ثناياها و "إلزامٍ" مضمَر. ولكى تتم الخدعة يجب أن تبدو المصادرة على المطلوب فى هيئة حجة، أى تتلى بمفاصل منطقية من قبيل: لأن، حيث إن، بما أن، إذن، وبناء عليه، ومن ثم.. إلخ؛ حتى لو كانت المسألة مجرد تكرارٍ بسيط للألفاظ.

أمثلة :

(١) "ينبغى ألا نصدر أسلحةً لماليزيا، لأن من الخطأ أن نزوِّد الأمم الأخرى بأدوات القتل." قد يبدو هذا كأنه حجة أو برهان، غير أنه مجرد إعادة صياغة لنفس العبارة بألفاظ أخرى:

من الخطأ أن = ينبغى ألا

نزوِّد = نصدر

الأمم الأخرى = الهند والصين وغانا .. وماليزيا .. إلى آخر قائمة الأمم

أدوات القتل = الأسلحة

فى ضوء هذا التحليل البسيط يتكشف أن الحجة لم تقل أكثر من: ق صادقة لأن ق صادقة.

(٢) "التجارة الحرة سوف تكون خيراً لهذا البلد. والسبب فى ذلك واضح للغاية: أليس من الواضح أن العلاقات التجارية غير المقيدة سوف تغدق على هذا البلد كل ألوان المنافع التى تنجم عندما لا تكون ثمة عوائق تعترض تدفق البضائع فيما بين بلدان العالم؟"

لا يعدو الأمر هنا أيضاً أن يكون إعادةَ صياغة، أو تكراراً للعبارة نفسها بألفاظ أخرى. (لاحظ أن "العلاقات التجارية غير المقيدة" هو تعبير مطوَّل بعض الشىء عن "التجارة الحرة"، وأن بقية العبارة هى تعبير مطول أكثر عن قولك "خير لهذا البلد").

(٣) "السرقة فعل غير مشروع، لأنها لو لم تكن كذلك لما كان حَرَّمها القانون."

تتظاهر هذه الحجة بأنها تبين السبب الذى من أجله تُعَد السرقة خطأ أو عملاً غير مشروع، غير أنها ليست أكثر من تكرار للقول نفسه بصيغة أخرى، ولا تعدو فى نهاية التحليل أن تقول: السرقة ضد القانون لأن السرقة ضد القانون؛ أو: السرقة غير مشروعة لأن السرقة غير مشروعة.

(٤) "التلباثى (التخاطر) خرافة لا وجود لها، لأن الانتقال المباشر للأفكار بين الأشخاص هو أمر مستحيل".

(التلباثى = الانتقال المباشر للأفكار بين الأشخاص؛ خرافة = مستحيل)

(٥) "إن السماح لكل إنسان بحرية مطلقة فى الحديث ينبغى أن نعده أمراً فى مصلحة الدولة؛ وذلك لأن من الأمور التى تصب دائماً فى مصلحة المجتمع أن يتمتع كل فرد بحرية كاملة غير منقوصة فى التعبير عن عواطفه."

(٦) "القتل الرحيم active euthanasia مقبولٌ أخلاقياً؛ إن من اللطف والرحمة وحسن الخلق أن تعين كائناً إنسانياً آخر على أن ينجو من المعاناة والألم من خلال الموت."

لنضع ذلك فى صورة مقدمة ونتيجة:

من اللطف وحسن الخلق..إلخ أن تعين إنسانًا ..... من خلال الموت

إذن القتل الرحيم مقبول أخلاقيًا

والآن إذا نحن ترجمنا المقدمة سنجد أن القائل لم يَعْدُ فى حقيقة الأمر أن كَرَّرَ الشيءَ نفسَه مرتين: "من اللطف وحسن الخلق" تعنى شيئًا قريبًا جداً من "مقبول أخلاقيا"، "تعين إنسانًا آخر.. من خلال الموت" تعنى "القتل الرحيم". هكذا نجد أن الحجة لم تقدم لنا أسبابًا عقلية تجعل القتل الرحيم مبرراً أخلاقياً، وتترك السؤال لدى المتلقى مفتوحًا: "حسن، لماذا إذن نعتقد أن القتل الرحيم جائز؟"

(٧) الإجهاض هو القتل غير المبرَّر لكائن إنسانى، وهو، من ثم، قتل؛ ومادام القتل جريمةً نكراء، فالإجهاض جريمة فى جميع الأحوال. (نحن أيضًا لا نريد إباحة الإجهاض دون قيد أو شرط؛ غير أن الحجة السابقة تجعل النتيجة متَضَمَّنة سلفًا فى المقدمات، وتصادر منذ البداية بأن الإجهاض قتلٌ غيرُ مبَرَّر دون أن تبين لنا لماذا كان ذلك) .

* * *

الاستدلال الدائرى reasoning in a circle

"هناك أحوال أخرى فيها لا يُفترَض مباشرةً صحةُ المطلوب معبراً عنه فى المقدمات بطريقة أخرى، وأما الذى يُفترَض فهو شيء تتوقف صحته على صحة النتيجة، أى لا يمكن البرهنة عليه إلا بالنتيجة فيكون هنا حينئذٍ دور vicious circle"(*)

(*) عبد الرحمن بدوى، "المنطق الصورى والرياضى"، ص ٢٤٤-٢٤٥.

يمكن تجريد الصورة المنطقية لهذا الدور كالتالي:

أ صادقة لأن ب صادقة

ب صادقة لأن أ صادقة

نحن إذن بإزاء شكل من أشكال المصادرة على المطلوب يعتمد فيه صدق الدعوى المقدمة على دليل يعتمد بدوره على الدعوى ذاتها التى يُفْتَرَض أن يبرهن عليها. وبذلك يدور البرهان في دائرة مغلقة وتعتمد كل قضية فيه على الأخرى.

وقد تطول سلسلة الدائرة أكثر من ذلك، بحيث تعتمد كل قضية على تاليتها، وتعتمد القضية الأخيرة بدورها على الأولى فتنغلق الدائرة، ولا يتوافر خارج السلسلة دليل مستقل عنها:

أ صادقة لأن ب صادقة

ب ...... ج ...

ج ...... أ ...

ويُعَد الاستدلال الدائرى مغالطة لنفس السبب الذى يجعل المصادرة على المطلوب مغالطة: وهو أنه لا يقدم لنا دليلاً مستقلاً عن الدعوى ذاتها، وأنه يفشل فى أن يربط لنا ما هو غير معروف أو غير مقبول بما هو معروف ومقبول، وفقًا لقاعدة "الأصل فى البرهان أن يكون أوضحَ وأوثقَ معرفةً مما يراد البرهنة عليه". وكل ما يفعله الاستدلال الدائرى هو أنه يقدم لنا مجهولين (أو أكثر) كل منهما مشغول بتعقُّب ذيل الآخر! بحيث لا يتسنى له أبداً أن يصل نفسَه بالواقع.

أمثلة :

(١) الروح جوهر بسيط لأنها خالدة، لا تتجزأ ولا تتحلل ولا تفسد.

والروح لا بد لها من أن تكون خالدة، لأنها جوهر بسيط.

(٢) – أنا لم أفعلها أيها المعلم، وزميلي عليٌّ يضمن لك صدقي

– ولماذا يتعين عليَّ أن أثق بكلام علِيّ؟

– علِي ؟! إنني الضامن لك أنه صادق أيها المعلم.

(٣) – نحن نعرف عن طبيعة الرب وصفاته من الإنجيل.

– ونحن نعرف أن ثقتنا في الإنجيل مطلقة، لأنه مُوحَى به من الرب.

(٤) – إنني أطلب منك أن تضطلع بهذه المهمة لأنني أُقَدِّر كفاءتَك.

– وكيف أعرف أنك تقدر كفاءتي؟

– هل كنتُ أطلب منك أن تضطلع بمثل هذه المهمة لو لم أكن أقدر كفاءتَك؟!

(٥) – هذه اللآلئ السبع التي سرقناها سوف نقَسِّمها على ثلاثتنا: خذْ أنت اثنتين، وأنت اثنتين، وأنا آخذ ثلاثًا.

– ولماذا تستأثر لنفسك بثلاث؟

– لأنني "الريِّس".

– وما الذي نَصَّبَكَ "ريساً" علينا؟!

– لأن لَدَى كلٍّ منكما لؤلؤتين ولَدَيَّ ثلاثَ لآلئ أيها الغبي!!

هل كل استدلال دائري هو مغالطة بالضرورة؟

إذا نظرنا إلى المنطق الاستنباطي للقضايا فإن المصادرة على المطلوب (ق إذن ق) صائبةٌ استنباطيًا. أين يكمن الخطأ إذن؟! ومتى تكون المصادرة على المطلوب أو الحجة الدائرية مغالطة؟

إذا عدنا تاريخيًا إلى المعلم الأول، أرسطو، نجده يتناول المصادرة على المطلوب تناولاً مزدوجًا:

– في "التحليلات (الأنالوطيقا) الأولى" يتناول المصادرة على المطلوب في ضوء قوله المأثور بأن البرهان يمضي مما هو أكثر يقينًا أو أوثق معرفةً: فإذا حاول المرء أن يثبت ما هو غير واضح بذاته عن طريق افتراضه والتسليم به بادئ ذي بدء، فإنه بذلك يصادر على المطلوب الأول، أو يُسلِّم بالمسألة الأصلية. إنه يفترض ما ينبغي عليه إثباته. يُعَد هذا توصيفًا إبستيميًا للمغالطة: فأن تصادر على المطلوب هو أن تنتهك المبدأ الإبستيمي القائل بالأولوية المعرفية للمقدمات فوق النتيجة في أي برهان من البراهين.

– غير أن أرسطو في "الطوبيقا" (المواضع الجدلية) يتناول المصادرة على المطلوب من حيث هي واردة في نزاع جدلي بين طرفين أو خصمين: تقع المصادرة على المطلوب عندما يطلب صاحب دعوى ما "ق" إلى خصمه المعارِض أن يُسلِّم بـ "ق" كمقدمةٍ عليه قبولها، ويُعَدُّ هذا توصيفًا جدليًا للمغالطة.

يقدم أرسطو خمس طرق يمكن للحجة بها أن تصادر على المطلوب، ويتفاوت تناوله للمغالطة بعض الشيء بحسب السياق الذي يتناول فيه المغالطة: السياق الإبستيمي (في تناوله للبرهان على سبيل المثال) أو السياق الجدلي (كما في الطوبيقا).

ربما يكون ذلك هو الخيط الذي يمكن أن يوصلنا إلى فهم اللغز: متى تكون الحجة الدائرية خطأً منطقيًا؟ يبدو أن هناك عاملاً إضافيًا يحسم أمر الحجة الدائرية ويحدد نصيبها من الصواب المنطقي : ذلك هو "السياق" context، ونعني به السياق الجدلي الذي تنسلك فيه الحجة، أو سياق الجدل القائم بين متحاورين لكلٍّ منهم التزاماتُه الاعتقادية الخاصة.

من هنا يجب أن نميز بين "الدلالة" (السيمانطيقا) و "التداولية" (البراجماطيقا) في المنطق، مثلما ميز أرسطو قديمًا بين السياق الإبستيمي والسياق الجدلي. تُعَرَّف "السيمانطيقا" semantics أو علم دلالة الألفاظ، أو المعاني، بأنها الدراسة التي تتناول علاقة العلامات اللغوية بالعالم الواقع خارج اللغة extra-linguistic world . أما "البراجماطيقا" (التداولية) pragmatics فتُعَرَّف بأنها العلاقة بين العلامات اللغوية ومستخدميها من بني البشر. فليست اللغة بأية حال شيئًا مُخَزَّنًا بالمعاجم وكتب النحو، بل هي شيء في استخدامٍ متصل بين بني الإنسان. وللبشر طرائقهم في تداول اللغة فيما بينهم بما يتجاوز الدلالة المباشرة للعلامات ، ويتجاوز النحو وتركيب الجملة بحد ذاته. من أهم الموضوعات التي تندرج في مبحث التداولية: الأفعال الكلامية speech acts، والإضمار الحواري conversational implicature، التفرقة بين المعجم والموسوعة، وبين الاستعمال والذِّكْر..

في ضوء هذه التفرقة الأساسية بين الدلالة والتداولية يمكننا أن نمضي فنقول إن الحجج الدائرية ليست مغالطة بالضرورة. وإنما يتوقف الأمر على السياق الحواري للحجة وعلى الالتزامات الاعتقادية لدى المتحاورين. يمكننا بتعبير تقني أن نقول إن المصادرة على المطلوب أو الحجة الدائرية هي "مغالطة تداولية" pragmatic fallacy : أي قصور يتعين تقييمه بالنظر إلى الطريقة التي استخدمت بها الحجة في سياق حواري معين. لا تكون المصادرة على المطلوب مغالطة إلا إذا فشلت في تحقيق وظيفة مهمة من وظائف الحجة هي الوظيفة البرهانية، أي إذا لم تغير شيئًا في درجة الثقة التي يكِنُّها الخصمُ في النتيجة المَعْنِيَّة (المسألة المطلوب إثباتها). الأمر هنا يتوقف على ما يعتقده متلقِّي الحجة وعلى درجة الثقة التي كان يوليها للمسألة التي يتم البرهنة عليها. الأمر هنا يتفاوت بحسب الالتزامات الاعتقادية الأصلية للطرف المتلقي. فإذا كانت الحجة تكرر النتيجة في المقدمات (أي تثبت المسألة بذاتها أو تفترض ما يطلب الخصم إثباته) متوجهة بذلك إلى خصم لا يعتقد أصلاً في هذه النتيجة ولا يلتزم بها،

فإنها عندئذ لا تؤدى وظيفتها البرهانية المنوطة بها، وهى بهذا المعنى وفى هذا السياق تعتبر مغالطة.

أما عندما تُقَدَّم نفس الحجة (من الوجهة السيمانتية/ هُوِيَّة سيمانتية) إلى طرفٍ متلقٍ يعتقد فى النتيجة ويلتزم بها اعتقادياً، فإنها فى هذا السياق التداولى المختلف لا تعتبر مغالطة.

ولمزيد من التبيان نقول إن من أهم وظائف الحجة "الوظيفة البرهانية" probative function، أى وظيفة إزالة الشك (أو خفضه)، والتى تفترض الإطار التالى للحوار: ثمة طرف (المتلقى) لديه شكوك أو تساؤلات تتصل بنتيجة معينة، وثمة طرف آخر (صاحب الحجة أو الداعى) مهمته فى الحوار هى إثبات هذه النتيجة إثباتًا يُقنِع المتلقى ويرضيه وفقًا لمقتضيات عبء البرهان المناسبة لنوع الحوار وللحالة المَعْنِيَّة. فالآن إذا طرح الداعى حجةً دائريةً من الصنف الذى لا يتسنى فيه خفض شكوك المتلقى أو تدعيم المقدمات إلا بإثباتها من النتيجة، عندئذ تكون الحجة مصادرة على المطلوب. مثال ذلك هذا الحوار بين مؤمن وشاك:

– سيظل القرآن الكريم إلى يوم القيامة محفوظًا من كل التصحيف والتحريف.

– ما الدليل على ذلك؟

– الدليل أن الله يقول فى كتابه العزيز: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون"

من البين أن هذه الحجة تنطوى على مصادرة على المطلوب لأن المتلقى ليس لديه التزامٌ عقائدى بالقرآن ومن ثم فإن الدليل المطروح لا يضمن عنده أن يبقى القرآن محفوظًا بما فيه "إنا نحن..".

أما عندما ترد هذه الحجة بحذافيرها فى سياق تداولى آخر يجرى بين داعٍ مؤمن ومتلق مؤمن أيضًا ولديه التزام عقائدى بالقرآن، هنالك تضطلع الحجة بوظيفتها البرهانية وتكون حجة صائبة مائة بالمائة وبريئة من أية مصادرة على المطلوب. هكذا تتجلى أهمية أن يتقن "الداعيةُ"(*) منطق الجدل، وألا يغفل لحظةً هوية المخاطَب والتزاماته الاعتقادية المبدئية، وأن يتجنب تأييد المذهب "من داخله" (المصادرة على المطلوب)، ويلتزم دائمًا بالحجج التى تؤيد المذهب "من خارجه".

ها نحن بإزاء حجة واحدة (من حيث الصورة السيمانتية) تصادر فى حالة ولا تصادر فى أخرى، وذلك لاختلاف السياق التداولى. إنها ترد فى سياق تداولى فتكون مغالطة ومصادرة على المطلوب، وترد فى سياق تداولى آخر فتكون صحيحة لا شيةَ فيها. نَخْلُصُ من ذلك إلى أن المصادرة على المطلوب هى مغالطة تداولية بالدرجة الأساس(*).

فى كتابه "نسق فى المنطق" a system of logic ذهب جون ستيوارت مِل إلى أن جميع صور الاستدلال الاستنباطى ترتكب مغالطة "المصادرة على المطلوب". فالقياس syllogism يتضمن دوراً أو مصادرة على المطلوب، لأن المقدمة الكبرى فيه تفترض صحة النتيجة. يذكر مل هذا القياس الشهير:

كل إنسان فان

أفلاطون إنسان

إذن أفلاطون فان

(*) الداعية، بحكم التعريف، هو من يدعو "غير المؤمنين" إلى الإيمان، وعليه من ثم أن يراعى "السياق التداولى" pragmatic context لخطابه، فلا يلجأ إلى تفسير المذهب بنفسه أو إثبات الماء بالماء، وهو شرطٌ لا يريد أن يفهمه كثير من الدعاة المخلصين.

(*)Walton, Douglas N.: 1985, 'Are Circular Arguments Necessarily Vicious?', American Philosophical Quarterly 22, 263-74.

ويقول إن المقدمة الكبرى "كل إنسان فان" تفترض النتيجة مسبقًا بمعنى أننا لا يمكن أن نوقن بصدقها ما لم نكن موقنين بصدق النتيجة "أفلاطون فان". فإذا كان من المشكوك فيه أن أفلاطون فان فسوف يكون من المشكوك فيه، بنفس الدرجة على أقل تقدير، أن جميع البشر فانون.

هنا أيضًا يسعفنا تصور "السياق التداولي" pragmatic context كمحك لهذه المغالطة. هل ثمة دور منطقى فى القياس السابق؟ ذلك أمر يتوقف على ما إذا كان سياق الحجة يتضمن (ربما استقرائيًا) بينة على المقدمة الكبرى "كل إنسان فان" مستقلة عن النتيجة.. بينة بيولوجية مثلاً على فناء الحيوانات. غير أن هذا يطرح سؤالاً مربكًا عن دور البَيِّنة الخَلفية background evidence فى سياق الحجة، ويعود بنا من ثم إلى مشكلة ما الذى يمكن أن يُعَد، أو لا يُعد، "مقدمة"premise لحجة معينة(*).

أمثلة أخرى للحجة الدائرية

- الخطة القومية

يذكر البريطانيون تلك "الخطة القومية ١٩٦٤-١٩٧٠"، وهى ممارسة للتخطيط الاقتصادى القومى الذى كان صيحة رائجة فى ذلك الوقت: فقد طُلِبَ من الشركات أن تتخذ معدل نمو قدره ٣,٨٪ ، وأن تُقَدِّر على هذا الأساس ما ستكونه خططها الخاصة للتوسُّع. ثم أضافت الحكومة هذه التقديرات المختلفة، واستنتجت أن الخطط المشتركة للصناعة البريطانية تومئ إلى معدل نمو قدره ٣,٨٪ !! لا غرو كانت الخطة القومية لا قيمة لها وما تزال، اللهم إلا لخبراء المغالطة المنطقية ممن يسعدهم الحظ بالحصول على نسخ منها لدى باعة الكتب المستعملة!!

(*)Walton Douglas N., In 'Informal Logic: The First International Symposium', ed. J. Anthony Blair and Ralph H. Johanson, Inverness, California, Edgepress, 1980, 41-54.

- الدور الديكارتى

يعرف كل قارئ لديكارت أنه بدأ فلسفته بافتراض الشك فى كل شىء على الإطلاق: فى شهادة الحواس وأحكام العقل ووجود العالم.. إلخ، حتى عثر على اليقين الأول الذى لا يتطرق إليه الشك، وهو يقين الفكر، يقين الكوجيتو: "أنا أفكر فأنا إذن موجود". لقد أثبت وجود الذات بالفكر، ثم التمس للفكر سنداً فى الوجود الواقع؛ فأثبت وجود الله بالفكر ذاته ليكون ضامناً لمعرفته الواضحة المتميزة عن العالم الخارجى. بذلك يتبين الخطأ المنطقى الذى وقع فيه ديكارت بوضوح تام: فهو لم يخرج من شكه إلا بدورٍ منطقى ظاهر؛ فمن جهة يجب للبرهنة على وجود الله الاعتماد على العقل والأفكار الواضحة كوسائل لا تخدع، ومن جهة أخرى لأجل التحقق من أن العقل والأفكار الواضحة لا تخدع يجب العلم أولاً بوجود الله وصدقه!!(*)

- التحليل النفسى

تَعِج كتابات رائد التحليل النفسى وأتباعه بمصادرات على المطلوب تؤدى لدرس المنطق أضعافَ ما تؤديه لدرس السيكولوجيا من خدمات!

فى كتابه "تفسير الأحلام" يقول فرويد بالنص الحرفى: "وأرادت مريضة أخرى (هى أمهر حالاتى) أن تنقض نظريتى فى الأحلام، فأمكن أن يحل حلمها حلاً أقل تعقيداً وإن ظل متفقًا مع ذات القاعدة: أن عدم تحقق إحدى الرغبات معناه تحقق أخرى، ذلك أننى شرحت لها يومًا أن الحلم يحقق رغبة، فأتتنى فى اليوم التالى بحلم رأت فيه أنها تسافر مع زوجة أبيها لتقضيا فصل الصيف فى الريف. وكنتُ أعلم أنها قد ثارت ثورة عارمة على فكرة المصيف قريباً من زوجة أبيها، وأنها قبل ذلك بأيام قد أفلحت لحسن حظها فى الإفلات من هذه الصحبة المخوفة فاستأجرت منزلاً فى الريف يبعدها عن حيث كانت امرأة أبيها كل البعد. وها هو ذا الحلم قد أتى؛ فإذا هو يقلب هذا الوضع رأسًا على عقب. ألا ينقض ذلك نظريتى فى تحقق الرغبة بوساطة الحلم

(*) انظر على سبيل المثال "تاريخ الفلسفة الحديثة" للأستاذ يوسف كرم، الطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩، ص ٧٠.

أقطع نقض؟ يقيناً، ولا يحتاج المرء إلى أن يستخرج النتيجة التى تخلص من هذا الحلم لكى يحصل على تفسيره: إن الذى يخلص من هذا الحلم هو أننى كنت على خطأ. وهكذا فقد كانت رغبتها هى أن أكون على خطأ والحلم يريها تحقق هذه الرغبة(*).

يذهب أنصار التحليل النفسى إلى أن المشاهدات الإكلينيكية تؤيد نظرياتهم، من حيث هى وقائع تجريبية تربط النظرية بالعالم ربطاً اختبارياً فتمنحها الصفة العلمية. غير أن هذه الملاحظات الإكلينيكية، شأنها شأن كل الملاحظات الأخرى، هى تأَوُّلات فى ضوء النظرية، ولهذا السبب وحده تكتسب مظهر المدَعِّم لتلك النظريات التى تم فى ضوئها تفسير هذه الملاحظات. إنها أشبه بثوبٍ خُلِع "من" النظرية ثم خُلِعَ "عليها".. فَهالَهُم أنه انطبقَ على النظرية وأيَّدَها تأييداً، وهو منطقٌ معكوس يقع فيه كل من يقرأ فكرتَه ويتأَوَّلها فى كل شىء ويراها فى كل شىء لأنه لا يرى إلا بها! وهو منطق معكوس تجد له أمثلة لا تحصَى فى النظريات الميتافيزيقية التى تبدو الوقائعُ مؤيدة لها، ولو دققنا النظر فى هذه الوقائع لتبين لنا أنها اختيرت فى ضوء النظريات عينها التى نريد اختبارها بها.

قلما يخضع التحليل النفسى للاختبار فى الممارسة الحقيقية. وحتى حين يعرض للاختبار فإن الاستدلال كثيراً ما يكون دائرياً، بمعنى أن تفسير المعطيات نفسها يتطلب افتراض صدق النظرية. مثال ذلك ما ورد عن نتائج دراسة حول عقدة أوديب Oedipus Complex حيث كانت نسبة الفتيات أكبر من نسبة الأولاد بدرجة عالية الدلالة فيما يتصل بتخيل الصورة الذكرية ترتقى الدرَجَ وتدخل الغرفة. وهو بالطبع أقوى دليل على صدق نظرية فرويد، حيث إن ارتقاء السلم فى نظرية فرويد هو رمز للجماع(**). مثل هذا الدليل مشكوك فيه إلى حد كبير لأن هذا الفرق المذكور بين الذكور والإناث لا ينهض دليلاً على صدق نظرية فرويد إلا إذا تبنى التفسير الرمزى الذى يتضمن أن الفتيات يفكرن فى الاتصال الجنسى بأبيهن؛ أى بـ "مصادرة على المطلوب"، وما من نتيجة إلا ويمكن أن تكون مؤيَّدة إذا نحن أفرغنا عليها التفسيرَ المطلوب تأييده.

(*) سيجموند فرويد: "تفسير الأحلام"، ترجمة د. مصطفى صفوان، المؤلفات الأساسية فى التحليل النفسى بإشراف الدكتور مصطفى زيور، دار المعارف، ١٩٩٤، ص ١٧.

(**) Kline, P. (1984), Psychology and Freudian Theory, New York, Methuen, p.

وبعد؛ فمن شأن الحجة السديدة لإثبات دعوى معينة أن تقدم دليلاً مستقلاً لتبرير الاعتقاد بهذه الدعوى، وأن تتجنب الاعتماد على الدعوى، أو شطرٍ من الدعوى، لإثبات ذاتها. وما يكون لعاقلٍ أن يفترض، كدليل أو بينة، ذاتَ الشيء الذى يحاول أن يثبته. غير أننا كثيراً ما يجرفنا الانفعال الأيديولوجى والالتزام بصدق مذهبنا السياسى أو الأخلاقى ويَعْصِب أعيننَا عن رؤية أننا، فى حقيقة الأمر، نفترض مقدماً صدقَ ما نريد أن نبرهن عليه. ولذلك تجد المصادرة على المطلوب مرتعًا خصيبًا لها فى مثل هذه المجالات. وحيثما فرغت ساحةٌ من البراهين الصلبة والحجج الوقائعية المستقيمة تم استدعاء الحجج الدائرية لتَوَلِّى الأزِمَّة واتخاذ اللازم. ولو أن هناك براهين مقنعة على الأيديولوجيات، المتكثرة تكثر الأهواء والمصالح، لكان عسيراً على ذوى العقول أن يختلفوا حولها. ومن البين المتواتر أنه كلما توافر للناس حججٌ أكثر قبولاً وصلابة زاد انصرافهم عن الحجج الدائرية لتبرير دعواهم.

ربما تخدع المصادرة على المطلوب قائلَها أكثر مما تخدع متلقيها. لأن المرء حين يكون مُشْرَبًا منذ البداية بموقف ما فإن من السهل أن يتراءَى له كلُّ مكافئٍ أو صِنْوٍ لهذا الموقف كأنه برهانٌ عليه. ثمة فرق بين أن تعتنق رأياً وبين أن تكون قادراً على تبرير هذا الرأى. وعلى محبى الحكمة أن يتعلموا من درس الفلسفة أن هناك فرقًا بين الموقف نفسه وبين الحجج التى يستند عليها الموقفُ. ومن لم يتعلم هذا التمييز سيكون عُرضةً دائمًا للانخداع بمغالطة "المصادرة على المطلوب".

الفصل الثانى
مغالطة المنشأ

genetic fallacy ; damning the origins

"الحكمة ضالة المؤمن؛ أينما وجدها فإنه أحَقُّ بها"

"خذ الحكمة ولا يضُرُّكَ من أيِّ وعاءٍ خرجَت"

وإن تكنْ تَغْلِبُ الغَلْباءُ عنصرَها

فإن فى الخمر معنى ليس فى العنبِ

المتنبى

تُولَدُ الفكرة

تنهضُ على أرجلها الخاصة

تَتَوَكَّأُ على ذاتها

وتغادر بيتَ أبيها

ولا تعود تسقط بسقوطِهِ

أو تَنْجَرِحُ بانجراحِهِ

قوةُ الفكرة لا تكمن فى الأصل الذى يَنْميها بل فى المنطق الذى يُزَكِّيها.

وصواب الفكرة لا يحدده مَصْدَرُها الذى منه أتَتْ بل الدليلُ الذى إليه تستند.

ثمةَ فرقٌ بين السبب الذى يجعل الناس تعتقد فى شئٍ ما ratio credentis وبين السبب الذى يجعل هذا الشئَ حقًا أو صوابًا ratio veritatis.

فى أمثل الأحوال يكون الحق مبررًا للاعتقاد. غير أنه لا يَنْدُرُ أن تنعكس الآيةُ ويستخدم المرءُ مصدرَ اعتقاده (مَرَدَّه وأصله ومنشأه) كما لو كان دليلاً على صدق هذا الاعتقاد، فيقبل الشئ أو يرفضه بحسب أصل هذا الشئ ومصدره، وموقع ذلك من نفسه بين القبول والرفض. هنالك يكون قد "خرج عن الموضوع" وتَنَكَّبَ "الصلة" relevance ووقع فى خطأ منطقى عتيد يطلق عليه "المغالطة المنشئية" genetic fallacy .

قد تُعَدُّ المغالطة المنشئية ضربًا من "البخل" المعرفى أو الذهنى؛ فالبحث والتقصى لمعرفة التبرير المنطقى لاعتقادٍ ما قد يكون مرهقًا ويتطلب وقتًا وجهدًا سخيًا. ونحن قلما نسخو بالطاقة الذهنية عندما تتوافر لدينا خياراتٌ أقل كلفة. من ذلك أن ننظر فى أصل الاعتقاد ونتخذه معيارًا لتقدير نصيبه من الصدق. لعلنا قد تَبَنَّينا هذا اللون من الاقتصاد الذهنى عبر تطورنا النوعى لأنه يسعفنا فى أحيان كثيرة، وبخاصة عندما يكون الاستقصاء الدقيق بطيئًا بدرجةٍ خطرة. غير أن علينا أن نعترف أن هذه الآلية وإن تكن مُعِينةً على البقاء فهى ليست أوثق الطرق لاكتشاف الحقيقة.

بالإنسان إذن ولعٌ متأصل بمعرفة مصدر الحجة، وقلما يُولِى الناسُ ثقتَهم بآراء جاءت من مصدر يمقتونه، بغض النظر عن المزايا الفعلية لهذه الآراء نفسها. وكأنهم يقولون: فلتذهبْ هذه الآراء إلى الجحيم مع أصحابها. ربما لذلك تُسَمَّى هذه المغالطة أحيانًا "damning the origin" (لَعْن المصدر أو الأصل). يتناسَى هؤلاء أن الحجة إنما تنهض على أرجلها الخاصة وتستند إلى معايير صدقها وتقف بمعزل عن أصلها ولا تَستقِى منه قوةً ولا ضعفًا.

تجد هذه الآليةُ الفكرية مرتعًا خصيبًا فى عالم الأفكار الرائجة والصيحات الفكرية السائدة. فيكفى أن تجلسَ فى جَمْعٍ من أدعياء الثقافة وتقول "هكذا قال رولان بارت أو جاك دريدا" أو "هكذا يذهب تيار ما بعد الحداثة" لكى يحظى قولُك بالإكبار والإعجاب. كذلك حين تأتى التزكيةُ للفكرة، أو للعمل، من مصدرٍ ذى مكانةٍ واعتبار فلا

تُدرَك وجاهتُها إلا منعكسةً من وجاهة المصدر، كأنما تستعيرُ منه الهيبةَ والجدارة. يُذكَر أن طاغور عندما أُسْنِدَت إليه جائزة نوبل تَنادَى قومُه لتكريمه والاحتفال به، فقال فى شيء من الاستهانة والازدراء "إنهم يُكَرِّمون التكريم!"، أى إنهم لم يَفْطِنوا إلى قيمته من قبل، وإنما جاءوا لتكريمه بعد أن جاءته جائزة نوبل"(*).

وفى محاورة فايدروس لأفلاطون يُبَيِّن سقراط حجة معينة باختراع أسطورة صغيرة عن المصريين القدماء. فيرد عليه فايدروس بقوله إن بوسع سقراط بطبيعة الحال أن يخترع قصصًا عن المصريين القدماء أو عن أى مكان يشاء. عندئذ يرد سقراط على هذا النقد باختراع أسطورة إضافية:

"يُرْوَى أن أُولى النبوءات قد صدرت عن شجرة بلوط فى محراب زيوس فى دودونا. ولم يكن الناسُ قديماً فى بساطتهم على شاكلتكم معاشرَ الشباب فى فلسفتكم؛ بل كانوا لا يستنكفون أن يسمعوا الحقيقة ولو من شجرة بلوط أو صخرة. فبِحَسْبِهم أنها الحقيقة. أما أنت فلا تقنع فيما يبدو بما إذا كان شيءٌ ما حقًّا أم لا، بل يعنيك مَن القائل ومن أى بلادٍ تأتى الرواية."

فى هذه الفقرة يذكرنا سقراط بأن ما تعنينا معرفته عن عبارة معينة هو ما إذا كانت حقًّا أم باطلًا، أما المصدر الذى جاءت منه العبارة، سواء كان شجرة أو صخرة أو أسطورة مصطنعة خصيصًا، فأمرٌ خارج عن الموضوع.

وفى كتابه "النقد الفنى" يصوغ جيروم ستولنيتز المغالطة المنشئية (مغالطة الأصل) صياغةً مُحْكَمة فيقول:

"وبالاختصار فإن منشأ س شيء، و س ذاتها شيء آخر. وما إن تبدأ س فى الوجود حتى تصبح لها حياةٌ خاصة بها، إن جاز التعبير. وسوف يصبح لها – شأنها شأن النظرية أو الكائن البشرى – تركيب وقيمة، وتدخل فى علاقات مع الأشياء

(*) هكذا غنى طاغور، ترجمة خليفة محمد التليسى، الدار العربية للكتاب، ليبيا–تونس؛ المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر؛ ١٩٨٩، ص ١٠

الأخرى، لا يمكن فـهـمـهـا تمامًـا من خـلال أصلهـا الأول. فـلا بد لنا من دراسـة هذه السمات لكى نعرف كُنهَها.(*)"

أمثلة :

- "إن مستشار ألمانيا الحالى كان طفلاً فى الثالثة عندما كان هتلر فى السلطة؛ وبالنظر إلى هذه الخلفية ، فإن خطة "الإصلاح" التى يقدمها ستكون برنامجًا نازيًا بالضرورة."
- " كيف تسمح لنفسك أن تتخذ خاتم زواج (دبلة) وأنت تعلم أن هذا الرمز يعود إلى أصول بدائية همجية، عندما كانت المرأة تسلسَل من أعقابها بعقال، كالدواب المملوكة، حتى لا تفر من زوجها؟!"
- "إن هذا الدواء مستمَد من نباتٍ سام، فهو إذن سيضر بى أشد الضرر إذا أنا استعملته، حتى لو كان طبيبى ينصحنى بذلك." (الخطأ هنا هو فى الانتقال غير المشروع من أصل الدواء (النبات السام) إلى استنتاج أنه سام بالضرورة فى أى شكل وأى موقف)
- "اليوجينيا (تحسين النسل) eugenics علمٌ ضار على نحوٍ مطلق، والعبث بالجينات عملٌ فاشى نازى، هكذا كان هتلر يحاول من قبل، فكيف نمضى فى شىء بدأه شخص مثل هتلر؟!"

– مصدر النظرية العلمية

ويُلِحُّ فيلسوف العلم كارل بوبر فى غير موضع من كتاباته على أن مصدر النظرية العلمية هو أمرٌ لا صلة له البتة بوضعها العلمى، أى بتحديد ما إذا كانت النظرية علمية

(*) جيروم ستولنيتز: "النقد الفنى – دراسة جمالية وفلسفية"، ترجمة : د. فؤاد زكريا، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨١، ص ٢٤

أم لا. فالنظرية لا تكون علمية ما لم تكن "قابلة للتكذيب" falsifiable، يستوى فى ذلك أن تكون النظرية قد جاءت من المختبر أو من نفحة إلهام. بالطبع قد تكون إحدى الطرق أكثر خصوبة من غيرها كوسيلة لإنتاج نظريات أصيلة، ولكن هذا لا علاقة له بالسؤال عما إذا كانت عبارة ما هى عبارة علمية أو غير علمية، ولا علاقة لها بالسؤال عن مدى أصالتها العلمية إن كانت عبارة علمية. ليست هناك طريقة آلية يمكن بها العلم أن يحقق تقدمًا. وبوبر فى ذلك يرخى العنان للتأمل الخيالى الجرىء. فالعلم ليس أقل احتياجًا للخيال من أى فن آخر من الفنون. وفى معرض نقده لفرويد لم يأخذ عليه طريقته فى الكشف ولم يعرض لهذا الأمر قَط. فهو لا يعنيه مصدر النظرية بل يعنيه منطق الاختبار. وهو لا يسأل العالِمَ من أين جاء بنظريته بل يسأله عما أَعَدَّ لها من اختبارات قاسية. وقد لاحظ أينشتين من قبل أنه بينما يمكن للنظرية أن تُختبَر بالبينة evidence فليس هناك طريقٌ من البينة إلى النظرية! ويُظْهِرنا تاريخ الممارسة العلمية على أن الاقتحامات الكبرى فى العلم تأتى عن طريق الحدس. ثمة دائمًا قفزة إبداعية تتجاوز المعلومات المتاحة وتضيف إليها شيئًا ما مستجداً. وأحيانًا ما تأتى ومضة الاستضاءة من الأحلام بالمعنى الحرفى!.. أحيانًا ما يحلم العلماء نظرياتهم حلمًا! وفى كتابهما "الإبداعية العالية: تحرير اللاوعى من أجل انطلاق الاستبصارات" يعرض وليزهارمن و هوارد راينجولد عدداً هائلاً من الأحلام العلمية، مثل حلم كيكوليه ببِنية حلقة البنزين؛ إذ رأى فى منامه أفعى تعض ذيلها (وقيل عدة أفاع تعض كل واحدة ذيل تاليتها)، وحلم نيلز بور بالنظام الشمسى كنموذج للذرات، وحلم ديمترى مندليف بالجدول الدورى للعناصر. لا لم يكن مصدرُ النظرية مما يعنى بوبر من قريب أو بعيد. فلتأت النظرية من حيث تأتى، المهم أن تكون علمًا، أى قولاً يحمل نبأ عن العالم المحدد الذى وُجِدنا فيه، ويحمل فى تضاعيفه تنبؤات قابلة للاختبار(*).

(*) كارل بوبر، مصدر سابق، ص ٧٥-٧٦

ويُذْكَر أن نظرية التطور خطرت لألفرد والاس بينما كان فى حالة هذيان delirium . ومن الأحاديث الشهيرة ما يؤثَر عن أرشيميدس من أنه توصل إلى مبدأ الثقل النوعى وقانون الطفو (الإزاحة) بينما كان يغتسل، فقفز من الحمام صائحًا "وجدتها!!" Eureka!.

- منشأ الدولة عند هوبز

ذهب هوبز إلى أن أصل الدولة يرجع إلى العداوة والمنازعات المستمرة بين أشخاص أنانيين، يعيشون خارج نطاق أى نظام اجتماعى، وأن الدولة تنشأ من محاولة الحد من هذه العداوات. ولكن حتى لو صح هذا، لما كان تفسيراً بالضرورة لطبيعة الدولة فى الوقت الراهن. فمن الممكن أن تتجاوز الدولة نطاق وظيفتها الأصلية، وتضع لنفسها أهدافًا مختلفة كل الاختلاف، وتركيبًا من نوع آخر. وعندئذ لا يمكننا القول إن من طبيعة الدولة ذاتها أن تقوم بالقمع والتنظيم. فمن الممكن أن يكون تبرير سلطتها مختلفًا كل الاختلاف عما تصوره هوبز، الذى انتهى إلى موقفه هذا استدلالاً من وصفه "المنشئى"genetic(*).

- منشأ العمل الفنى

فى مجال تذوق الأعمال الفنية، وتفسيرها وتقييمها، نكون عُرضة بصفة خاصة لارتكاب المغالطة المنشئية. وذلك حين نتجه باهتمامنا كله إلى حياة الفنان وشخصيته وسيرته الذاتية، ونظن أننا بذلك نقارب العمل مقاربة فنية جمالية، بينما نحن نبتعد عن عالم الفن بقدر ما نلج فى عالم الفنان الشخصى ومفردات حياته. ليس ما يهمنا، من

(*) النقد الفنى، ص ١٢٤ .

وجهة النظر الجمالية، هو تاريخ العمل وظروف نشأته، وإنما العمل ذاته، واقفًا على قدميه. قد يتمكن الباحث الفرويدى، على سبيل المثال من أن يبين كيف دخل التخييل فى العمل ذاته. غير أن هذا لا يؤدى فى ذاته إلى تفسير قيمة العمل. فالعمل ليس مجرد تخييل، وإنما هو تخييل صيغ وشُكِّلَ فى بناءٍ فنى وباستخدام وسائل فنية. وهو قد أصبح جزءًا لا يتجزأ من نموذجٍ من الألوان أو الأصوات أو الكلمات. فعلينا ألا ننسى أبدًا عناصرَ العمل التى تجعله على ما هو عليه فى طبيعته الباطنة(*).

كذلك يمكن أن يؤثر نوعٌ متشابه تمامًا من الإحباط (على مذهب فرويد) فى فنانين مختلفين، وقد يتخيلان إشباعًا بديلاً من نوع مماثل إلى حد بعيد. ومع ذلك فإن الأعمال التى يبدعانها قد تكون مختلفة تمامًا من حيث القيمة، فيكون أحدُهما ضئيلَ القيمة والآخرُ عظيمًا. وعندئذ يكون ذلك راجعًا إلى عوامل مثل الجاذبية لا يمكن أن توجد إلا فى العمل الفنى، لا فى منشئه.

وما إن نفهم المغالطة المنشئية حتى يصبح كلامنا وتفكيرنا أشد حذرًا ودقة؛ إذ إن هذا الفهم يجعلنا نحذر الاستدلالات المتسرعة، غير النقدية، من حياة الفنان عن طبيعة عمله. فليس فى وسعنا أن نفترض بسهولة أن كون الفنان فى حالة نفسية معينة فى وقت الخلق الفنى يؤدى بالضرورة إلى انعكاس هذه الحالة النفسية على العمل. ذلك أن للعمل طابعًا خاصًا به. بل إن هناك فى الواقع فارقًا هائلاً بين الحالة النفسية التى تشيع فى العمل، وبين حالة الفنان فى وقت خلقه لهذا العمل. من ذلك أن السيمفونية الثانية البهيجة لبتهوفن كُتِبَت فى وقت كان يعانى فيه ألمًا شخصيًا مبرحًا. ومن ذلك أيضًا شهادة تشايكوفسكى الشخصية إذ يقول: "إن العمل الذى يؤلَّف فى أسعد الظروف قد يصطبغ بألوان قاتمة كئيبة"(**). وهناك شهادة أخرى لكاتبة أمريكية كبيرة

(*) النقد الفنى، ص ١٢٧.

(**) Rosamond E. M. Hardling: "An Anatomy of Inspiration", (Cambridge, Heffer, 1942) p. 78.

هى كاترين آن بورتر، تفرق بدورها بين الحالة النفسية للخلق وبين العمل الفنى، فتقول: "ليس فى وسعى أن أقول لك ما الذى يضفى على العمل حرارة حقيقية... إنها ليست متعلقة بما تشعر به فى أية لحظة بعينها، وليست قطعًا متعلقة بما تشعر به لحظة الكتابة. وربما كان البرود هو أنسب الحالات لذلك، فى معظم الأحيان".

كذلك ينبغى تجنب مغالطة الأصل عندما يكون العامل المنشئ اجتماعيًا لا شخصيًا. مثال ذلك أن كثيراً من موضوعات الفن البدائى التى نضعها فى المتاحف كانت فى الأصل تُستخدَم لأغراض عملية. فهذه الأوانى والملاعق والأوعية كانت من قبل موضوعات عادية تُستخدَم فى الحياة اليومية. ومع ذلك لا يمكننا القول إن النظر إليها بطريقة جمالية، بدلاً من الطريقة العملية، ينطوى على تشويه لطبيعتها الحقة. ففى هذا القول خلط بين الموضوع، الذى يمكن النظر إليه على أنحاء شتى، وبين منشئه(*).

- المنشأ السيكولوجى (والاجتماعى) للأفكار

ليس هناك أدنى شك فى أن العوامل الاجتماعية والنفسية ضالعة فى نشأة الأفكار والمذاهب، وأن فهم هذه العوامل هو شرط لا بد منه لفهم هذه المذاهب وتقييمها. وقد دَبَّجَ "فيلسوف القرن" برتراند رَسل سِفراً ضخمًا فى تاريخ الفلسفة أسماه: "تاريخ الفلسفة الغربية: وصلته بالظروف السياسية والاجتماعية منذ أقدم العصور إلى اليوم" (نعنى أنه عرَفَ صلة هذه الظروف بفكر الفلاسفة، ولا نعنى أنه اقتصر عليها).

غير أن الاقتصار على تقييم الأفكار وفقًا للظروف الاجتماعية التى اكتنفتها والدوافع السيكولوجية التى أوقدتها، والاكتفاء بتحليل هذه الدوافع كبديل عن تناول الحجج ذاتها - يُعَد سقوطًا مزريًا فى المغالطة المنشئية. فإذا أمكن لعلم النفس أن

(*) النقد الفنى، ص ١٢٩-١٣٠

يكشف شيئًا من الآليات السيكولوجية التى كانت تعتمل بنفس المفكر وهو يبدع مذهبه، فإنه يقف أعزلَ أمام البناء الاستنباطى للمذهب والنسيج المنطقى للأفكار. فإذا ما نزع له مبحثُه السيكولوجى أن يُعْمِلَ أدواته ومقولاته فى تلك الأقاليم المنطقية فإنه يَهزِل ويَهتُر، ويُغْرِب ويغترب، ويقع فى "خطأ مقولى"(*) category mistake فاضح فيصف الشيء بما لا يوصف به!

هذا ما يمكن أن يحدث فى أمثل الأحوال ومع أعتى علماء النفس وأفقههم. أما ما يحدث فى الواقع الفعلى ويُغْثِينا كلَّ يوم فى الجرائد والكتب والدوريات ووسائل الإعلام فهو ضرب من "السيكولوجيا الشعبية" pop psychology الركيكة التى تَرتجِل الديناميات النفسية ارتجالاً وتكتفى لتفنيد الفكرة بإلصاق دوافع سلبية لا دليل عليها، بَلْهَ أن تكون دليلاً على خطأ الفكرة.

- فهذا معارضٌ للحكومة لأنه عانى فى طفولته من علاقات متعسرة مع والديه أدت به إلى صعوبة فى تَقَبُّل السلطة، وفى تقبل كل "صورة والدية" parental figure !!
- وهذا نشأ فى أسرة مفككة، أو أسرة مُعدَمة، أو أسرة ثرية بورجوازية، وهذا تَعَرَّض للإيذاء فى طفولته الباكرة، وهذا أفرط أبواه فى تدليله (أو تعكيره)، وهذا كان أبوه قاسيًا (أو لَيِّنًا).. إلخ.

ومهما تكن أوضاع الخصم فلن تعدم أن تقيِّضَ له دوافعَ سيكولوجيةً تُوظَّف لتقويض فكرته!

(*) "المقولة" category فى الميتافيزيقا تعني: فئة، جنس، عائلة، نوع.. إلخ؛ وهو مصطلح يستخدم ليدل على شريحة أساسية فى تصنيف الواقع. وأن ترتكب "خطأً مقولياً" category mistake هو أن تقرن أشياءَ من تصنيفات مختلفة لا يجوز عقلاً أن تجتمع. مثال ذلك أن تقول: أعدادٌ حمراء، فضائل بدينة، قضايا غير قابلة للأكل. (وليم إيرل: مدخل إلى الفلسفة) .

الفصل الثالث

التعميم المتسرع

hasty generalization

" ولا تُشَيِّدْ صَرْحًا من الأوهام المزعجة على أساسٍ

غيرِ متينٍ من ملاحظاته الناقصة ."

شكسبير – عطيل

"ما نكادُ نتَلَقّى "حَبَّةً" من الوقائع facts حتى نشيِّدَ منها "قبةً" من التعميمات"

جوردور أولبورت

"تقول الدِّيَكة الرومية :

الفلاح قَدَّمَ الذرةَ لنا اليوم

الفلاح قَدَّم الذرةَ لنا أمس

الفلاح قدم الذرة أمسِ الأول

الفلاح يقدم لنا الذرة منذ أشهر عديدة

الفلاح سيظل يقدم لنا الذرة إلى الأبد

الفلاح يحبنا ويحرص على حياتنا وراحتنا"

افترِضْ أنك كنتَ فى مكتبةٍ فلاحظتَ أن الكتب المرصوصة فى قسمٍ معين تتضمن عناوين مثل: ميرامار، بين القصرين، المعذبون فى الأرض، عودة الروح، وإسلاماه،

شيء من الخوف، سارة، بين الأطلال. قد تستنتج من ذلك أن كل، أو أغلب، الكتب في هذا القسم هي في الرواية. إن مقدمتك تقوم على ملاحظتك لمجموعة بعينها من الكتب. وإن نتيجتك معَمَّمة لتشمل المجموعة الأكبر من الكتب التي يشتمل عليها هذا القسم من المكتبة.

هذه هي عملية "التعميم الاستقرائي" inductive generalization التي من خلالها نستمد خصائص فئة كلية من خصائص "عينة" sample من هذه الفئة، أو نستخلص نتيجة حول "جميع" الأعضاء في مجموعة ما من خلال ملاحظات عن "بعض" أعضاء هذه المجموعة:

ملاحظة ١: س١ يتسم بالخاصة ص

ملاحظة ٢: س٢ يتسم بالخاصة ص

ملاحظة ٣: س٣ يتسم بالخاصة ص

وهكذا...

إذن كل س يتسم بالخاصة ص

يُستخدم التعميم الاستقرائي في مجالات كثيرة مثل البحث العلمي والمسح الاجتماعي واستطلاعات الرأي السياسية.. إلخ. غني عن القول أن ملاحظة جميع الأفراد (المجتمع الأصلي population) في المجموعات الهائلة العدد هو أمر صعب ومكلِّف وكثيراً ما يكون مستحيلاً عملياً. الأمر الذي يُلجِئنا إلى إجراء "أخذ عينة" sampling، وفحص هذه العينة لِتَبَيُّنِ خصائصها، ثم "تعميم" generalization هذه الخصائص على جميع أعضاء المجموعة الأصلية (المجتمع الأصلي). ولكي يكون هذا التعميم صائبًا أو قريبًا من الصواب ينبغي أن تكون العينة "مُمَثِّلَة" representative للمجموعة بكاملها غير متحيزة لجانب دون جانب أو مأخوذة من ركنٍ دون ركن.

هناك طرق كثيرة لاختيار العينة بحيث تقترب من النموذج المثالى لما ينبغى أن تكونه العينة، مثل طريقة "الاختيار العشوائى" random sampling؛ ولكى توصف العينة بالعشوائية لا بد من أن تخضع للقرعة وأن تكون أمام جميع أفراد "المجتمع الأصلى المدروس" population فرص متساوية للوقوع فى العينة.

والطريقة الثانية هى أخذ "عينة طبقية" stratified sample، بحيث تكون ممثلة للمجتمع الأصلى أو المجموعة الأصلية ومُسْتَلَّة من جميع أطرافها وتضاعيفها وزواياها؛ فتشتمل على فئاتها كافة وعلى خصائصها الأساسية وبنفس نسب تواجدها فى المجموعة الأصلية. فإذا كانت المجموعة الأصلية تتكون من ثلثين من الذكور وثلث من الإناث وكان نصفها من القاهرة وربعها من شمالها وربعها الباقى من جنوبها لتوجب أن تكون هذه النسب جميعاً منطبقة أيضاً فى العينة.

والطريقة الثالثة هى أخذ عينة (عشوائية أو طبقية) ثم العودة لأخذ عينة أخرى على أقل تقدير بعد انقضاء فترة دالة من الزمن، ومقارنة العينتين لتبين أى تغيرات طرأت. بذلك تكون العينةُ أكثرَ إحاطةً بالمجتمع المدروس لأنها تمثل أفراده فى أكثر من فترة زمنية واحدة. وتسمى هذه العينة "time-lapse sample".

يميل الناس كثيراً إلى التحيز فى أخذ العينة، إما بسبب ميلهم (عمداً أو غير عمد) إلى التماس العينات التى توافق نظريتهم، وإما بسبب الرعونة والكسل والاستسهال الذى يدفعهم إلى انتقاء ما هو مُواتٍ قريبُ المأخذ ويصرفهم عن بذل العناء والوقت من أجل استخلاص عينة صحيحة.

* * *

هَبْ أن لديك دَلْواً به كرياتٌ من البِلى حمراء وخضراء وصفراء وبيضاء. إن عينة مكونة من ثلاث كريات من المحال أن تمثل المجموعة الكلية أيًا كان عددها. وفى المقابل، هب أن لديك قِدْراً ضخمًا من الحساء أو من المعكرونة قيد الطبخ. إن بإمكانك الحكم

على ملوحة الحساء بتذوق ملعقة واحدة، وبإمكانك الحكم على درجة نضوج المكرونة بتذوق واحدة منها. ذلك أن التجانس تام فى هاتين المجموعتين بحيث تكفى عينة مكونة من فرد واحد للحكم على الكل. كذلك الحال بإزاء مجموعة كبيرة من الفئران المستنسخة التي يكاد كل فرد منها يطابق الآخر مطابقة تامة. لعلكَ الآن قد تبينتَ الصعوبة الكامنة فى تحديد كم العينة التى تعد كافية لتمثيل مجتمع من المجتمعات أو مجموعة من المجموعات، والذى قد يتطلب تقنيات إحصائية ورياضية معقدة، ويبقى رغم ذلك أمرًا غير يقينى ويهيب بملكة الحُكْم لدينا وربما باعتقاداتنا المسبقة عن أفراد المجموعة المَعْنِيَّة.

ويزداد الأمر تعقيداً عندما نكون بإزاء مجموعة ضخمة مترامية الأطراف متعددة الأطياف غير متجانسة. هنالك يتطلب الأمر شرطًا آخر بالإضافة إلى حجم العينة: أن تكون "ممثِّلة كيفياً " أى عشوائية وطبقية تتوزع بالقسطاس على المجموعة المفحوصة بحيث تمثلها بكل نواحيها وأرجائها. إن ثمانية شبان متحلِّقين على طاولة فى مقهى أرستقراطى لا يمكن أن يكونوا عينة كافية لتحديد الميول السياسية داخل بلد بأكمله. تلك عينةٌ غير كافية من جهة، وغير عشوائية ولا طبقية من جهة أخرى.

من الأمثلة التاريخية الصارخة لعينةٍ غير موفقة، لا بسبب صغرها بل بسبب تحيزها وعدم تمثيلها للمجتمع الأصلى، ذلك الاستطلاع الذى قامت به مجلة "Literary Digest" قبيل الانتخابات الأمريكية عام ١٩٣٦ لمحاولة التنبؤ بمن يفوز بالرئاسة فرانكلين روزفلت أم ألفرد لاندون؛ حيث تم جمع مليونين وثلاثمائة ألف رأى، كانت نتيجتها تشير إلى فوز لاندون بأغلبية كبيرة. وقد جاءت نتيجة الانتخابات الفعلية مخيبة لهذا الاستطلاع إذ فاز روزفلت بأغلبية ستين بالمائة. فأين كان يكمن الخطأ؟!

كانت المجلة ترسل بطاقات الاستطلاع إلى أسماء اختارتها عشوائيًا من واقع دليل التليفونات ومن قوائم المشتركين فى المجلة نفسها ومن قوائم مالكى السيارات. المشكلة أن مالكى الهواتف والسيارات ومشتركى المجلة كانوا فى الأغلب من الطبقة الأعلى دخلاً بالولايات المتحدة، ومن ثم فهى لم تمثل الطبقات الأدنى دخلاً من المجتمع

الأمريكي في زمنٍ كان فيه مستوى الدخل ذا صلة قوية بالميول السياسية والحزبية. ومن ثم، فعلى الرغم من ضخامة العينة المختارة فإنها كانت "عينة متحيزة" biased sample " غير ممثِّلة" unrepresentative للمجتمع الأمريكي بجميع شرائحه وطبقاته.

يفضي هذان الخطآن في عملية اختيار العينة (الصغر والتحيز) إلى ما يسمى مغالطة "التعميم المتسرع" hasty generalization .

أمثلة للعينة غير الممثِّلة كميًا (الصغيرة/ غير الكافية) quantitatively un-representative sample :

(١) كلما شاهدتُ الأخبار في هذه القناة الفضائية وجدت زنوجًا يجري القبض عليهم لجرائم سرقة. إذن جميع الزنوج، أو معظمهم، لصوص."

(٢) "جلست إلى هذه الصديقة ثلاث مرات، وتبين لي في كل مرة أن مزاجنا مؤتلف وذوقنا متفق في كل شيء. إذن هذه أصلح امرأة في العالم لأن تكون زوجة لي."

(٣) "تزوجتُ مرتين وفي كل مرة كان زوجي يطمع في ثروتي ولا يخلص لشخصي. ولذا قررت ألا أتزوج إلى الأبد لأن الرجال كلهم يفتقرون إلى النزاهة والإخلاص."

(٤) "ما كدتُ أخطو خطوتين في مطار لندن حتى وجدت موظف الجمارك دمثًا ودودًا، وعندما خرجتُ وجدتُ سائق الأجرة مبتسمًا كريماً؛ فعرفت أن الإنجليز شعب طيب مفرط في الود والسماحة." (يقول المثل المصري: لا تذم ولا تشكر إلا بعد سنة و "ست" اشهر)

(٥) "لماذا كل هذه الجلبة التي تثيرها لي كلما انعطفتُ بالسيارة على طريق رئيسي؟! إنني أقود سيارتي منذ عشر سنوات ولا أتوقف عند منعطفات الطرق الرئيسية ولم أُصَب بحادث واحد؟!"

(٦) "كـان صديـقًا مثاليًـا لى طـيلة عـقدين من الزمان، ولكـن مـنذ عَبَـسَ فى وجهــى فى ذلك الاجـتـمـاع الكـبيـر أيقنــتُ أنه ليـس بالصــديـق الوفــى، وقــررتُ أن أتركــه."

يقول المتنبى(*):

فإن يكن الفعلُ الذى ساءَ واحداً

فأفعالُه اللائى سَرَرْنَ ألوفُ

(٧) "كانت جدتى تعانى من هذا الألم اللعين نفسه، وقد وُصِفَ لها خل التفاح ممزوجًا بصفراء العجل، فلما تناولته شفيت على الفور، ولَم يعد ينتابها هذا الألم. فلماذا تذهب إلى الأطباء وتبدد نقودك وتُدخِل نفسك فى دوامة موبِقة من الفحوص والعمليات لن تخرج منها إلا إلى القبر؟!"

(٨) "فشلت هذه المرأة فى قيادة المقاتلة النفاثة وحطمت طائرتها فى أول طلعة لها. وهذا دليل على أن النساء لا يصلحن لقيادة الطائرات المقاتلة."

أمثلة للعـينة غير الممثّـلة كيـفيًا (المتحيزة) qualitatively unrepresentative sample :

(١) استطلعنا رأى مـائتى طالب بمدرسة المسـاعى المشكورة فأجـمعـوا على أن امتحان الرياضيات كان عسيرًا جداً هذا العام. ولذا قدمنا مذكرة عاجلة بذلك للوزارة للنظر فى تعديل النتيجة."

(٢) التفاحات على وجه الصندوق تتألق نَضْرةً وبهاءً. إذن جميع التفاحات فى الصندوق من الصنف الممتاز.

(*) وقريب منه قول ابن الرومى :

أُذَكِّرُ النفسَ مَثْنَىً من مَحاسِنِهِمْ إذا ذَكَرْتُ ذنوبَ القومِ أُحْدانا

(٣) يقيناً إن دخل المحامين فى مصر مرتفع جداً. هناك خمس عشرة فيلا فاخرة فى مارينا يتملكها محامون مصريون.

(٤) فى استطلاع ضخم فى الإسكندرية وبورسعيد تبين أن اثنين وثلاثين بالمائة ممن شملهم الاستطلاع يقضون شهراً على الأقل كل عام على شاطئ البحر. إذن يمكننا أن نستنتج أن حوالى ثلث سكان مصر يقضون شهراً على الأقل على البحر.

النصوع المضلِّل misleading vividness

يلحَق بالتعميم المتسرع ما يعرف بـ "النصوع المضلِّل"؛ حيث يؤخذ مثالٌ واحد (أو حفنة من الأمثلة) بأكثر من دلالته الإحصائية بسبب وهجه ودراميته. يعود ذلك إلى الأثر النفسى الذى يتركه الحدث الدرامى فى الذهن، وكأنه يقوم فى حساب الذاكرة مقام عشرة أحداث عادية خاملة. يعزو السيكولوجيون هذا الأثر النفسى إلى فرضية كشفية معرفية تسمى "availability heuristic" . من ذلك أن شخصاً نجا من حادث تحطم طائرة قد يميل حقًا إلى الاعتقاد بأن معدلات كوارث الطيران أكبر من معدلات غيرها من الكوارث، وأن السفر بالطائرة أخطر من السفر بأى وسيلة أخرى؛ وإن كانت الإحصائيات تَقطَع بخطأ هذا الاعتقاد.

* * *

وبعد؛ فحين يسمح المرء لعقله أن يشَيِّد تعميمات عريضة على أساس معلومات شحيحة أو أدلة هزيلة أو أمثلة قليلة أو عينة غير ممثِّلة فلن يُعْيِيه أن يُقَيِّضَ أدلةً لكل شىء ويجد بينةً لأى دعوى مهما بلغت من البطلان والسخف. ولن يُعْجِزَه أن يؤيد أى شىء يميل إلى الاعتقاد به مادام يَعْنِيه الاعتقادُ ولا تعنيه الحقيقة.

لعل التعميم المتسرع من أكثر المغالطات شيوعاً. فهو يتبطن كثيراً من التحيزات العرقية والعنصرية والنعرات الشوفينية والطائفية والطبقية والتعصب الدينى

والأيديولوجى. كذلك يتبطن التعميم المتسرع كثيراً من الأوصاف النمطية عن الشعوب المختلفة (الإنجليزى، الهندى، الإيطالى ..) وعن أهل الأقاليم المحلية (المنوفى، الشرقاوى، الدمياطى، الطنطاوى، البحيرى، الصعيدى ..)؛ وربما يتبطن كثيراً من اعتقاداتنا حول أصناف المنتجات وماركات الأجهزة التى تقوم فى الغالب على بضعة أمثلة من واقع خبرتنا الحياتية القصيرة المحدودة.

والحق أننا مضطرون إلى التعميم فى حياتنا العملية؛ ولا يَسَعُنا إلا التعميم إذا شئنا أن نفكر فى أى شيء أو نتخذ أى قرار. ويبقى أن نتبع الأسلوب العلمى فى استخلاص التعميمات، وأن نتجنب التعميم المتسرع جهد استطاعتنا، وأن نملك تعميماتنا ولا تملكنا؛ أى أن نجعل منها مجرد فروضِ عملٍ قابلة للمراجعة والتنقيح لا اعتقاداً دوجماوياً صلباً يأخذ علينا سُبُل التأمل ويسد علينا منافذ التفكير.

* * *

ملاحظتان :

● أحياناً ما نضطر اضطراراً إلى اتخاذ عينة صغيرة جداً، وذلك عندما لا تكون فى حوزتنا غيرها. ومن الغبن أن يُتَّهَم المرءُ بالتعميم المتسرع إذا كانت العينة المتاحة للدراسة محدودة جداً ولم يتَسَنَّ له أى مصدر آخر للمعلومات. كثيراً ما يضطر علماء الكتابات القديمة مثلاً إلى استخلاص أصولها من عينات شحيحة للغاية مثل حجر رشيد. وكثيراً ما يضطر علماء البيولوجيا مثلاً، وبخاصة علماء الحفريات، إلى دراسة عينة وحيدة عن حيوانٍ ما.

● قد يفضى التعميم المتسرع، شأنه شأن أى مغالطة أخرى، إلى نتيجة صادقة. ولا يَندُر أن تأتى نتيجة صادقة عن استدلال مغلوط. ولكن مادام الاستدلال مغلوطاً فليس ثمة مبرر لقبول نتيجة قائمة على مثل هذا الاستدلال.

الفصل الرابع

تجاهل المطلوب (الحَيْد عن المسألة)

ignoratio elenchi ; missing the point

إذا كان الرماةُ رماةَ سَوْءٍ   أحلُّوا غيرَ مرماها السهاما

شوقى

المقدمات أخطأت هدفها

وحادت عن مرماها

عَمدًا أو فرطَ انفعال

غير أنها تُستقبَل بالتهليل

لأنها تحمل صيدًا على كل حال!

فى هذه المغالطة يتجاهل المرءُ الشىءَ الذى يتوجب أن يبرهن عليه، ويبرهن على شىء آخر. وقد يبدو استدلاله معقولاً بحد ذاته، ولكن المغالطة هنا فى أنه يبرهن على نتيجة أخرى غير النتيجة المطلوبة التى يتعين عليه أن ينصرف إليها دون غيرها. بذلك تتسم الحجة بِسِمَتَين: أنها قد خرجت عن الهدف المحدد لها، وأنها قد اتجهت مباشرة إلى نتيجة أخرى.

يقف محامى الادعاء فى جريمة قتل، وبدلاً من أن يبرهن بالحجة على أن المتهم هو مرتكبها يشرع فى إثبات بشاعة القتل وبشاعة الجريمة؛ قد ينجح الادعاء فى تقديم مرافعة عصماء ويبث هول جريمة القتل بألف حجة، غير أنه إذا جعل من ذلك

دليلاً على أن المتهم مذنب بها يكون قد ارتكب مغالطة "تجاهل المطلوب" ignoratio elenchi.

تتمتع هذه الحجة المغالطة بجاذبية خفية. وتكمن قوتها في أن هناك نتيجة تم إثباتها على نحوٍ صائب. وهذا الصواب هو الذي يصرف انتباه المستمعين بعيداً عن المغالطة.

وتلقى هذه المغالطة رواجاً خاصاً في مجال التشريع الاجتماعي: فكثيراً ما يُقترَح برنامجٌ بعينه لبلوغ غايةٍ كبرى متفق عليها من الجميع، ثم يدعَّم البرنامج بحجج تثبت بالفعل أهمية هذه الغاية الكبرى، غير أنها لا تقول شيئًا ذا صلة بالبرنامج المَعْنِيِّ ، ولا تثبت أن هذه الغاية الكبرى تُبلَغ بهذا البرنامج المحدد دون غيره! قد يتم ذلك عن عمد وقد ينجم عن فرط الحماس لهذه الغاية الكبرى، والذي قد يُغَشِّي على أنصار البرنامج المحدد، وعلى مستمعيهم، فلا يرون خروج حجتهم عن الموضوع.

من ذلك أنه في برنامجٍ محدد لمكافحة الفقر، قد يفيض دعاة البرنامج في ترديد حجج تثبت أن الفقر تنبغي مكافحته والفقراء ينبغي إنصافهم، دون أن يثبتوا لنا أن ذلك حرى أن يتم من خلال برنامجهم دون غيره!

وعندما نناقش تطوير نظام دفاعي معين باهظ التكلفة فإن حجتنا تخطئ هدفها إذا جعلت تبرهن على أهمية تطوير دفاعاتنا دون أن تعرض لهذا النظام المحدد وتثبت حاجتنا الحقيقية إليه وتبرهن على أنه أجدى لنا من غيره على ثقل تكلفته.

كذلك الحال بالنسبة لكل الأهداف الكبرى التي تُطرَح على نحوٍ شديد العمومية: الأمن القومي، السكن الصحي، مكافحة الفقر، مكافحة الجريمة، علاج عجز الميزانية.. إلخ. من أيسر الأمور أن نُصَدِّق على هذه الأهداف العامة ونصبو إلى تحقيقها؛ أما الأسئلة الصعبة حقًا فهي هل هذا البرنامج المحدد حقيقٌ ببلوغ هذا الهدف المنشود؟ وهل هو أجدى في بلوغ هذا الهدف من غيره من البرامج الأخرى الممكنة؟ إن تغافل هذه الأسئلة، والتعتيم عليها بتعميمات براقة عن هدفٍ مأمولٍ أكبر، يجعلنا نحيد عن القصد ونطيش عن المرمى ونقع في مغالطة "تجاهل المطلوب".

أمثلة أخرى :

(١) محامي الدفاع: "كيف يكون موكلي قد أمر بارتكاب جريمة القتل وقد برهنتُ لكم بما لا يدع مجالاً للشك أنه لم يكن بالبلد كلها وقت وقوعها؟ (حسن، ولكن هل هذا دليل على أنه لم يأمر بها قبل سفره؟ أو أنه لم يرتبها بالهاتف مثلاً؟)

(٢) – ألم يحدث يا سيادة الوزير أن مستويات معيشة الفقراء قد تدنت في زمن تولِّيك بدرجة كبيرة قَدَّرَتها إحصائيات علمية بحوالي ٢٨٪ ؟

– هذه وثائق رسمية تثبت أننا رفعنا معاش الأرامل بنسبة ٥٪ ورفعنا أجور قطاع النفط بنسبة ١٠٪ وزدنا دعم الخبز بنسبة ١٢٪ وهذا ما لم يفعله خصومنا في فترة تَوَلِّيهم. (وهكذا كلما قدَّم منتقدٌ للساسة سؤالاً محدداً فجاءه الرد وابلاً من الدعاية الصاخبة عن مزايا الحكومة،فثَم مغالطة "تجاهل المطلوب" ignoratio elenchi).

(٣) إن إساءة استخدام الدعم وعدم وصوله إلى مستحقيه لظاهرة تفشت هذه الأيام بدرجة مخيفة؛ والبديل الوحيد الذي أراه هو إلغاء الدعم برمته."

(٥) "لديَّ دراسات تثبت أن رياضة العدْو في الطريق العام قد تضر بالصحة أكثر مما تفيدها. ولذلك أنادي بأن تُحظَر رياضة الجري في الشوارع." (حتى لو كان ذلك صحيحاً فهل هو حجة تؤيد حظر الجري في الطريق؟)

الفصل الخامس

الرنجة الحمراء

red herring

الكلاب تَجِدُّ فى طلَبِ الطريدة

الرائحة ترسم طريقَ الطِّراد

تَعْبُر الرنجة الحمراء، فيتحول المسار

ينسى الطريق طريقَه

الرنجة الحمراء، بشميمها الأنفذ

بَرَكَةُ آلهةِ الفرار

وملاذُ كلِّ مَن أَثْخَنَه الجدل

هى حيلةٌ كان يستخدمها المجرمون الفارون لتضليل كلاب الحراسة التى تتعقبهم، وذلك بسحب سمكة رنجة حمراء عبرَ مسارِ المطاردة، فتجتذب الكلابَ رائحتُها الشديدة عن رائحة الطريدة الأصلية. وقد استُعِيرَت للتعبير عن كل محاولة لتحويل الانتباه عن المسألة الرئيسية فى الجدل، وذلك بإدخال تفصيلات غير هامة، أو بإلقاء موضوع لافت أو مثير للانفعالات وإن يكن غير ذى صلة بالموضوع المَعْنِى ولا يشبهه إلا شبهًا سطحيًا، فيقذف بالخصم خارج مضمار الحديث.

من دَأْب محترفى هذه المغالطة أن يستهلكوا الخصم فى تُرُّهاتٍ خارجة عن الجادة، وأن يثيروا مشاعر المستمعين وانتباههم بطرح مسألةٍ براقة أخاذة وإن تكن

بعيدة عن موضوع الحديث؛ فتَهوِى إليها أفئدةُ الحضور ولا يعود أحد يذكر الموضوع الأصلى. إنهم بذلك لا يُحاجُّون بل يصخبون ويتلاعبون ويتداهون وينفثون سحابات التمويه والتعمية، ويتحدثون فى أى شىء إلا الشىء المَعْنِى، وكثيراً ما ينجحون فى صرف الانتباه وتحويل مسار الحديث وتبديد النقاش؛ فينفردون بالساحة حقًّا ويبدون منتصرين فى الجدل، وكأنهم يفوزون لتغيُّب الخصم!

تجتمع لجنة على سبيل المثال لمناقشة إجراء جديد للحد من تلوث الهواء. فينبرى أحد الأعضاء ويتحدث عن الأعباء الضريبية التى تثقل كاهل المواطن. ويتصدى عضو آخر بحديث مطول عن سطوة الشركات المتعددة الجنسية التى تملك زمام العالم وينبغى أن نضع حداً لهيمنتها وتسلطها. ويفيض ثالث فى الحديث عن نوعية المناخ قديماً وكيف كان الهواء أكثر (أو أقل) نقاءً عندما كان طفلاً يمشى كل يوم ثلاثة كيلومترات ليصل إلى مدرسته البسيطة التى كانت تقدس التعليم وتجعل منه رسالة لا وسيلة للابتزاز والربح .. إلخ. انظرْ هل ترَى فى هذه الاستطرادات أىَّ صلة بالموضوع الرئيسى الذى اجتمعت من أجله اللجنة، وهو بالتحديد: هل من شأن هذا الإجراء الجديد أن يحِدَّ من تلوث الهواء؟ هل ستكون إيجابياته أكثر من سلبياته؟ وهل ثمة إجراء أفضل من ذلك للحد من تلوث الهواء؟

متى يكون التحول عن الموضوع مشروعاً ؟

كثيراً ما تتخذ المسائل المعقدة تراتباً هرمياً بحيث يتعذر حسم مسألة معينة قبل أن يتم حسمُ مسألة أخرى. مثال ذلك ما يجرى فى كثير من محاورات أفلاطون. فى محاورة الجمهورية، على سبيل المثال، يتحول مسار الحديث إلى مسائل ميتافيزيقية وإبستمولوجية مجردة؛ وذلك لأننا لا يتسنى لنا الإجابة عن أسئلة عملية عن معاقبة المجرمين أو تربية الأطفال حتى نعرف أولاً ما هى "العدالة"؛ ولن نعرف ما هى العدالة حتى نعرف المقصود بمفهوم "الخير"، وهذه بدورها تتطلب تحليلاً كاملاً لعلاقة الأفكار بالعالم الفيزيقى!

هكذا نتبين أن الوصول إلى اتفاق عقلاني قد يتطلب العودة بالحوار إلى أسئلة أكثر أساسية. ثمة إذن تحولٌ مشروع عن موضوع الحوار في بعض الأحيان: ذلك هو التحول إلى مسألة جذرية تمهد المسرحَ لمناقشة الموضوع المَعْنِيِّ وتُفْضِي إليه. إنها لا تُغَشِّي عليه بل تزيده وضوحًا، ولا تذهب به طي النسيان بل تؤدى إليه وتضعه في نصابه.

أما مغالطة الرنجة الحمراء فليست من ذلك في شيء، لأن الموضوع الجديد الذى يُلقَى به في مسار الجدل ليس أكثر أساسيةً بل أكثر بريقًا وشحنًا انفعاليًا فحسب، ولأن الموضوع الجديد لا يفضى بطبيعته إلى الموضوع الأصلى بل يُقْصِي عنه ويُنْسِيه ويصرف دونه الانتباهَ والذاكرة.

الفرق بين مغالطة الرنجة الحمراء ومغالطة تجاهل المطلوب

في مغالطة "تجاهل المطلوب" ignoratio elenchi ثمة صيدٌ تم الظفر به ولكنه غير المطلوب؛ وثمة نتيجة محددة تصل إليها الحجة ولكنها غير النتيجة المطلوبة. إنه خطأ في الاستدلال. أما في مغالطة "الرنجة الحمراء" red herring فإن الحجة تنحرف في اتجاه مختلف ولا تصل إلى شيء: فهى إما حيودٌ خارج الموضوع diversionary irrel-evance إلى موضوع آخر مثير انفعاليًا فحسب، وإما تمويهٌ وسحابة تَعْمِيَة pettifog-ging لا تفضى إلى شيء ذى بال. ليس هنا استدلال أخطأ هدفَه، بل خداع للمستمع واستهلاك له وانحراف عن الموضوع برمته إلى مسألة أخرى.

أمثلة :

(١) "كيف توافق على حظر الماريجوانا؟ الماريجوانا لا ضرر منها البتة. إنني لأحِسُّ بأمان حين يكون السائق يدخن الماريجوانا أكثر بكثير مما أحسه حين يكون السائق تحت تأثير الخمر. إن الخمر حقًا هى أم المشاكل. أتعرف أن إباحة الخمر تكلف العالم سنويًا، بين ثمن صناعتها وتعاطيها وثمن الكوارث

التى تلحقها، أكثر من تريليون دولار؟!" (لاحظْ أن الموضوع الأصلى ليس كوارث الخمر، بل كوارث الماريجوانا ومبررات حظرها).

(٢) "مواقف السيارات؟ أعرف أن الأستاذ الدكتور سليم السيد كان يشكو فى الاجتماع الأخير من ضيق أماكن الانتظار بالكلية. ولكن هل تدرى أنه تم ضبطه فى علاقة مشبوهة مع إحدى طالباته؟ إلى متى يجيد التعليم العالى عن هدفه ويتحول إلى كمين للتحرش والابتزاز؟ بالله لا تحدثنى عن هذا الرجل مرة أخرى. (المسألة الأصلية هى ضيق أماكن الانتظار، وليست قصة مثيرة عن علاقة أستاذ بطالبة أو عن فساد التعليم العالى).

(٣) "يقول صديقك إن قهوة تسترتشويس أفضل مذاقًا من قهوة فولجرز؟ يبدو أنه يتجاهل حقيقة أن تسترتشويس تنتجها شركة "نسله" التى أنتجت ذلك الحليب الذى أحدث ضجة كبيرة. لقد صَدَّرَته لدول العالم الثالث، فراحَ ضحيتَه آلافُ الأطفال عندما كان الحليب الجاف يمزج بماء ملوث." (إن مسألة وفيات الأطفال لمثيرة حقًا، ومن ثم كانت جديرة بصرف الانتباه عن الموضوع الأصلى: أى المذاقين أفضل؟)

(٤) تقول صحيفة كونسيوم ديجست إن لمبات جى إى أطول عمراً من لمبات سيلفانيا. ولكن هل تعلم أن جى إى هى أكبر منتج للأسلحة النووية؟ إن الأضرار الناجمة عن سلوكها غير المسؤول تفوق التصور؛ وليس أقلها أنها تخلِّف آلاف الأطنان من النفايات النووية التى لا تعرف أين تواريها." (لاحظ أن الموضوع الأصلى "أى اللمبات أطول عمراً؟" قد اختفى تماماً تحت سحابة الأسلحة الفتاكة والنفايات النووية) .

(٥) "إن أنصار البيئة ليقيمون الدنيا ويقعدونها فى حديثهم عن مخاطر القوة النووية. غير أن للكهرباء مخاطر جمة بغض النظر عن مصدرها. هناك صواعق طبيعية، وهناك كهرباء المصانع والمصاعد والبيوت. إن آلاف البشر

كل عام يُصعَقون بسبب الإهمال والجهل. ومن الممكن تجنب هذه الأخطار المُحِيقة بمزيد من إجراءات الاحتياط والتوعية."

(٦) ثمة كثير من اللغط هذه الأيام عن الحاجة إلى حظر استخدام المبيدات فى حقول الخضروات وبساتين الفواكه.غير أن كثيراً من هذه الأطعمة ضرورى لصحتنا . فالجزر مصدر ممتاز لفيتامين أ، والقرنبيط غنى بالحديد، والبرتقال وغيره من الموالح تحتوى على نسب عالية من فيتامين ج...إلخ.

الفصل السادس

الحجة الشخصية

argumentum ad hominem

"خُذِى رأيى وحَسْبُكِ ذاكَ مِنِّى   على ما فِيَّ مِن عِوَجٍ وأَمْتِ"

المعرى

"الحجةُ حجةٌ؛ وأنتَ لا يسعُك إلا أن تأخذ حُجَجَهم بعين الاعتبار
مادامت صائبة، أما الشهادة فيجوز لك أن ترفضها"

الحياة، ١٧٨٤

صموئيل جونسون

تعنى مغالطة "الحجة الشخصية" argumentum ad hominem أن يعمدَ المغالطُ إلى الطعن فى "شخص" القائل بدلاً من تفنيد "قوله"، أو قتل "الرسول" بدلاً من تفنيد "الرسالة". إن ما يحدد قيمة صدق عبارة، وما يحدد صوابَ حجة، هو فى عامة الأحوال أمرٌ لا علاقة له بقائل العبارة أو الحجة من حيث شخصيته ودوافعه وسيكولوجيته. فعبارة "٢+٢=٤" هى عبارة صحيحة سواء كان قائلها عدواً أو مغرضًا أو معتوهًا أو كافراً. وإن ما يحدد قيمة الصدق فى عبارة "السماء تمطر" هو، ببساطة، الطقس المحلى؛ وهو شىء قائم "هناك" ومستقل تمامًا عن شخص القائل.

وأنتَ تقع فى هذه المغالطة حين تقوم فى معرِض الجدلِ بمهاجمة شخص الخصم بدلًامن مهاجمة حجته، فيبدو، بالتداعى association، كأن حجته قد دُمِغَت، مثله،

وأصيبت. والحق أنك قد تسدد سهامَ النقد إلى شخصِ خصمك (بواعثه ودوافعه، صدقه وإخلاصه، أهوائه وإغراضه، ذكائه وفهمه..) فتُدْميه وتُصْميه – وحجتُه بعدُ حيةٌ تُرزَق! فهى من حيث هى حجة تبقى سالمة لم يمسسها سوء، وإن حامت حولها الشكوكُ لحظةً واكتنفتها الرِيَب(*). انظر إلى المثال التالى:

" أنتم تعرفون جميعًا أن النائب س كذاب غشاش وغير موثوق بذمته المالية ومستفيد أول بخفض الضرائب؛ فكيف توافقون على مشروعه الضريبى المطروح؟ "

قد يكون النائب س كذابًا حقًا ومُغْرِضًا ولديه مصلحة مكتسبة فى المشروع الضريبى المطروح للمناقشة؛ غير أن هذا لا يمس المشروع من حيث هو مشروع. وما هكذا ينبغى أن تناقَش المشروعات. إنما يَجْمُل أن نتجه إلى المشروع مباشرة ونبين ما له وما عليه، لا أن ننصرف إلى شخص القائل بالطعن والتجريح، ونحوِّل مناقشةَ المشروع من تحليلٍ اقتصادى إلى تحليلٍ سيكولوجى، ونحول منصةَ المجلس من منبرٍ للرأى إلى مَسلخٍ للبشر.

هناك أربعة أنواع من مغالطة الحجة الشخصية:

(١) القَدْح الشخصى (السب) **ad hominem- abusive**

(٢) التعريض بـ "الظروف الشخصية" **ad hominem- circumstantial**

(٣) مغالطة "أنتَ أيضاً" (تفعل هذا) **tu quoque**

(٤) تسميم البئر **poisoning the well**

(*) من الطريف أن هذه المغالطة تنطبق أيضًا فى الحالة العكسية ، وإن يكن ذلك أقل ورودًا : أى حين تريد أن تؤازر حجة الشخص وتدعمها عن طريق مدحه وإطرائه .

القَدح الشخصى (السب)

ad hominem- abusive

أقلِّى اللومَ عاذلَ والعِتابا وقولِى إنْ أصَبْتُ لقد أصابا

جرير

فى هذا الصنف من المغالطة يقوم القدحُ الشخصى بتشتيت الانتباه عن الحجة الأصلية إلى شخص قائلها وعيوبه ومثالبه؛ فيبدو، من خلال التداعى السيكولوجى، كأن حجته أيضاً هى مَعيبةٌ مثله!

أمثلة :

(١) "إن سياسات لنكولن كلها حمقاء مفسِدة؛ فهو سكير وقرد وبليد ومأفون ومضلِّل" (صحافة الجنوب فى ستينيات القرن التاسع عشر)

(٢) "لا أثق فى فلسفة فرنسيس بيكون؛ لقد كان رجلاً غير أمين، وقد جُرِّدَ من منصب قاضى القضاة لتقاضيه رشاوى"

(٣) "لماذا أبالى بآراء هؤلاء الصحَفيين؟ إنهم حفنة من المرتزقة"

(٤) "كان ألبرت أينشتين موظفًا حقيراً يوم كتب نظرياته؛ إذن الطاقةُ لا تساوى الكتلة مضروبةً فى مربع سرعة الضوء"

(٥) "والآن نأتى إلى اقتراح السيد سليم النقيب بضم الشركتين معاً. لم أكن أود أن أنكأ جروحًاقديمة ولكنى مضطر إلى أن أُطْلِعَكم على محاضرَ تفيد بأنه كان متورطًا منذ عشر سنوات فى قضية تحرش وفى قضية سكر".

فى الأمثلة السابقة نجد الصورة المنطقية التالية:

س يقدم الدعوى ق

س يتصف بالعيب ك

إذن الدعوى ق باطلة

إن القدح الشخصى ليس مغالطة بحد ذاته، إنما تأتى المغالطة حين نجعل العيب الشخصى أساسًا لرفض دعوى غير ذات صلة بهذا العيب. فالحجج إنما ينبغى أن تقوم على أرجلها الخاصة أو تسقط بعيبها الخاص.

متى يكون القدحُ الشخصى غير مغالِط:

على أن هناك مَواطنَ وسياقاتٍ يكون فيها شخصُ القائل ذا صلة بالدعوى المطروحة: فى الحملات الانتخابية مثلاً وفى مقابلات التوظيف وفى الشهادة القضائية تكون السمات الخلقية، وربما الجسدية، هى المسألة المَعْنِيَّة على وجه التحديد. فنحن لا نتصور مصرفًاعلى استعداد لتعيين موظف غير أمين، ولا ناخبين يسرهم التصويت لمرشح غير ذكى أو سياسى غير مخلص. وفى سياق استجواب الشهود فى المحاكمات القضائية، وفى كل سياق يتضمن "شهادة" testimony لا "حجة" argument فى واقع الأمر، يكون الطعن فى شخص الشاهد، من حيث السمات الأخلاقية والسلوكية والكفاية العقلية والإدراكية واتساق عباراته، غير خارج عن موضوع الشهادة وبالتالى غير مغالط من الوجهة المنطقية.

ربما يستند ذلك إلى "استدلال استقرائى" inductive inference مُفادُه أن الشخص الذى سبق له أن أدلى بمعلومات غير صحيحة أو اعتاد سلوكًا غير قويم فى الماضى هو شخص قمين بأن يفعل مثل ذلك فى المستقبل. صحيح أن الاستدلال الاستقرائى هو استدلال ظنى فى أفضل الأحوال، غير أنه كفيل فى مواضع كثيرة أن يجرح الشهادة أو الجدارة وأن ينقل عبء البَيِّنَة.

فى ضوء هذه الحالات التى يكون فيها القدحُ الشخصى غيرَ مغالط يليق بنا أن نعدل الصورةَ المنطقية للمغالطة الشخصية، لتغدو أكثرَ تحوطًا ودقة، إلى الصورة التالية:

س يقدم الدعوى ق

س يتصف بالعيب ك

ك غير ذى صلة بالدعوى ق

إذن الدعوى ق باطلة

التعريض بالظروف الشخصية

(الحجة الشخصية الظرفية)

ad hominem- circumstantial

في هذه المغالطة "يكتفي" المغالِط بأن يشير إلى أن ظروفَ خصمِه الخاصة هي التي ألجأته إلى تبني الرأي الذي يتبناه وأن له مصلحة مكتسبة في أن يمرُّر هذا الرأي ويسود. ونحن لا نريد أن نُهَوِّن من سطوة الظروف والمصالح بشتى أنواعها على سيكولوجية الفرد وطريقة تفكيره، غير أننا إذا شئنا أن نتناول حجة الخصم تناولاً منطقياً فإن ظروفه الخاصة لا يعود لها ثقلٌ منطقي ولا تعود لها صلة بالحجة بما هي حجة argument qua argument .

أمثلة :

(١) "أنت تقول بأن خطط المحافظين الضريبية كفيلة بتقليص ميزانية الخدمات الصحية ؛ ولكنك ليبرالي وتود لو تتخلص من الخدمة الصحية برمتها"

(٢) بالطبع نحن لا نتوقع منك إلا أن تؤيد قرار رفع ميزانية التسليح، فقد عرفنا أنك تعمل في مؤسسة كبرى لتجارة الأسلحة.

(٣) نفهم أنك لا بد أن تبغض نظرية التطور evolutionism؛ فأنت كاهنٌ تعظ بنظرية الخلق creationism ليلاً ونهاراً، وتكسب قوتك من تلاوة سفر التكوين Genesis .

(٤) إن لك عذراًفي أن ترى هذا الرأي الخاطئ؛ فأنت من عتاة الديمقراطيين (الجمهوريين، الشيوعيين، الإسلاميين، ... إلخ)

(٥) أنتَ بورجوازيٌّ مُرتَهنٌ لوضعك الطبقى، ومعصوبُ العين عن رؤية أى شىء يتجاوز مصالحك الطبقية؛ ومن ثم فإن كتاباتك لا قيمة لها مهما بلغت مزاياها الشكلية والأسلوبية.

إننا نولى انتباهاًشديداًلصراع المصالح فى سياقات كثيرة: وبخاصة السياق القضائى والصحفى والسياسى والتجاري. ولدينا فى ذلك كل الحق. فنحن نطالب قضاتنا، على سبيل المثال، بإعفاء أنفسهم من القضايا التى يمكن لمصالحهم الشخصية أن تؤثر فيها على قرارهم النزيه، ونحن نجزع كثيراًإذا اكتشفنا أن قادتنا السياسيين إنما تسهم فى تمويل حملاتهم الانتخابية شركات لديها مصلحة فى منحاهم السياسى الخاص ومنهجهم فى إقرار المشروعات. لقد عَلَّمَتنا التجارب أن القرارات تتأثر بالمصالح المكتسبة لصانعها، وإن لدينا ما يدفعنا إلى الاحتياط والتوقى بإزاء صراعات المصالح.

وإنما تفعل مغالطةُ الظروف الشخصية فعلَها لأنها تحاكى حذرنا المشروع من صراع المصالح أو تلعب على وتره. غير أن الحججَ شىءٌ والقراراتِ شىءٌ آخر: فقد يؤدى صراع المصالح بشخص ما إلى التفكير الخطأ وبالتالى إلى القرار الخطأ، غير أن صراعه الخاص ينبغى ألا يؤثر على تقييمنا لحجته. وعلينا أن نقرر أنقبل حجته أم لا نقبلها. فالقرارُ الآن هو قرارُنا نحن لا قراره. وعليه فمن الحصافة الآن أن نتوقى صراع مصالحنا نحن، أما صراع مصالحه فهو تشتيت خارج عن الموضوع.

أنـت أيضًا (تفعل ذلك)

tu quoque

يأيها الرجلُ المعلِّمُ غيرَهُ   هلاَّ لنفسكَ كان ذا التعليمُ
لا تنهَ عن خُلُقٍ وتأتى مثلَه   عارٌ عليكَ إذا فعلتَ عظيمُ

" ؟؟ "

يُحَرِّمُ فيكم الصهباءَ صبحًا   ويشربها على عمدٍ مساءَ
إذا فعلَ الفتى ما عنه يَنهى   فمن جهتين لا جهةٍ أساءَ

المعرى

تعنى عبارة "tu quoque" : أنت أيضًا، أى أنتَ أيضًاتفعل ذلك. هنا يقلب المغالِط الطاولة على خصمه؛ باعتباره لا يفعل ما يعِظُ به، أو لا يجتنب ما يَنهَى عنه؛ ويظن المغالِط أنه قد تم له بذلك تفنيد الخصم ورد سهمه إلى نحره؛ وكأن الخطأ يُشَرِّعُ الخطأ أو كأن "خطأين يصنعان صوابًا two wrongs make a right .

أمثلة :

(١) - أقلِعْ عن التدخين يا بنى فهو ضار بالصحة متلِف للمال.

– لستُ أقبل حجتك يا أبى فقد اعتدتَ أنتَ نفسُك التدخينَ حين كنتَ فى مثل سنى.

(٢) "كيف أستمع إلى نصيحة هذا الطبيب بخفض وزنى إذا كان هو نفسُه بدينًا كالدب؟!"

تعمد هذه المغالطة إلى صرف الانتباه عن حجة الخصم إلى سلوكه، أو إلى أفكاره الأخرى، الراهن منها أو الماضى. فالحق أن تورط الخصم فى ذات الخطأ لن يُحَوِّل الخطأ إلى صواب، وأن الدفع بتورط الغير فى الفعل نفسه إنما هو تشتيت لا صلة له بصدق التهمة الأصلية؛ على أنه تكتيك يضلل الخصم عن صُلب الموضوع ويؤثر تأثيراًبالغًافى مسار الجدل، إذ إنه يضع الخصم فى موضع دفاع وكثيراًما يستنفد جهده فى الدفاع عن نفسه! إن المغالِط هنا لم يتناولْ التهمة المطروحة ولم يجب عن السؤال الموجه، بل حَوَّل التهمة ببساطة إلى الخصم أو السؤال إلى السائل! لقد خرج عن الموضوع وغالَطَ لأن اتهامه للخصم حتى لو صَحّ فهو لا يمس التهمة الأولى ولا يتصل بالسؤال الأصلى، وأقصى ما يمكنه تحقيقه هو أن يثبت أن الخصم منافق لا أن حجته باطلة.

ولعل أفضل تَصَرُّف تأتيه إذا واجهك خصمُك بهذه المغالطة هو أن تبتسم معترفاً، ثم ترده فى الحال إلى حجتك الأصلية التى لم يرد عليها بعد. بذلك تحبطه عن تشتيتك وإخراجك عن الموضوع. وبوسعك، إن شئت، أن ترجئ انتصافك لنفسك إلى مقام آخر.

دفع الظلم بالظلم

"ادفع بالتى هى أحسنُ السيئةَ"

" أجدرُ بِمَن ذاق مرارةَ الظلمِ أن يُعفى منه ضحايا جُدُدًا "

يبدو أن العدالةَ تقتضى أن يكون الطرفُ المتضرِّرُ هو نفسه برىء الساحة. يتجلى ذلك فيما نأخذ به عادةً من مبادئ تحملنا على كَفِّ الملام عن الطرف المتهَم إذا كان المجنى عليه يرتكب الفعلَ ذاتَه:

"من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر"

"اللى بيته من إزاز.."

وكثيراً ما يُستغَل هذا الميل الفطرى لدى البشر لخَلق تعاطُفٍ مع المتهَم وصَرْف الانتباه عن جريمته النكراء بتبيان أن المتضرِّر نفسه يرتكبها. ذلك منطقُ الاستحلال والاستباحة؛ وهو منطق مغلوط لأن قصارى ما يمكن أن يبرهن عليه هو أن الطرفين كليهما على خطأ.

لا شك أن العدالة تقتضى المعاملة بالمثل؛ غير أن هذا المبدأ نفسه لا يجعل من الخطأ صواباً ؛ وإلا اختلطت الأمور واغتُفِرَت الجرائمُ وبُرِّئَ المجرمون، بل كوفِئوا، بالنظر إلى أن الآخرين قد ارتكبوا فى حقهم نفس الظلم.

تتغذى العداواتُ والضغائن، بين الأفراد وبين الشعوب، على هذه المغالطة العتيدة. وعليها تقوم جريمة الثأر وتجد تبريراً وجيهًا؛ فمظالم الماضى تظل حيةً صارخةً تُفسد على الناس حاضرَهم وتهدِّد مستقبلَهم. إنما الدولة هى من يتولى تصويب أخطاء الأفراد، والمجتمع الدولى هو من ينبغى عليه أن يتولى تقويم زيغ الشعوب، حتى لا نقنَع بدفع الظلم بالظلم وتصويب الخطأ بالخطأ.

خطآن يصنعان صواباً Two wrongs make a right

تُعَد مغالطة "أنتَ أيضًا " فرعًا من مغالطةٍ أعَمَّ هى "الإشارة إلى خطأ آخر" pointing to another wrong أو "خطآن يصنعان صواباً"؛ حيث يُستبدَلُ بضمير

المخاطب second person ضميرُ الغائب third person . فى هذه المغالطة الأعَم يتذرَّع المغالطُ بأن هناك من يصنع الشيءَ نفسَه، أو يُنَوِّه بأن الخطأ الذى يرتكبه إنما هو حقيقةَ قائمة فى طرف آخر من أطراف الأرض وأمرٌ واقع فى بقعةٍ أخرى من بقاع العالم.

- ليشتدَّ التعذيبُ فى سجوننا ؛ فإن التعذيبَ لَشديدٌ فى سجونٍ أخرى من العالم.

- لماذا كلُّ هذا الجَزَع من الفساد فى بلادنا؛ إن الفساد لَينخرُ فى أرقى بلاد العالم .

- لقد وقع ظلمٌ من قبل على البولنديين فى وارسو؛ ينبغى إذن أن يقع ظلمٌ مماثل على الألمان فى برسلو.

وقد تتمادى المغالطة فى الشطط والغلو حتى تأخذ المُفترَضَ المقدَّرَ مأخذَ الواقع الحاصل! وتتخذ صيغة "هو أيضًا كان جديرًا أن يفعل ذلك لو استطاع"، أو "هم أيضًا كانوا سيفعلون نفس فَعلتنا لو وُضِعوا موضِعَنا" .. إلخ:

- لنسرق هؤلاء اللصوص فإنهم لو تمكنوا منا لجَرَّدونا من ثيابنا .

- لنخرب ديارهم ونُيَتِّم أطفالهم، فوالله إنهم لو حُكِّموا فينا لما فعلوا أقل من ذلك.

يجَسِّد المتنبى هذا المنطق تجسيداً بديعًا يستبد بالذاكرة ويجرى مجرى الأمثال:

ومَن عَرَفَ الأيامَ معرفتى بها   وبالناس رَوَّى رُمحَه غيرَ راحمِ

فليس بمرحومٍ إذا ظَفِروا به   ولا فى الرَّدَى الجارى عليهم بآثِمِ

يريد أن من عرف الناسَ حقَّ المعرفة - كمعرفته هو بهم -قتلهم غيرَ راحمٍ لهم، لأنهم إذا ظفروا بغريمهم لم يرحموه، فإذا قتلهم، إذن، فلا إثم عليه؛ على أنه إذا لم يبادر بقتلهم فإنهم ميتون حتف أنفهم على كل حال!!!

* * *

كان فرنسيس بيكون، الفيلسوف الإنجليزى الكبير، يتولى منصب قاضى القضاة فى عهد جيمس الأول. وفى عام ١٩٢٠ تم عزله وإدانته بتقاضى رشاوى (فى صورة هدايا) من كلا الطرفين المتنازعين فى القضايا التى تولاها. وقد تَعَلَّلَ جميعُ كتَّاب سيرته الذاتية بأن تقاضى هدايا من كلا الطرفين المتنازعين كان عُرفًا شائعًا على نطاقٍ واسع فى ذلك العصر. ومن الدالّ حقًّا فى هذا الصدد أن بيكون نفسَه لم يستند إلى هذه الحجة حين تحدث فى المحاكمة بالأصالة عن نفسه؛ بل قال ببساطة: "لا أُبَرِّئُ نفسي؛ إننى لأعترف بصراحةٍ ووضوحٍ بأننى مذنبٌ بالفساد، وإننى لأرفض كلَّ الدفوع؛ وإنما أناشد سيادتكم فحسب أن تأخذكم الرأفةُ ببوصةٍ منكسرة".

تسميم البئر

poisoning the well

"تلك المحاولة الدنيئة من جانبه لكي يشق الأرض من تحت قدمى ـ يسمِّم مقدمًا عقولَ الناس ضدى، أنا جون هنرى نيومان، ويغرس فى مخيلة قرائى الشك والارتياب فى كل شىء عسانى قائله فى الرد عليه. ذلك أسميه تسميم الآبار"

الكاردينال جون هنرى نيومان

أن تسممَ بئراً هو أن تبادرَ بضربةٍ وقائية ضد خصمك، وتَصِمَه بأنه لا يُولِى الحقيقةَ أيَّ اعتبار فيتضمن ذلك أنه مهما يقلْ فيما بعد فلن يثقَ به أحد. قد يكون التسميم، شأنه فى ذلك شأن الحجة الشخصية الاعتيادية، إما بالسب (abusive) وإما بالتعريض بالظروف الشخصية (circumstantial).

أمثلة

(١) لا تصدق ما "سيقول"؛ إنه وغد. (تسميم بالسب)

(٢) ليس سوى مأفون من يعارض إضافة الفلورين إلى الماء. (تسميم بالسب)

(٣) إن خصمى طبيب أسنان وبالطبع سوف يعارض إضافة الفلورين إلى الماء؛ فذلك سوف يُفْقِدُه كثيراً من الزبائن. (تسميم بالتعريض بالظروف الشخصية) .

(٤) لَكَم كنتُ أود لو أن بإمكان الرجال أن يتفهموا هذه المسألة (الإجهاض)، غير أنهم بحكم موقعهم الذكوري لا يملكون رؤية هذا الأمر من منظور المرأة. وكم كنت أتمنى لو أن هناك عدداً أكبر من النساء في هذا المجلس لكي يتحدثن في هذا الشأن من زاوية نسوية؛ فالرجال لا ناقة لهم فيه ولا جمل، ولا ينبغي أن يصدروا فيه حكمًا. وإن أصدروا فليحفظوه لأنفسهم. (تسميم بالتعريض بالظروف الشخصية).

(٥) هذا رجل فاشي معروف؛ وأي رأي يبدر منه "سيكون" محل ارتياب ويصب في مصلحة العدو في نهاية المطاف. (تسميم بالسب).

الفرق، كما ترى، بين تسميم البئر وبقية ضروب الحجة الشخصية، هو أن التسميم يتم مقدَّمًا، أي قبل أن يأخذ الخصم فرصةً لعرض قضيته. وقد يكون له تأثير عظيم على مسار الجدل وقد يحبِط المعارضة ويعيقها بدرجة كبيرة. وعلى كل من يدخل نقاشًا كهذا أن يخطو بجسارةٍ فوق الإهانة وأن يَلِج إلى صميم الموضوع. والحق أن تسميم البئر ليس مغالطة بالمعنى الدقيق، لأنه ليس حجة. إنه أشبه، بالأحرى، بشَرَك غفلةٍ منصوبٍ لكي يغرى الجمهور الغافل بارتكاب مغالطة الحجة الشخصية ad hominem . وعلينا في هذا المقام، كما في غيره، أن نتذكر أن الحجة ينبغي أن تقف على أرجلها الخاصة أو تسقط بعيبها الخاص، بغض النظر عن شخص قائلها أو عيوبه.

الفصل السابع
الاحتكام إلى سُلْطة

ad verecundiam appeal to authority

إيَّاكَ واحذَرْ أن تكو نَ من الثِّقاتِ على ثِقَةْ

ابن فارس

كذبَ الظنُّ لا إمامَ سوى العقـ ـلِ مُشِيراً في صبحهِ والمساءِ

المعرى

يعنى "مذهب السلطة" (فى الأخلاق وغيرها) authoritarianism أن المصدر النهائى للمعرفة هو سلطةٌ من نوعٍ ما، سلطةٌ قَيِّمة على أمرٍ بعينه. قد تكون هذه السلطة نظامًا كالكنيسة، أو نصًا كالكتاب المقدس، أو قانونًا أخلاقيًا أو مدنيًا، أو شخصًا، أو سلطة أهل العلم والاختصاص كل فى مجاله. فى العصور الوسطى المتأخرة، على سبيل المثال، صارت فلسفةُ أرسطو عقيدةً راسخة لا تناقَش، وكانت أقواله تُستحضَر لحسم الجدال لا لإثرائه. وقد بلغ شخص أرسطو من الجلال والهيبة بحيث صار يعرف بـ "Ille Philosophus" (الفيلسوف، بألف لام التعريف). وصار الاستشهاد بقوله يعرف بـ "ipse dixit" (هو، نفسه، قال ..).

يقع المرء فى مغالطة "الاحتكام إلى سلْطة" ad verecundiam عندما يعتقد بصدق قضية أو فكرة لا سند لها إلا سلطة قائلها. قد تكون الفكرة صائبة بطبيعة الحال، وإنما تكمن المغالطةُ فى اعتبارِ السلطة بديلاً عن البَيِّنة، أو اتخاذها بينةً من دون البينة!

لا بأس على الإطلاق فى الاحتكام إلى سلطة،وإننا لنحتكم بالفعل إلى سلطة الخبراء فى كل مجال كلما أعوزتنا الخبرةُ أو المعرفة الكافية فى ذلك المجال. فالمعرفةُ تَخَصُّصٌ، والخبراء هم الأشخاص الذين نذروا عمرهم فى دراسة مجالٍ بعينه والتمرس به حتى حصَّلوا فيه معرفةً تجعلهم أبصرَ بأصوله وفروعه وأقربَ صلةً بالحقيقة فى شؤونه وشجونه. ومن ثم فإن لنا كل الحق فى أن نستفتيهم ونسألهم الرأى والمشورة فى مجالهم لأن لدينا ما يدعونا إلى الاعتقاد بأن رأيَهم فى ذلك أقومُ من رأينا وخبرتَهم أصدقُ من خبرتنا. فإذا أَلَمَّ بالمرء مرضٌ لا خبرة له به فإنه يلجأ إلى الطبيب المختص ويأخذ بمشورته ويتبع إرشاداته. وإذا استعصى عليه خلل بجهاز الحاسوب فإنه يلجأ إلى خبيرٍ بالحواسيب ليصلح له الخلل. وهكذا الحياة وبخاصة في العصر الحديث: تخصصاتٌ وأفرعٌ موكلٌ بها خبراءُ متخصصون نثق برأيهم ونأتمر بأمرهم ونحتكم إلى سلطتهم. ليس فى الأمر هنا حَجْبٌ للدليل أو استهانة بالبينة، بل تَوَجُّهٌ إليهما والتماسٌ لهما! فما جعَلَ الخبيرَ خبيراًفى نظرنا إلا ثقتُنا بأن عنده الدليلَ ولديه البَيِّنة.

على أن الأمور على صعيد الواقع لا تسير دائمًاهذا السيرَ الهَيِّنَ ولا تسلك دائمًاهذا الجَدَدَ الآمِن. يبدأ التعثر والوقوع فى الاحتكام المغالِط إلى السلطة فى الأحوال التالية:

- إذا كان الاحتكام إلى السلطة غير ضرورى:

ذلك أن كثيراً من الأمور تخضع للملاحظة المباشرة أو الحساب المحض؛ هنالك يلتقى المرءُ التقاءً مباشرًا بالبينة ويكون الالتجاء إلى السلطة لطلب البينة هو عبث لا معنى له وكسل يستوجب اللوم. إنه أشبه بالتيمم وقد حضر الوضوء! ذلك أن الملاحظة المباشرة أعلى يقينًامن السلطة وتَجُبُّ أيَّ سلطة. هكذا كانت ثورة "النهضة" ضد سلطة أرسطو وسلطة الكتاب المقدس، تلك الثورة التى أعقبت تطوراًعلمياًحقيقياًلم تشهد البشرية مثله فى العصور السوالف. لقد كان رأى أرسطو فى العصور الوسطى

يؤخذ مأخذ التسليم حتى فى الأمور الإمبيريقية التى تمكن معرفتُها بسهولة بواسطة الملاحظة، وكأن ذهن أرسطو أصدق رؤيةً من نواظر الخَلق!

كذلك كان يُستَشهَد بالكتاب المقدس كسلطةٍ لا مُعَقِّبَ لها، حتى فى المسائل التجريبية والرياضية. ومن الطريف أن قيمة الـ pi (النسبة بين طول محيط الدائرة وقطرها، ط) كانوا يَدَّعون أنها ثلاثة استناداً إلى فقرات معينة بالعهد القديم! غير أن قيمة ط هى مسألة رياضية يحددها الحساب (وهى اثنان وعشرون على سبعة) والالتجاء فيها إلى السلطة هو أمر غير ذى صلة.

وكيف تنسى البشريةُ زمنَها الذى ضاع ودماءَها التى أُريقت من جراء الخضوع لسلطة الكنيسة طيلة العصور الوسطى، حين ارتهن الناسُ لديها حواسَّهم وملكاتِهم الإدراكيةَ التى أُودِعوها لتكون أوثقَ الأدلة وأصدقَ الرسل؛ وأَخذوا على الاعتقاد بأن الشمس تدور حول الأرض فهكذا يقول الكتاب المقدس ولو كان كتابُ الكون يقول غير ذلك. وأَخذوا على الاعتقاد بأن تاريخ البشر على الأرض لا يعدو السبعة آلاف سنة ولو دَلَّ علمُ الحفريات على أنهم أقدم من ذلك بما لا يُقاس.

– إذا كانت الدعوى غير داخلة فى مجال خبرة الشخص الذى يُحتكَم إليه كسلطة:

حين يطرح الشخص دعوى معينة فى مسألة تخرج عن نطاق خبرته فإنه لا يعود خبيراً فى هذا السياق الجديد، ولا يعود بإمكانه أن يدعم رأيه بالدرجة المطلوبة من الخبرة، ولا يعود هناك فرق بين رأيه فى هذا الأمر ورأى سواه من عامة الناس.

ومن الأهمية بمكان أن نتذكر فى هذا الصدد أن تضخم المعارف فى العصر الحديث قد جعل التخصص الدقيق فرضاً مُحَتَّماً على كل من يريد أن ينجز فى العلم إنجازاً حقيقياً وتستوى لديه خبرةٌ كافية فى مجالٍ ما؛ الأمر الذى يجعل الخبراء الحقيقيين فى أغلب الأحيان على غير دراية كبيرة بما يقع خارج تخصصاتهم. ليس هذا فحسب، بل إنه كثيراً ما يحدث أن يكون تعليم المرء وخبرته فى ميدان معين عائقاً

فعليًا في وجه قدرته على إصدار أحكامٍ خبيرة في ميدان معين آخر. يُطلَق على هذا الصنف من العجز الناجم عن التمرس الكبير بمجال معين "العجز المُكتسب" learned incapacity، فالتعليم العلمي مثلًا قد يحول بين المرء وبين إصدار أحكام في الميدانين الفني والأدبي.

ومن الأمور الشائعة في عصرنا – ذلك الاستغلال للسلطة، المسمى بالإعلان عن طريق الشهادة testimonial advertising، حيث يقوم نجوم الشاشة والرياضة ومعبودو الجماهير في مختلف الميادين بالإعراب عن إعجابهم بأنواع من السجائر والصابون وغير ذلك من السلع. ففي كل الأحوال تقريبًا لا تكون لهذه الأحكام أية قيمة مشروعة، لأن العلاقة بين من يصدر الحكم وبين السلعة هي ذاتها العلاقة بين المستهلك العادي وبين هذه السلعة ذاتها. فعندما تعلن ممثلة السينما الآنسة س أنها تدخن سيجارة من نوع ص وحده، فإنها لا تعبر دون شك إلا عن تفضيل شخصي، قد لا يكون أعمق في نقده أو تحليله من رأي المدخن العادي. والنتيجة الضمنية التي يود المعلن أن يحملها إلى أذهان الجمهور هي أن ذوقها في السجائر على مستوى يتناسب مع شهرتها من حيث هي شخصية من شخصيات الشاشة. أما مسألة كون المعلن ينجح في ذلك أم لا، فينبغي أن تُترك للمسئولين عن ميزانيات هذا النوع من الإعلان، فلا بد أن يكون أصحاب الإعلانات مقتنعين بأن الإهابة بسلطة النفوذ هي وسيلة مريحة(*).

– إذا كان هناك خلاف بين الخبراء في المسألة المَعْنِيَّة:

في هذه الحالة تكون كل من الدعوى ونقيضها مدعمًا برأي بعض الخبراء الثقات، بحيث لا يعود ممكنًا حسم المسألة بمجرد الالتجاء إلى رأي الخبراء.

(*) هنترميد: "الفلسفة – أنواعها ومشكلاتها، ترجمة د. فؤاد زكريا، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٥، ص ١٨٢

ثمة مجالات علمية كثيرة تَعِجُّ بالخلافات الداخلية بين أهلها حتى فى المسائل المحورية والأسس الكبرى للتخصص. من هذه المجالات علم الاقتصاد؛ فقد يذهب بعض خبرائه الثقات إلى أن "العجز" هو العامل المفتاحى فى مجال الاقتصاد بينما يذهب آخرون، ليسوا أقل خبرة، إلى العكس من ذلك تماماً. ومن المجالات المشهَّرة بالخلافات بين خبرائها علم النفس والطب النفسى، حيث نجد مدارس مصطرعة بينها شقاق حاد فى تصور السواء والمرض وفى منهج التشخيص والعلاج.

يتبين من ذلك أن الخبير الذى يُحتكَم إليه فى شأن من الشؤون التخصصية قد لا يكون ممثلاً لرأى جميع الخبراء فى ذلك المجال. والحق أنه فى قطاعات كبيرة من البحث البشرى يكون بوسع المرء أن يجد خبيراًيدعم له أيَّ رأى يراه أو موقف يريده. يذكِّرنا ذلك بالقول المأثور: "افعلْ أى شىء تقررُه وستجد نصًايبررُه!"

ذلك أن الخبراء هم فى النهاية بشر، يصيبون ويخطئون، حتى فى مجال تخصصهم. ولعل هذا هو ما يبرر أخذ "رأى ثانٍ" (وربما ثالث) فى الحالات الطبية حين يكون تشخيصها غامضًاغير محسوم. يَفهَم أغلبُ الناس المغزى فى أخذ رأى ثانٍ حين يتعلق الأمر بحياتهم وصحتهم، غير أنهم كثيرًاما يتشبثون برأى واحد لا يمثل آراء الخبراء جميعًاحين يكون هذا الرأى موافقًالهواهم ومدعِّمًالتحيزاتهم.

- إذا كان الخبير متحيزًا أو تكتنفه شبهة التحيز:

قلنا إن الخبراء بشر، والبشر غير معصومين من التحيز والهوى كيفما كانوا. وليس ثمة شخص يمكنه أن يدعى الموضوعية المطلقة. ومهما يبلغْ أحدنا من النزاهة والحياد يبقَ لديه شىء من الهوى والميل تجاه آرائه الخاصة. وربما كان علينا أن نقبل درجةً ما من التحيز لدى كل شخص مادامت ضئيلة الأثر. أما فى الحالات التى يكون الخبير فيها فى موقع يميل به ميلاً شديداً فى اتجاه رأى بعينه فإن لنا كل الحق فى أن ننصرف عن الاحتكام إلى رأيه بوصفه "مجرَّحاً" على أعلى تقدير. من ذلك على سبيل

المثال نتائج أبحاث خبراء طبيين عن أضرار التدخين على غير المدخنين حين تمولها شركات التدخين الكبرى ذاتها!

قد يأخذ التحيز والميل ألواناًأخرى عديدة. من ذلك أن الخبير قد يتأثر بموضعه الشخصى ومأزقه الخاصة. فالمحامى الذى يدافع عن نفسه، والطبيب الذى يحاول تشخيص مرضه الخاص (أو مرض أحد أبنائه)، هو عُرضة للميل والحيود، وقمين بالخطأ الناجم عن التفكير الآمل wishful thinking أو الخوف.

- إذا كان مجال خبرة ذلك الخبير هو علم زائف أو مبحث معرفى غير مشروع:

الخبرة بالوهم ليست خبرة على الإطلاق. ولا قيمة من ثم لأى خبرة مهما كبرت، ومهما ازدانت بالشهادات والرُخَص، إذا كان مجالها نفسُه علمًا زائفًا أو مبحثًا معرفيًا كاذبًا. من ذلك على سبيل المثال لا الحصر: التنجيم والفأل، الفراسة وتحديد الشخصية من شكل الجمجمة، العلاج بطرد الأرواح الشريرة.

- إذا كانت الخبرة، أو الفتوى، غير معاصرة:

لأن المعرفة تتقدم بسرعةٍ هائلة، والتقدم فى المعرفة يكاد يكون مرادفاًللمراجعة والتصحيح؛ الأمر الذى يجعل كثيراًمن الآراء العلمية عرضةً للنسخ والتعديل خلال سنواتٍ قليلة وربما أشهر.

- إذا كان الخبير المزعوم مجهولاً أو غير محدد:

حين تكون السلطة غير محددة فإنه يكون من المحال التحقق مما إذا كانت تلك سلطة على الإطلاق. وكثيراً ما يلجأ الناس إلى تدعيم مواقفهم بادعاء أنها مصدَّقة من

جانب خبراء ثقات أو مؤسسات أو منظمات، دون تحديد شيء من ذلك بالاسم، ودون ذكر البينة التى تستند إليها هذه المنظمات أو أولئك الخبراء. وكثيراً ما يُشار إلى هذه السلطة المجهولة بلفظ عام من قبيل: "العلماء"، "الأطباء"، "القادة"، "المختصون"، أو حتى بمجرد "شخص ما"، "هم يقولون"، "قرأت فى صحيفة"، "قرأت فى بحث"، "شاهدت فى التلفاز".. إلخ.

والحق أننا كثيراً ما نشير باللفظ العام إلى فئة الخبراء، ويكون ذلك معقولاً تماماً وبخاصة إذا كان هناك إجماع بين أهل المجال على الرأى الذى نطرحه. والأجدى على كل حال أن نشفع ذلك بذكر البينة التى تستند إليها هذه السلطة غير المسماة. غير أن الأمور ليست دائماًبهذه البراءة؛ فكثيراًما يدل هذا الأسلوب على التميع والغموض وعدم الإلمام بالمسألة، وإلا فإن ذكر الخبير بالاسم ليس بالأمر العسير. وكثيراًما يتبين أن الدعوى المطروحة هى مجرد إشاعة، والإشاعات كما نعلم هى دعاوى مجهولة المصدر فى الأغلب الأعم، وكثيراً ما تُنسَج عمداً لتشويه صورة الخصم.

أمثلة :

(١) الشمس تدور حول الأرض لأن الكتاب المقدس يقول ذلك بوضوحٍ لا لبس فيه.

(٢) يؤكد العالِم الكبير وليم جينكينز الحائز على نوبل فى الفيزياء أن فيروس الإنفلونزا سوف يتم القضاء عليه بجميع أنواعه بحلول عام ألفين وخمسين، ومثل هذا العالِم الفذ لا يُستهان برأيه. (خبير فى غير مجاله)

(٣) ليس للتدخين كبيرُ ضررٍ على غير المدخنين، هكذا أثبتت دراسة فريق الأطباء الباحثين الذين يعملون لدى شركة مارلبورو. (خبرة متحيزة)

(٤) لقد حددتُ رقم حظى وتعرفت على شريك حياتى الملائم: لقد استشرت فى ذلك الأستاذ جبور جبور الفلكى الشهير فى عيادته. (مبحث معرفى زائف) .

(٥) يقول المتخصصون إن سنسوداين هو أفضل معجون يضمن سلامة الأسنان. (خبرة غير محددة)

(٦) لا شك أن برسيل هو مسحوق الغسيل الأفضل لجميع الألوان، هكذا أثبتت الأبحاث العلمية.

(٧) لا أستعمل غير عطر أوبيام، لأنه أفضل العطور جميعاً، هكذا يقول عمر الشريف فى الإعلان.

* * *

ومهما يكن من شأن السلطة وهيبتها وجدواها فهى فى نهاية المطاف ليست معرفة من المنبع first hand بل معرفة بالوساطة second hand، وهى فى نهاية المطاف معيار غير أساسى وغير مباشر، بل مشتقٌ من غيره ومتكئٌ على سواه. ويعلمنا التاريخُ قديمُه وحديثه أن السلطات تخطئ وتجهل وتتضارب وتصطرع، وتتخذ هى ذاتها معايير للحق متباينة مختلفة. ولذا فإن المعرفة المستمدة من السلطة لا تعدو أن تكون "ظناً" أو "دوكسا"، ولا ترقى إلى أن تكون معرفة بالمعنى الدقيق للكلمة. ويجمل بنا بعد كل شىء أن نتجنب الاحتكام إلى السلطة ما استطعنا إلى ذلك من سبيل. وإن لزِم الاحتكام فلنشفعه بعرض البينة التى تستند إليها هذه السلطة بقدر ما يسعفنا الإلمامُ والفهم.

الفصل الثامن

مناشدة الشفقة (استدرار العطف)

ad misericordiam ; appeal to pity

إذا قيلَ حلِمًا قال للحلمِ مَوْضِعٌ

وحِلْمُ الفَتى فى غير مَوضِعِهِ جَهْلُ

المتنبى

فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر أثبتَ الادعاء، فى محكمة فرجينيا بالدليل الدامغ ضلوعَ صبى بقتل والديه بفأس . فما كان من الدفاع سوى أن دَفَعَ ببراءة الصبى قائلاً: "أليس يكفى أنه أصبح يتيمًا لا أحد يتولّى أمرَه؟!"

ووَضْعُ النَّدَى فى مَوضعِ السيفِ بالعُلا

مُضِرٌّ كوَضعِ السيف فى موضعِ النَّدَى

المتنبي

العطف شعورٌ نبيل يتحلى به كل ذى أصلٍ كريم، والشفقة عاطفة نبيلة يتسم بها كل ذى معدنٍ طيب. لا بأس قطٌّ باستدرار العطف والشفقة إذا استدعى السياقُ

وخلصَت النوايا. إنما يكمن الخطأ في أن تسند إلى العطف وظيفة البَيِّنَة، وأن تأخذَ الشفقةَ مأخذَ الحجة.

أمثلة :

(١) ".. فَلْتَأْخُذْكم الشفقةُ بهذه المتهمة يا حضرات القضاة، فإنها إذا أُودعَت السجنَ فسوف تتحطم حياتُها وحياةُ من تقوم برعايتهم. أليس الأَوْلَى أن ننقذ حياةً لا أن نحطم حياة؟" (ليست الشفقةُ هنا في غير موضعها فحسب (لم يذكر الدفاع حال المجنى عليه الآن وحال عياله!!)، بل إنها خارجة عن الموضوع وغير ذات صلة بعملية الدفع).

(٢) ".. لا بد أن الحل الذى توصلتُ إليه لهذه المسألة الرياضية هو حل صحيح: لقد توصلتُ إليه بعد عناء خمس ساعات من اعتصار الفكر والتركيز المتصل." (إن الفكرة الخطأ هى فكرة خطأ سواء كانت نتاجًا لخمس دقائق من التفكير أم لخمسة عقود! وإن الزمن الذى أُنفِقَ أو الجهد الذى بُذِلَ فى فكرةٍ ما لا يُنبِئنا بشىء عن صوابها أو خطئها. إنه، ببساطة، خارج عن الموضوع)

(٣) ".. ينبغى تيسير الامتحانات على جميع الطلبة؛ لأنكم تعرفون مدى البؤس الذى يَرِين على الطالب المتوسط أو الضعيف حين يحصل على درجات متدنية أو حين يرسب." (الحِلْم "مَوضِعٌ" حقاً؛ هو بالنسبة لهذا المثال فى وزارة الشؤون الاجتماعية لا فى وزارة التربية والتعليم أو وزارة التعليم العالي؛ وما أفسد التعليمَ مثلُ هذا "التيسير" الذى يتملق الحشود ويذبح النوابغَ ويَطمِس بَريقَهم ويُسَوِّيهم بالأواسط الأنصاف mediocres، وينتخب ثفالةً من الحَفَظة وعادمى المَلَكة يليق بهم القَعْر، ويضعهم على قمة الهرم الاجتماعى والعلمى، ثم يطلب منهم أن يجروا المجتمع إلى الأمام! وما هكذا تتقدم المجتمعاتُ وتُقْلِع الأمم)

(٤) ".. كيف ترفض رسالتى للدكتوراة؟ لقد عكفتُ على كتابتها سبعَ سنواتٍ متواصلة!؟"

(٥) "كيف تقول إن الكرة خارج الخط؟ إنها داخله؛ ثم إنى مهزومٌ عشرة إلى واحد!"

(٦) "نحن نأمل أيها الزملاء أن تقبلوا خطتّنا التى تقدمنا بها. لقد بذلنا فى إعدادها ثلاثةَ أشهر من العمل الإضافى المضنى".

(٧) "ينبغى أن تمنحنى درجة " "A فى هذا الفصل: إن جَدَّتِى مريضةٌ ولو سمِعَتْ بأنى رسبتُ ربما تموت بنوبةٍ قلبية."

* * *

قد تكون مخاطبة الوجدان أو مناشدة العطف، أو غيره من الانفعالات، مشروعةً منطقياً؛ وذلك حين يكون هذا الانفعال هو نفسه موضوع الحجة، أو يكون سببًاذا صلة بقبول النتيجة: فقد أختار أن أشترى نفس الجريدة بنفس السعر من بائعٍ ضرير، لكى أهَوِّنَ عليه عملَه الشريف. وقد يُقَدِّر الأستاذُ ظروفَ طالبٍ صَدَمَتْه شاحنةٌ فى طريقه إلى الامتحان فيحتفظ له بامتحان إكمال. وفى رواية كنديد يستعرض فولتير أمثلةً للبؤس المستشرِى فى العالم لكى يُفَنِّد مذهبَ لَيْبنِتْز القائل بأن هذا هو أفضل العوالم الممكنة جميعًا.

* * *

ومهما يكن مِن شىءٍ فإن انفعالَ العطفِ ليس من جنس الحجة: للعطفِ أن يدفعنا إلى استباقِ الخيرات واجتراحِ المكارم. ولكن هيهات له أن ينهضَ دليلًا على رأى أو أساسًا لاعتقاد.

الفصل التاسع

الاحتكام إلى عامة الناس

ad populum ; appeal to people

appeal to gallery ; appeal to the mob

"إن موافقةَ الكثرة ليست دليلاً على الحقائق العسيرة الكشف، وإنه لأقرب إلى الاحتمال أن يجدها رجلٌ واحدٌ من أن تجدها أمةٌ بأسرها."

ديكارت

"إن واقعة أن رأيًا ما قد انتشر على نطاقٍ واسع ليست دليلاً البتة على أن هذا الرأى ليس باطلاً كل البطلان. والحق أنه بالنظر إلى سخف أغلبية بنى الإنسان ، فإنه لأقرب إلى الاحتمال أن يكون الاعتقاد الواسع الانتشار اعتقادًا سخيفًا من أن يكون اعتقادًا معقولاً!"

برتراند رسل

" لا يزال بالإنسان شيءٌ من أسلافه القردة. ليس هذا فحسب؛ بل إن به خصلةً متبقية من أسلافهِ الخِراف!"

كلايف بِل

"لا رأيَ للناس فى نفعٍ ولا ضررٍ وما لهم قَطُّ من حكْمٍ وتقديرِ"

العقاد

تتضـمن هـذه المغالطةُ الاحـتكامَ إلى الناس بدلاً من الاحتكام إلى العـقل (أو على حساب العقل)، ومحاولة انتزاع التصديق على فكرة معينة بإثارة مشاعر الحشود وعواطفهم بدلاً من تقديم حجة منطقية صائبة. تكاد هذه الطريقة أن تكون أداةً من أدوات عمل رجال الدعاية والإعلان، والديماجوجيين من الساسة ورجال الأحزاب والدعاية الانتخابية. فإذا كان "الجميع يعتقد ذلك" أو "الكل يفعل ذلك" أو "استطلاعات الرأى تشير إلى ذلك" فلا بد من أن يكون "ذلك" صحيحًا!

غير أن التاريخ يُعَلِّمنا أن أفكار الكثرة واعتقاداتهم كثيراً ما تَبَيَّنَ خطؤها الذريع وبطلانها التام. وقد تكرر ذلك وتواتر بما يكفى لدعم قاعدةٍ تفيد أن قبول الحشود من البشر لقضيةٍ معينةٍ على أنها حق لا يقدم ضمانًا عقليًا بأنها كذلك. وقد كان يَسَعُ المرءَ أن يمضى إلى نهاية الشوط فيقول إن التاريخ ربما يعلمنا، على العكس، أن اعتقاد الجموع بشيءٍ ما يرَجِّح بطلانَ هذا الشىء، لولا أن هذه الطريقةَ ما هى إلا الوجهُ الآخر لذات المغالطة.

ذلك أن "الاعتقاد" غير "البَيِّنة"، وأن اتساع نطاق الاعتقاد بقضية ما هو أمرٌ غيرُ ذى صلة بصدق القضية ذاتها أو كذبها. إنما يتحدد ذلك بالوسائل العقلانية الخاصة التى تستخدم الأدلة والمعلومات الصحيحة التى يمكن أن تُستمَد منها النتائج بطريقة منطقية. يعود رواجُ هذه المغالطة وانتشارُها إلى ميل الكائنات البشرية إلى أن تسلك مَسلكَ الخراف؛ فتنضوى معًا حول المريح والمألوف والسائد، ويروقها الانقيادُ والائتلافُ ومجاراةُ القطيع فى وجهته.

فى عمق الروح الإنسانية التى أُلقِيَ بها فى حَمْأَةِ الوجود على غيرِ اختيارٍ منها تقبع حاجةٌ إلى الاتصال بآخرين من صِنوِها. حاجةٌ تبلغ من الإلحاح والشدة مَبلَغًا يَضطر الناس إلى أن تُسلِّمَ ضميرها وبصيرتها لطغيان ثقافتها الجاهزة وتقاليدها الموروثة. حتى لو كانت تلك ثقافةً جاهلةً وتقاليدَ حمقاء. وقليلٌ هم الأفرادُ الذين يمكنُهم أن يأتمروا بأوامر عقولهم الخاصة ويهتدوا بِهَدى بصائرهم الشخصية حتى عندما تكون تلك مغايرةً للشائع ومخالِفة للمألوف.

في مسرحية شكسبير "يوليوس قيصر" يَعمِد مارك أنطونيو، في خطبة الجنازة المشهورة، إلى استثارة انفعالات الجمهور. ولا يفوته أيضًا أن يُهيبَ بمصالحهم الشخصية. لقد كانت القضيةُ التي استَدعِيَ الملأُ لمواجهتها هي (١) هل كان قيصر مذنبًا بالتآمر للإطاحة بالجمهورية وتنصيب نفسه ملكاً؟ (٢) هل ينبغي اتخاذ أي إجراء ضد قاتليه؟ لا تَعرِضُ خطبة أنطونيو لهذه القضية؛ وبدلاًمن ذلك يعمِد أنطونيو إلى تذكير الرومانيين بأنهم كانوا يحبون قيصر ذات يوم:

كلكم أحببتموه ذات مرة؛ لا لغير سبب

فأي شيء يمنعُكم إذن أن تندبوه؟

ويؤكد لهم أنه، أنطونيو، ليس داهيةً وليس مفوهًا (وأنه من ثم جديرٌ بالتصديق)

فما أنا بالخطيب مثل بروتس

لكني كما تعرفونني جميعًا رجلٌ غِرٌّ صريح

أحب صديقي، وهم إذ يعرفون ذلك حق المعرفة

أذنوا لي على الملأ بالتحدث عنه

غير أنه يبرع في إثارة عواطفهم ضد بروتس وشركائه ببلاغة اللغة وبلاغة الدم:

لاحظوا كيف تبعها دم قيصر

كأنما اندفع يطل من الباب ليتأكد

أهو بروتس الذي طرق هذه الطرقةَ المنكرة، أم سواه؟

فلقد كان بروتس كما تعلمون ملاكَ قيصر

اشهدوا أيها الآلهة بأى إعزازٍ أحَبَّه قيصر!

هذه كانت أقسى الطعنات جميعاً

فإن قيصر النبيل لما رآه يَطعَن

كان الجُحودُ، وهو أفتك من أسلحة الخونة،

هو الذى أجْهَزَ عليه! فعندما انصدع فؤادُه الكبير.......

سقط قيصر العظيم

وأية سقطة كانت يا بنى وطنى؟

حينئذ سقَطتُ أنا، وسقَطْتم أنتم، وسقطنا جميعًا

بينما تشامَخَت الخيانةُ السفاكة علينا...

ذلك أنى لا أملك من البديهة، ولا من الألفاظ، ولا من القيمة أو العمل،

ولا من الذلاقة، ولا من قوة الخطاب، ما أهيج به دماء الناس

وإنما أنا أتكلم على رِسلى، فأخبركم بما تعرفونه أنفسكم

وأريكم جراحَ قيصر الحنون، تلك الأفواه الخرساء المسكينة

وأسالها أن تتكلم نيابةً عنى، غير أنى لو كنت بروتس وكان بروتس أنطونيو

لكان ثمة أنطونيو يضرم فى نفوسكم ناراً، ويصنع لسانًا

فى كل جرح من جراح قيصر، خليقًا بأن يحرك

حجارةَ روما لكى تهب وتثور.

ويختتم أنطونيو خطبتَه بتذكير الجمهور بمصالحهم الشخصية، فيتم له استهواءُ العامة واختلابهم وتحريكهم حيث شاء:

هاهي ذي وصية قيصر

إنه يَهَبُ كلَّ مواطن رومانى،

كل رجل بمفرده، خمسة وسبعين دراخما...

عدا هذا، ترك لكم كل جنائنه،

وعرائشه الخاصة، وبساتينه الحديثة الغرس،

على هذا الجانب من "التيبر". ترك ذلك لكم،

ولذراريكم إلى الأبد، رياضاً مشاعة،

تتنزهون فيه وتروّحون عن أنفسكم

ذلك كان قيصر، فمتى يجود الزمان بمثله؟

ومتى هاجت عواطف الدهماء وسال لعابها فقد انفلتت الفتنة من عقالها، وتنحى العقل أو ديس تحت سنابك المغالطات:

أيتها الفتنةُ، إنك لَعلَى ساق

فاسلكي أيَّ سبيلٍ تشائين .....

إن القدَرَ منشرحُ الصدر،

وهو فى هذه الحال لا يضِنُّ علينا بشىء.

* * *

هناك ثلاثة أشكال أساسية لمغالطة "الاحتكام إلى الناس":

(١) عربة الفرقة (الموسيقية) bandwagon

هذا الطريق المعبَّد ينحدر ليصل إلى تلك الأنوار المتلألئة فى الجهة المقابلة
العجول محمولة بالشاحنات ثلاثةً ثلاثة
رؤوسها تَنُوس بثقلٍ وراحةِ بال
العجول محمولة بالشاحنات
سوداء، بلقاء، صفراء
لا أحد يستطيع أن يفهمها:
إنها ذاهبة إلى المذبح
رؤوسها تنوس بثقل وراحة بال

ناظم حكمت

"إلى المذبح"

"ألا تُعتبر نفسكَ مفنَّدًا منذ البداية يا سقراط حين تَطرح آراءً
لا يمكن أن يقبلها أحد؟ عجبًا .. اسأل أىَّ شخصٍ من الحضور!"

أفلاطون

"إمحاورة جورجياس"

"فى أى مجتمعٍ كبير – من الآمَنِ لك أن تكون مخطِئًا مع الأغلبية

من أن تكون صائبًا وحدك"

جون كينيث جلبرايت

" الغوغاءُ أقربُ إلى أن يقعوا ضحيةَ كذبةٍ كبيرة منهم إلى كذبةٍ صغيرة"

أدولف هتلر

كفاحي

تتجه مغالطة "عربة الفرقة" bandwagon إلى ميلنا الغرزى لأن ننضوى مع الحشد. ومفادها أنه مادام عامة الناس تعتقد شيئًا ما أو تختار مسلكًا معينًا من الفعل، فلا بد أن يكون هذا الاعتقاد صحيحًا وأن يكون هذا المسلك أحقَّ أن يُتَّبَع.

وتأتى التسمية من "عربة الفرقة الموسيقية": فقد كان المرشَّحون فيما مضى يستقلون، فى حملاتهم الانتخابية، عربة كبيرة تتسع لفرقة موسيقية، ويجوبون المدينة؛ وكان الناس يُعَبِّرون عن تأييدهم للمرشَّح باعتلاء العربة أو الصعود إلى ظهرها. ومنها تأتى عبارة "هلم إلى عربة الموسيقى"، "اقفز إلى العربة"، أى شارك الحشدَ وانضم إلى "الزفة"، التى صارت تعنى الانضواء فى أمرٍ ما بحكم شعبيته. ويمكن تجريد صورتها كالتالى:

الفكرة ق رائجة

إذن الفكرة ق صحيحة

وفى مجال علم النفس يتحدث السيكولوجيون عن "أثر عربة الفرقة" (ظاهرة عربة الفرقة) bandwagon effect؛ وهى ظاهرة اجتماعية يشعر فيها الأشخاص بضغط الانصياع لموقف معين، أو رأى، عندما يدركونه على أنه موقف، أو رأى، الأغلبية فى جماعتهم أو مجتمعهم.

وفى مجال الدعاية هناك ما يُعرَف بـ "تكنيك عربة الفرقة" bandwagon technique؛ ويتضمن الادعاء بأن أغلبية من الناس يتخذون موقفًا أو اعتقادًا ما، وذلك لكى يتسنَّى إقناعُ آخرين بتبنى ذلك الموقف أو الاعتقاد.

أمثلة :

(١) الناس كلها، أو معظمها، تفضل الماركة "س"

إذن علىَّ أنا أيضًا أن أشترى الماركة "س".

(٢) "ثمانية مليون فرنسى لا يمكن أن يكونوا على خطأ"

(٣) فى يوم من الأيام كان أغلب البشر فى بقاعٍ كثيرة من الأرض يعتقدون برسوخ أن الأرض مسطحة، أو أن الأرض هى مركز الكون، أو أن الشمس تدور حول الأرض؛ وقد تبين أن كل ذلك باطل.

(٤) فى يومٍ من الأيام كان أغلب البشر (بما فيهم أرسطو وغيره من خيرة العقول) يعتقدون أن القلب هو عضو الشعور والتفكير؛ وهو اعتقاد غير صحيح.

(٥) كان أغلب البشر فيما مضى يعتقدون أن الصرع هو روح شريرة تتلبَّس المريض؛ وقد تبين بالدليل العلمى الدقيق أن الصرع هو اضطراب فى النشاط الكهربى لخلايا المخ.

(٦) كان البشر يومًا يعتقدون أن الإنسان لا يمكنه مواصلةُ الحياة وهو على سرعةٍ أكبرَ من خمسة وعشرين ميلاً فى الساعة!

(٧) استطلاعات الرأى تشير إلى فوزٍ ساحق للحزب الوطني؛ ومن ثم ينبغى أن تصوِّتَ للحزب الوطنى.

(٨) كان أينشتين مناصراً لمذهب اللاعنف، فأراد جماعة من العلماء أن يفندوا رأيه فى ذلك ويضادوا تأثيره ويسجلوا مناوأتهم لمذهب اللاعنف؛ فنشروا مجموعة مقالات فى كتاب أسموه "مائة عالمٍ ضد أينشتين". حين سمع أينشتين بهذا العنوان قال: "لو كنتُ على خطأ فقد كان يكفى عالمٌ واحد!".

(٩) فى القرن التاسع عشر كانت أغلبية الناس فى بعض الولايات الأمريكية تعتبر العبودية أمراً مقبولاً؛ إلا أن هذا الرأى لا يجعلها كذلك.

* * *

(٢) التنفَّج (التأَسِّى بالنخبة) snob appeal

فى هذه المغالطة يتم الاقتداء بالصفوة المختارة بدلاً من عامة الناس، وصورتها:

جميع، أو أغلب، المتازين من الناس يعتقدون، أو يفعلون ق

إذن ق صحيحة

أمثلة :

(١) سَراةُ الناس يفضلون الماركة س

إذن علىَّ أنا أيضًا أن أستعمل س.

(٢) صفوة المثقفين يعتنقون الماركسية هذه الأيام

إذن الماركسية هى الفلسفة الصحيحة وعلىَّ أن أعتنِقَها.

* * *

(٣) التلويح بالعلم؛ التذَرُّع بالوطنية

flag waving; appeal to patriotism

"الوطنية هى آخر ملاجئ الأوغاد"

صموئيل جونسون

فى هـذه المغالطة يلجأ المتحدث إلى المشاعر القومية أو الوطنية ليدعم بها حجته أو موقفه، أو ليقوِّض موقفًا آخر باعتباره منافيًا للوطنية أو القومية. ويندرج فى هذه المغالطة التلويح بأى رمز أو التلفع بأية راية: سياسية أو مذهبية أو دينية، حين يكون ذلك افتعالاً وتكلفًا غيرَ ذى صلة بالحجة المَعْنِيَّة؛ تصديقًا لقول موليير "ما أبعدَ البَوْنَ بين الوجه والقناع".

* * *

الاحتكام الصائب إلى الأغلبية

ليست الحقيقةُ ديمقراطيةً بالضرورة؛ فقد يصيبُ شخصٌ واحد فى التفكير مثلما يصيب مائة شخص، وقد يخطئ مائةٌ مثلما يخطئ واحد. وما ينبغى لموقفٍ ما أن يكون حقًا لمجرد أنه موقف أغلب الناس، ولا لموقف أن يكون باطلاً لمجرد أنه موقف القلة. تلك حقيقة مايزال يُلِحُّ عليها درسُ المنطق ودرس التاريخ. إنما تستند الحجة على دعائمها المنطقية الخاصة وليس على عدد مؤيديها. وكم اعتقَد الناسُ اعتقاداتٍ بلغت مرتبةَ اليقين وجرت مجرى البديهيات، ثم تبين بعد ذلك أن تلك الاعتقادات الكبرى كانت أخطاءً كبرى!

غير أن علينا أن نتجنب الغلو فى الاستهانة برأى الأغلبية، وبخاصة إذا كان العدد هنا يحمل مغزى المراجعة ويضطلع بوظيفة التدقيق والتنقيح والتحقيق: وإلا فما

معنى مراجعة الحسابات (وهو عمل محاسبين متعاقبين)، ومراجعة النظراء peer review في مجال البحث العلمي، وشرط تعدد الشهود في الجرائم، واتفاق القضاة والمحلَّفين في الأحكام، وتكرار التجارب replication في العلم؟! العقلانية إذن تعني التذرع بالمبررات العقلية التي تَثْبُت للنقد العام، أي التمحيص. قد يكون الفرد شاذًا في مبررات اعتقاده، ولا يصبح عقلانيًا بحق إلا حين يدرك أن عليه ألا يكتفي بإقناع نفسه بل أن يُقْنِعَ كلٌّ من يتفحص أدلته وبراهينه. الحقيقة ليست ديمقراطية.. نعم ولكن التبرير العقلي يجب أن يكون منفتحًا على النقد العام وأن يتم في وضح النهار.

ثمة أيضًا حالات يكون فيها التذرع بالجموع مبرَّرًا وغير خارج عن الموضوع؛ وذلك عندما يكون اعتقادُ الأغلبية، أو اعتقاد النخبة المنتقاة، هو المحدِّد للحقيقة في المسألة المَعْنِيَّة:

- تعريفات الألفاظ مثلاًهي مسألة اصطلاحية تتوقف على ما اتفق عليه عموم الأشخاص في جماعة لغوية معينة.
- الاستخدام القياسي للرموز في جماعة بعينها هو أمرٌ يتوقف على اتفاق الناس ككتلة وحشد.
- صيحات الأزياء وغيرها من الموضات في شتى المجالات هي، بحكم التعريف، ميل الأغلبية من الناس، أو ميل سَراة الناس وصفوتهم، في مجال معين في زمن معين.
- التوجه السياسي في البلاد الديمقراطية يحدده الشعبُ بوصفه شعبًا، ومن ثم فلا مفر في هذا المجال من الاحتكام إلى الاقتراع العام والاحتكام إلى اختيار الأغلبية. "تستند هذه الأشكال السياسية الديمقراطية إلى فكرة أنه ليس هناك فردٌ بَلَغَ من الحكمة أن يعرف للآخرين مصالحهم ووسائل سعادتهم وخيرهم أكثر منهم وأن يفرضها عليهم بغير رضاهم. كل فرد يتأثر في فعله ومتعته

بحالته المترتبة على النظام السياسى الذى يعيش فى ظله. ومن ثم فإن له حقًا فى تحديد هذا النظام"(*).

- إجماع أهل الخبرة والرأى فى مجال تخصصهم ينبغى ألا يوصف بأنه مغالطة: فإذا أجمع الأطباء مثلاً على أن التدخين ضار بالصحة، أو على أن الغذاء ذا النسبة العالية من الدهون غير صحى، فإن المناداة بالإقلاع عن التدخين أو بتغيير هذه العادات الغذائية هو أمرٌ مبرَّرٌ منطقيًا ولا مغالطة فيه على الإطلاق.

أين تكمن المغالطة ؟

إن مجرد الإهابة بانفعالات الجموع ليس فى ذاته مغالطة منطقية؛ وليس عاملاًمحدِّداً فى تقييم صواب الحجة. الحماسُ ليس مغالطة. وليس ما يمنع أن تثير حماسَ الجمهور بحجةٍ صائبة.

المغالطة يتعين أن تكون شيئًا أكثر من مجرد شذوذ سلوكى أو قصور فى الإقناع، أو تَدَنٍّ فى الأسلوب أو الخُلُق.. يتعين أن تكون "حجةً خاطئة". أين المغالطة هنا إذن؟ وأين الحجةُ بَلْهَ الحجةَ الخاطئة؟!

يقدم دوجلاس والتون تحليلاً لمغالطة "الاحتكام إلى عامة الناس" فيَخْلُص إلى أنها مركب من أربعة عناصر:

١ - العنصر الأول: هو استدلال ظنى غير مشروع ينتقل من مجموعة اعتقادات خاصة بجماعة بعينها من المخاطَبين إلى نتيجة تفيد حقيقةً غير شخصية.

(*) جون ديوى، "دفاع عن الديمقراطية"، فى "الفلسفة وقضايا العصر" _الجزء الثانى، ترجمة د. أحمد حمدى محمود، الألف كتاب الثانى ٣٩ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ ، ص ٢٤

٢ - العنصر الثانى: هو تَنَكُّب الحجة أصلاً؛ أى تَجَنُّب العملية الاستدلالية منذ البداية: ليس ثمة مقدمات ونتائج؛ بل قفزة غير مبرَّرة منطقيًا إلى قضية مقبولة أصلاًلدى المخاطَبين، وتدعيم هذه القضية بالعاطفة لا بالعقل. والعاطفة هنا غير ذات صلة بالنتيجة المستخلَصة.

٣ - العنصر الثالث: هو غياب الصلة، وتغيير موضوع الحديث من قضيةٍ معينة نريد إثباتها إلى انفعالٍ معين يريد المتحدث أن يبثه أو يثيره. إنه ضرب من "جهل، أو تجاهل، موضوع الحديث" ignoratio elenchi .

٤ - العنصر الرابع: هو إثارة العواطف. أى مخاطبة انفعالات الجموع بقصد إثارتها وتأجيجها. وقد سبق أن قلنا لا حجة هنا وبالتالى لا خطأ! وإنما يمثل هذا العنصرُ العاملَ السيكولوجى للمغالطة، أو "طريقة عملها" modus operandi .

لا مغالطة فى إثارة العواطف ولا خطأ.. غير أنها قد تقدم السحابةَ التى تُغَيِّبُ تحتها الصلةُ وتفلت من الضبط أو الاستهجان، أو التى تُعَتِّم على الانتقال الظنى غير المبرَّر من الشخصى إلى اللاشخصى. وقد تكون هذه السحابةُ الانفعالية من الكثافة بحيث تسمح بتَنَكُّب أى حجة، أى بحيث تكون "بديلاً للحجة".

الفصل العاشر

الاحتكام إلى القوة

(ومنطق العَصا ، اللجوء إلى التهديد)

ad baculum ; appeal to force

جلوا صارمًا وتلوا باطلاً وقالوا صدَقنا ؟ فقلنا نعم

المعرى

"ليست هذه هى الطريقة التى ينبغى على الكائن العاقل أن يعتنق بها الحقيقة. ليس هذا عرفانًا بالحقيقة. وما الحقيقةُ التى يُعتقَد بها على هذا النحوِ سوى خرافةٍ كبيرةٍ التصقَتْ بالمصادفة بالألفاظ التى تشير إلى حقيقة".

جون ستيوارت مِل

"عن الحرية"

" إلى أوكسفورد أرسل الملكُ فرقةً من الفرسان

لأن التوريين لا يعرفون الحجةَ بل القوة

وإلى كمبردج أرسل نفس القدر كتبًا

لأن الهوجيين لا يُسلِّمون بالقوة بل بالحجة"

وليم براون

"حين يقول ستالين "ارقُصْ" فإن الرجلَ الحكيمَ يرقص"

خروتشوف

ليست الحرية شيئًا "يُضافُ" إلى الفكر، فيكون لدينا فكرٌ حرٌّ بعد أن كان لدينا فكرٌ غيرُ حر. فالفكر الحقيقى لا يكون إلا حراً. الفكر حُرٌّ بحُكم ماهيته وحكم تعريفه. الحرية ليست "محمولاً" predicate للفكر بل "كيفية وجود" أو "أسلوب كينونة". الحرية ليست شيئًا "يَعرِض" للفكر بل هى شيءٌ "يَكُونُه"! بدون حرية أنتَ لا تفكر.. بل تُرَدِّدُ وتُكَرِّر.. وتَصْفِر كجنادبِ الليل.. وتبيع إحدى جوارحك كالبَغِيِّ لتشترى السلامةَ. والفكر غير الحر ليس فكرًا، وإنما هو كـ "النقطة الممتدة" و "المربع المستدير".. تناقضٌ ذاتى.

تعنى كلمة "baculum" باللاتينية: العصا. ومن ثم تعنى هذه المغالطة اللجوء إلى التهديد والوعيد من أجل إثبات دعوى لا تتصل منطقيًا بانفعال الخشية والرعب الذى تهيب به. تقبع فى صميم هذه المغالطة فكرة "القوة تصنع الحق" might makes right، وهى مغالطة لأن التهديد يعمل على مستوى دافعي مغاير لمستوى القناعة الفكرية. بوسعك أن تفرض السلوكَ القويمَ بالقوة، ولكن ليس بوسع أحد قَط أن يفرض الرأى العقلى بالقوة. وإن ألفَ سيفٍ مُصلَتٍ على رقبتك لن تنهض لك دليلاً على اثنين واثنين تساوى خمسة مثلاً! قد تشترى رقبتَكَ بالطبع وتُسَلِّمُ للمأفونين بأنها كذلك؛ ولكن الانصياع لا يعنى الاقتناع.

هكذا فَعَلَ جاليليو حين أذعنَ للتفتيش وآثَرَ السلامة. وبقيت الأرضُ تدورُ فى ملَّته واعتقاده حيث لا تفتيشَ ثَمَّ ولا محاكم. وهذا ما لم يفعله جيوردانو برونو G. Bruno (1548-1600) من قبله. فقد ذهبَ برونو إلى أن هناك أنظمةً شمسية عديدة تسبح فى فضاء لانهائى؛ وهَدَّدَتْه الكنيسةُ بالموت ما لم يغير آراءه. إلا أنه لم يرضخ لمنطق العصا، وآثَرَ الموتَ حرقًا على الخازوقِ عام ١٦٠٠ .

أمثلة :

(١) ينبغى أن توافق على السياسة الجديدة للشركة؛ هذا إذا كنتَ تريد أن تحتفظ بوظيفتك.

(٢) هناك براهينُ وفيرةٌ على صدق الكتاب المقدس، وكل من يرفض التسليم بهذا الصدق سيكون مصيره العذاب.

(٣) أتَعرفُ يا دكتور أدهم أنى بحاجة إلى تقدير "ممتاز" فى هذه المادة؟ يسرنى أن أمُرَّ عليكَ فيما بعدُ لنتحدثَ فى ذلك. إننى سأكون بجوار مكتبك على أى حال أزور والدى، إنه عميدُ كليتِك بالمناسبة. مع السلامة، أراكَ بخير.

يمكن تجريد مغالطة العصا في الصورة التالية:

اقبلْ الحجةَ أ وإلا فإن الحدث س سوف يحدث

الحدث س مؤذٍ أو مدمِّرٌ أو مهدِّدٌ

إذن الحجة أ حجة سديدة

غَنِيٌّ عن البيان هنا أن القياس خاطئ بل عابث؛ وأن انفعال الخوف أو الرعب الذى يثيره ليس من جنس الحجة ولا من عنصر البرهان. ومن ثم فإنه لا يمس القضيةَ التى يريد دَحضَها ولا تتقابل قرونُهما فى نِطاح(*). لا معنى على الإطلاق لأن تفرض رأيًا بالقوة، لأن بين القوة والرأى فجوةً لا تُعبَر، تُذَكِّرنا بـ "فجوة هيوم" بين عالم القيمة وعالم الوقائع من حيث تَبايُنُ العالمين واستحالةُ العبور من أحدهما إلى الآخر.

(*) الحق أن بعض المناطقة قد ذهب إلى أنه مادام ضربُ الخصم بالعصا ليس "حجة" أصلًا، فضلاً عن أن يكون "حجة مغالطة"، فلا ينبغى أن تُدْرَجَ الـ ad baculum بين المغالطات المنطقية. انظر فى ذلك:

John Woods and Douglas Walton: "ad baculum", Grazer Philosophical Studies, 2 (1976), pp. 133-140.

متى تكون العصا صائبه منطقياً ؟

قد يكون التهديد، أو التذكير بالخطر، صائبًا منطقيًا؛ وذلك حين يكون ذا صلة مباشرة بنتيجة الحجة، أو حين يكون الخطرُ هو نفسه موضوع الحجة:

مثال (١) "توقفوا عن التجارب النووية فى هذه المنطقة القريبة من القطب، لأنها ربما تُعقِبُ زلازلَ وفيضاناتٍ وإشعاعات"

فى هذا المثال يناهض أنصارُ البيئة إجراء التجارب النووية، وفيه نجد أن الخطر متصل منطقيًا بالحجة، لأن احتمالَ حدوثِ النتائج الخطرة هنا مترتبٌ سببيًا وليس صادراً عن قرار أو توجيه.

مثال (٢) "ذاكرْ جيداً وإلا انخفضت درجاتُك"

* * *

من المؤسف حقًّا أن شطراً كبيراً من الحوار عندنا لم يَعُدْ محتكِمًا إلى العقل بل إلى العصا. إنه أقرب إلى لعبة "التَحطيب" منه إلى لعبة الجدل. فنحن لا ننظر إلى الاختلاف فى الرأى على أنه ثراءٌ وخِصب، بل على أنه انحرافٌ وخيانة. وما نزال نُلَوِّحُ بالعصا كلما أعوَزَتنا الحجة. ومن المؤسف فى أمر العصا أن التهديدات، الصريحة أو المستترة، الظاهرة أو المقدَّرة، بوسعها أن تخلق وهمًا بأن امرءًا ما قد تم إقناعُه أو إفحامُه؛ وبوسعها أن تُخرِسَ الخصمَ فعلاً وتُثْنِيه عن المضى فى الجدال؛ وتترك انطباعًا زائفًا بأنه قد خسر المناظرة.

بوسع العصا أن تشج الرأس وبوسعها أن تزهق الروح، ولكن هيهات لها أن تقيم برهانًا أو تثبت حجة. وقلما يكون التلويح بالعصا سبباً لاعتقاد أى شىء. فهو فى أمثل

الفصل الحادى عشر
الاحتكام إلى النتائج
ad consequentiam

إن كايوس فانٍ حقًا، وإن حقًا عليه أن يموت. أما أنا...
إيفان إليش، بكل أفكارى وعواطفى، فشىءٌ مختلفٌ تمامًا.
إن من المستبعَد أننى ينبغى أن أموت . إن ذلك لَيكون
شيئًا مرعبًا غاية الرعب"

تولستوى

"موت إيفان إليش"

"الحقيقة ليست ملزَمةً بأن تَتَّبِعَ أهواءنا، وإنما نحن الملزمون
بأن نَتَّبِعَ الحقيقة"

ليس الفكرُ عبداً "يُخَدِّم" على أهوائنا ويدغدغ أمانينا، ويعمل على راحتنا واسترخائنا؛ وإنما هو "وظيفة بشرية" تتعلق بِتَعرُّفِ الحقيقة كما هى وإماطة الوهم كيفما كان. ومن ثم فإن من المغالطة أن نستخدم "النتائج" consequences، السلبية أو الإيجابية، المترتبة على اعتقادٍ ما كدليلٍ على كذب هذا الاعتقاد أو صدقه.

يمكن تجريد الصورة المنطقية لهذه المغالطة كالتالى:

الاعتقاد بأن ق يؤدى إلى نتائج مرغوبة

حيث النتائج المرغوبة غير ذات صلة بصدق ق

إذن ق صادقة

أو كالتالى :

الاعتقاد بأن ق يؤدى إلى نتائج بغيضة

حيث النتائج البغيضة غير ذات صلة بكذب ق

إذن ق كاذبة

إن القضية الصادقة هى قضيةٌ صادقة، بِغَضِّ النظر عن شعورنا تجاه نتائجها. ومن الحصافة أن نُسلِّمَ بأن العالم لم يُفَصَّل حسَبَ طلبِنا، وأن الأشياء لا تأتى على مقاس رغباتنا ومصالحنا، وأن ما نود أن يكون عليه الحال هو أمر غير ذى صلة بما هو عليه الحال بالفعل. ليس ثمة علاقة منطقية تربط ما بين نتائج اعتقادنا فى قضية ما وبين "قيمةِ صدق" هذه القضية (أى نصيبِها من الصدق والكذب).

ربما يستدعى ذلك فى الذهن قول فرويد فى "محاضرات تمهيدية فى التحليل النفسى": "أُوذِىَ الإنسانُ ثلاثَ مراتٍ فى غرورِه واعتزازِه بنفسه وبمكانته فى العالم: كانت المرة الأولى عندما تم التحول الأكبر فى عصر النهضة من مركزية الأرض إلى مركزية الشمس على يد كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣م) الذى افترضَ أن أرضَنا ليست هى مركزَ الكون، وكان من الضرورى أن يَستخلِص الإنسانُ من ذلك أنه ليس تاجَ الخليقة وأن العالم لم يُخلَق من أجله. وكانت المرةُ الثانية عندما قدم تشارلس داروين (١٨٠٩-١٨٨٢م) كتابَه عن أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعى، فأثَّرَت نظريتُه فى التصور الدينى بوجه خاص عن كون الإنسان صورةَ الله وخليفته فى الأرض. أما المرة الثالثة فكان الأذى أشد قسوةً وأعمق جرحًا؛ إذ جاء من

جـانب البحث السيكولوجى الراهن الذى يريد أن يثبت للأنا أنها لا تملك حتى أن تكون سيـدةً فى بيـتـها الخاص، وإنما تظل مـعتمـدةً على أنباءٍ شحيحةٍ عما يجرى بصـورةٍ غيـر واعـية فى حـياتها النفـسية". (مـحاضـرات تمهـيدية فى التـحليل النفـسى – مـحاضرة ١٨)

أمثلة :

(١) لا بد من أن تكون "مركزية الأرض" **geocentrism** نظريةً صحيحة، وإلا لكان الإنسان كائنًا هامشيًا شديد التفاهة وليس صورة الله وخليفته فى الأرض.

(٢) من المؤكد أن "نظرية التطور" نظرية مغلوطة، وإلا لكان الإنسـان قريبًا لبقية الحيوانات، وكان له أن يفعل فعلَها ويسلك مسلكَها.

(٣) اعتقاد الطفل فى وجود بابا نويل يجعله سعيدًا ومستبشرًا ومهذبًا، إذن بابا نويل موجود.

(٤) من المحال أن تنشب حرب نووية فى أى وقت من الأوقات؛ إن ذلك كفيلٌ بأن يجعلنى متوجِّسًا هَلِعًا لا أذوق للنوم طعماً.

رهان بَسكال **Pascal's wager**

تقوم حجة الرهان الشـهيرة للفيلسوف الفرنسى بليز بسكال على الموازنة بين النتائج المترتبة على الإيمان وتلك المترتبة على عدم الإيمان. وقد آثرتُ أن أفرد لرهان بسكال عنوانًا منفصلاً؛ وذلك لأنه محل خلاف بين الفلاسفة منذ زمن طويل. فهو مغالطة أكيدة لدى البعض، وبخاصة من أصحاب المذهب الطبيعى؛ وهو حجة سديدة لدى البعض، مثل وليم جيمس الذى أسهبَ فى تبيانه فى كتابه "إرادة الاعتقاد" **the will to believe** . يقـول بسكال فى "الخـواطر" **Les Pensées** : إمـا أن الله موجود أو غير موجود. ولا يملك العقل وحده أن يحسم هذا الأمر. ومادام الاختيار هنا

لا بد منه فلتنظرْ إليه على أنه "رهان": إذا ما راهنتَ على أن الله موجود وسلكتَ فى حياتك وفقًا لذلك ثم ربحتَ ربحتَ نعيمًا أبديًا، أما إذا خسرتَ فلن تخسر شيئًا يُذْكَرُ".

وقد سبق لأبى العلاء المعرى أن صاغ هذه الحجة عينَها صياغةً بليغةً محكمة فى لزومياته إذ يقول:

قالَ المُنَجِّمُ والطبيبُ كلاهما　　لا تُحْشَرُ الأجسادُ قلتُ إليكما

إنْ صَحَّ قولُكُما فلَسْتُ بخاسرٍ　　أو صَحَّ قولى فالخَسارُ عليكما

يقول وليم كليفورد William K. Clifford فى "أخلاق الاعتقاد" ethics of belief مُفَنِّدًا حجةَ الرهان: "إن الإيمان يفقد قداستَه إذا ما تعلق بعبارات لا دليل عليها ولم توضع موضعَ التساؤل، لمجرد راحة المؤمن ولذته الشخصية. فلو قُبِلَ الإيمان على أساس أدلة غير كافية فإن اللذة تكون لذة مختلَسة، حتى لو كان الإيمان صحيحًا". يرى البعض أن المراهنة على الرب تحمل المرء على أن يختان نفسه وينتهك بذلك واجبًا "كانتيًا" تجاه ذاته. ويصر كليفورد على أن اعتقاد الفرد فى شىء بلا دليلٍ كافٍ هو أمرٌ يؤذى المجتمع كله، لأنه يعزز السذاجة ويعدى مثلما تعدى الأوبئة!" وإنه لمن الخطأ دائمًا وفى كل مكان، ولكل شخص، أن يؤمن بأى شىء على أساس أدلة غير كافية".

متى يكون الاحتكام إلى النتائج صائبًا منطقيًا؟

فطن الفلاسفة منذ أرسطو إلى أهمية الاحتكام إلى النتائج للمفاضلة بين القضايا المختلفة فى حالة تساويها فى كل شىء. يقول أرسطو فى "الطوبيقا": "حين يكون شيئان من التماثل بحيث يصعب تفضيل أحدهما على الآخر فإن علينا أن نحتكم إلى نتائجهما. وذلك الشىء الذى يُفضِى إلى نتائج أفضل هو الجدير بالاختيار. أما إذا كانت نتائج كليهما شرًا فإن علينا أن نختار أقلَّهما شرًا".

غير أن أرسطو، وغيره من الفلاسفة، إنما يحتكمون إلى النتائج في مجال "العقل العملي" لا النظري، أي حين يكون الاختيار هو بين مسارين من الفعل، أو بين نهجين من السلوك. والحق أنه من الوضوح الذي يجري مجرى البدائه ونوافل القول أن الموازنة بين الأفعال إنما يتم بالموازنة بين مُعَقِّباتها ونتائجها المتوقَّعة. أما إذا كان السؤال هو عن الحق أو الصواب فإن الاحتكام إلى النتائج يكون أمرًا خارجًا عن الموضوع. ومن الخطأ دائمًا أن نوجسَ من كل نظرية علمية جديدة تكشف جانبًا من الحقيقة، أو نرفضَها، لا لشيء إلا لأنها تتحدى قناعاتنا الثقافية، أو تجرح كبرياءنا البشرية، أو تمس عواطفنا الاجتماعية.

الفصل الثانى عشر
الألفاظ المُلقَّمة
الألفاظ المشحونة (المفَخَّخة)

loaded words ; prejudiced ; language

question-begging epithets

"بواسطة الدعاية الذكية والمتواصلة يمكنك أن تحمل الناس على أن ترى الفردوسَ جحيمًا؛ والعكس أيضًا : أن ترى أشقى أنماطِ الحياة على أنها النعيمُ المقيم"

أدولف هتلر

"كفاحى"

"أنا" صارم، "أنتَ" عنيد، "هو" خنزيرى الرأس

برتراند رسل

ولأنى كَهلٌ غروبي
فظلالى دائمًا أطول منى
وهى أرَقُّ منى وأدَقّ
وأكثر نفاذًا وبَثًّا
لم أكن أتنقل إلا حاملاً خنجرى تحت العباءة
ترافقنى ظلالى الطويلة
وتلازمنى حاشيةٌ هائلة

توبة اللفظ

لكل لفظٍ من ألفاظ اللغة ضربان من المعنى أو الدلالة: المعنى الحقيقى (المباشر/الإشاري/المعجمى/الأوَّلى) denotation والمعنى الضمنى (الإضافى/الإيحائى/الثانوى) connotation ، أما المعنى الحقيقى فهو المعنى الذى يعبر عن العلاقة الموضوعية بين اللفظ والواقع الذى يشير إليه. فمعنى كلمة "زهرة" هو ذلك الجزء من النبات الذى يضطلع بإنتاج البذور، ويعبر عن طور من أطوار نموه. ومعنى كلمة "وردى" هو لون ذو خصائص فيزيائية محددة. وأما المعنى الضمنى فهو المتضمنات الانفعالية والتقويمية التى يستحضرها المعنى فى الذهن والتى تعبر عن الجانب الشخصى من المعنى، وربما تختلف من شخص لآخر ومن جماعة لأخرى. فكلمة "باص" على سبيل المثال قد تستدعى فى أذهان البعض انطباعاتٍ من قبيل الرخص، الازدحام، الفقر... وقد تستدعى فى أذهان التلامذة معانى الراحة والمرح والزمالة. غير أن المتضمنات تكون مشتركة في أغلب الأحوال، وذلك لتَشارُكِ الناس في كثير من الخبرات وظروف المعيشة. من ذلك أن كلمة "وسط المدينة" تستدعى فى ذهن معظم الناس متضمناتٍ من قبيل: الصخب، الزحام، الإثارة، التراب، اللهو، الذنب ... إلخ.

حين أقول "هذا كَذِبٌ" فإن ما أقوله هو عبارةٌ بسيطةٌ من حيث الصيغة اللغوية. غير أنها بساطةٌ خادعة: فإذا ما قمنا بتحليل لمعنى العبارة "ق كَذِب" وجدنا أنها تَصدُق إذا ما توافرت الشروطُ الأربعة التالية:

١ – ق غير صادقة.

٢ – قائل ق يعرف أنها غير صادقة.

٣ – القائل يقصد أن يقول ق.

٤ – القائل يقصد أن يجعل المستمع يعتقد ق .

رغم أن كلاً من هذه الشروط هو شرط "ضروري" necessary لمعنى كلمة "كَذِب" فإن الشروط الأربعة ليست "كافية" sufficient . ذلك أنها لا تفى إلا بالمعنى الإشارى المباشر denotation لكلمة "كَذِب"، ويظل هناك نطاق عريض لمعانٍ إضافية ضمنية connotation؛ فالمرء لا يمكن أن يكون جاداً فى قوله "هذا كذب" ما لم يَعمِد أيضًا إلى إهانةِ القائل ووصمِه وتقريعِه. ومن ثم فكلمة "كذب" تعنى أيضًا، فيما تعنى، الازدراء، السخط، الإدانة، الشجب، الردع ،... إلخ.

تلك هي الوظيفة "الإيعازية" perlocutionary للغة، التى تحدث عنها جون أوستن J. Austin (١٩١١ - ١٩٦٠) رائد نظرية "أفعال الكلام" speech acts فى هذا المستوى من الأفعال الكلامية يريد القائل من قوله أن يُحْدِثَ تأثيرات فى المتلقى: إقناعًا، خشية، رهبة، ردعًا، إسخاطًا ... إلخ.

وتلك أيضًا هى الوظيفة الانفعالية emotive function للغة، التى تحدث عنها أوجدن وريتشاردز. ومنذ أن أشارا إلى أهمية الوظيفة الانفعالية للغة فى كتابهما "معنى المعنى" تَخَلَّقَ اتجاهٌ إلى شَجبِ المصاحِبات الانفعالية المحتومة للكلمات والجزعِ من كثرة الظلال الإضافية للألفاظ كمصدرٍ للزلل والمغالطة. وما تَقَدَّم العلمُ تقدماً متصلاً إلا لالتماسه لغةً محايدةً دقيقة للتواصل، وتخليه عن المتضمنات العاطفية والخيالية للألفاظ فى لغته ومعادلاته. وقد أدرك المفكرون أهمية أن تحذو المناقشاتُ السياسية والدراسات الإنسانية فى ذلك حذوَ العلم، وتشيِّد نماذجَ لغويةً خاليةً من الضوضاء الانفعالية قدر المستطاع. ومنذ أفلاطون، فى حقيقة الأمر، نهضت تياراتٌ تستنكر ميلَ البشر إلى الاستمالة العاطفية بدلاً من الإقناع العقلى، وتُحَذِّر من إساءة استخدام الوظيفة الانفعالية للغة فى إعاقة التفكير المنطقى والتعتيم على الحقيقة. وفى زمننا المعاصر علَت صيحاتٌ مدوية ضد "الألفاظ الملونة" colored words وضد "طغيان الكلمات" tyranny of words .

حين تكون اللفظةُ محمَّلةً بمتضمناتٍ انفعالية وتقويمية زائدة، بالإضافة إلى معناها المباشر، يقال لها "لفظة مُلَقَّمة" loaded word أو مشحونة. فالكلمة الملقمة مثل

البندقية الملقمة بالذخيرة. والمعنى الانفعالى أو التقويمى هو الرصاصة. حين أستعمل لفظة "بهيمة" بدلاً من "حيوان"، ولفظة "رشوة" بدلاً من "حافز" .. إلخ فأنا عندئذ أستخدم ألفاظًا ملقمة تفعل فعلاً آخر غيرَ مجردِ رصدِ الحالة الموضوعية: إنها تحكُمُ وتقوِّم وتحرِّض وتُوعِز. انظر أيضًا فى هذه القائمة من الكلمات:

صارم	**عنيد**
واثق	**متعجرف**
ودود	**مداهِن**
مجامِل	**متملِّق**
متساهل	**متسيِّب**
سهو	**إهمال**
كائن متعايش	**طفيل**
مجتمعٌ نامٍ	**مجتمع متخلف**
بدائى	**همجى**
بسيط	**ساذج**
يقول	**يدَّعِى**
مدقِّق	**موَسوس**

ليست كل لغة مشحونة هى لغة مغالطة بالضرورة، وإلا لكان كثير من الدراسات، وكل الأدب والشعر، ركامًا من المغالطات! ونحن نريد، فى حقيقة الأمر، أن نكون قادرين فى بعض الأحيان أن نُسَخِّر الطاقات الانفعالية والخيالية للكلمات فى خدمة الحقيقة. نريد أن نقول للقتلة الدمويين: أنتم سفاحون مجرمون، ولا نقول: أنتم حراس النظام الجديد ومبطلو الثورة المضادة! ونريد أن نقول للإرهابى: أنت أنانى مشَوَّش

تتوهم حلاً سحرياً لمأزقك الوجودى وتُؤَمِّن لنفسك مستقبلاً أخروياً على حساب غيرك؛ وأن نقول للمتزمتين: أنتم تغالبون ربكم، وتريدون إزالة اللون من لوحة الدنيا، وأن تجعلوا الحياةَ هامشاً سمجاً على متن الموت.

ما أتعسَنا حقًّا لو تخلينا عن انفعالية اللغة وقصّصنا أجنحةَ الكلمات. وكم تَرِين البلادةُ على أحاديثنا لو أننا توخينا الحيادَ العلمى فى كل شىء. وبدلاً من أن نقول مع الشاعر (الشريف الرضى):

وتلفتت عينى فمذ خَفِيَت عنى الطلولُ تَلَفَّتَ القلبُ

قلنا (وما أَبْلَدَنا إذ نقول): وبقيتُ أدرك الأطلالَ بحاسة البصر، فلما أصبحَت خارج مجالى البصرى بدأت أستدعيها فى الذاكرة.

ومهما يكن من شىء فإن الألفاظ المشحونة كثيراً ما تكون فخاخاً منطقية تدفع المرءَ إلى أن يقفزَ إلى استنتاجاتٍ تقويمية غير مشروعة. وتأتى المغالطة حين يستخدم المجادلُ ألفاظاً مشحونةً بدلاً من الحجة، أو حين يتأثر المتلقى باللغة الملونة التى تغلِّف بها الحجة بدلاً من أن يلتفت إلى مناقب الحجة بحد ذاتها.

أمثلة :

(١) يَدَّعَى السيد نبيل سالم أن التصدير سوف يؤدى إلى ارتفاع الأسعار. (لاحظ أن كلمة "يدعى" تفترض ضمناً أن ما يقوله السيد نبيل كاذب أو باطل)

(٢) بديه أن يجدَ اقتراحُنا رفضاً من البيروقراطية الحكومية. (قارن: بديه أن يجد اقتراحنا رفضاً من مسؤولى الحكومة)

(٣) كل عاقل فى هذا البلد يعرف أن الإجراءات المتخذة لا تصب فى مصلحة المواطن. (لاحظ أن كلمة "عاقل" قد صادرت بصواب العبارة المطروحة)

(٤) مرة ثانية تُضبَط إنجلترا وهى تتملق الديمقراطيات. (قارن: مرة ثانية نرى انجلترا تعمد إلى أن تحتفظ بعلاقات ود مع الأنظمة المتشددة)

(٥) سرقت اسكتلندا هدفًا فى الشوط الأول، ولكن انجلترا فى الشوط الثانى نشطت واستفاقت، وتُوِّجَتْ جهودُها بهدف. (بوسعك بالطبع أن تتعرف على انتماء المعلِّق)

(٦) بوسع الجماهير أن تفرق بين رشاوى مرشحى العمال وعربونات مرشحى المحافظين.

(٧) – ألستَ متأثرًا بالقضية العادلة التى يلهج بها ألوفُ المتظاهرين الواعين بالخارج؟

– هيهات أن أنجرف بثُغاء حشدٍ من الغوغاء!

النعوت المصادِرة على المطلوب

من البَيِّن أن اللغة المشحونة تنطوى دائمًا على "مصادرة على المطلوب" begging the question، لأنها تفترض مسبقًا حكمًا تقويميًا لم تتم البرهنةُ عليه بعد. ولذا كان جريمى بنتام J. Bentham يطلق على هذه المغالطة اسم "النعوت المصادِرة على المطلوب" question-begging epithets . إنها تَدسُّ مواقفَ انفعاليةً فى داخل العبارة التى تحملها. وهذه المواقف ليست جزءًا من الحجة، وإنما جرَى استدعاؤها على نحوٍ غير مشروع لكى تؤتى أثرًا ما كان للحجة أن تؤتيه بمفردها. وبعبارةٍ أخرى تُعَد هذه المواقفُ الانفعالية غيرَ ذاتِ صلة بقيمةِ صدق العبارة، أى بتأسيس صدق العبارة المطروحة أو كذبها.

وصفوة القول أن الحجة السديدة تتطلب أن يبذلَ المرءُ جُهدًا واعيًا لكى يصوغَ حجتَه صياغة محايدة قدر المستطاع، بحيث تقف حجتُه على قدميها ولا تتوكأ على عكازاتٍ انفعالية وتقويمية مقحَمة عليها ومن غير جنسها.

الفصل الثالث عشر

المنحدَر الزلق

(أنف الجَمَل)

slippery slope ; camel's nose

قال البدوى لنفسه:"إذا تركتُ الجملَ يدس أنفَه فى خيمتى فى هذه الليلة الباردة فإنه يوشك بعد ذلك أن يدس رأسَه كله ، ثم لا يلبث أن يدس رقبته ، وسرعان ما أجِدُ الجملَ برُمَّتِه وقد اقتحم علىَّ الخيمة".

هكذا شَيَّدَ البدوىُّ فى خياله سيناريو تنتهى فيه الأحداثُ أسوأَ نهاية؛ وتفضى إلى كارثةٍ تَزَعه أن يتخذَ الخطوة الأولى.

تعنى مغالطة المنحدر الزلق أن فعلاً ما، ضئيلاً أو تافهًا بحد ذاته، سوف يجر وراءه سلسلةً محتومة من العواقب تُؤَدى فى نهاية المطاف إلى نتيجة كارثية. كل حدث فى هذه السلسلة هو نتيجة ضرورية لما قبله وسبب للحدث الذى يليه. الأمر هنا أشبه بخطوات الشيطان إذا خطوتَ منها خطوةً واحدة فسوف تتبعها خطوات تنتهى بك إلى الجحيم ضربةَ لازب؛ أو أشبه بالتفاعل الذرى المتسلسل إذا بدأ فسوف يمضى فى تتابع لا مَرَدَّ له ينتهى بانفجارٍ نووى هائل، أو أشبه بالمنحدر الزلق يكفى أن تطأه وطأةً واحدةً حتى تزِلَّ قدمُك وتهوِى متردياً إلى القاع.

إن الحذرَ وجيهٌ تمامًا إذا انطبقت هذه التشبيهات. غير أنها فى مغالطة المنحدر الزلق لا تنطبق (وإلا لما كانت مغالطة). ويمكننا تجريد الصورة المنطقية لهذه المغالطة كالتالى:

إذا كان أ كان ب

إذا كان ب كان ج

وهكذا حتى ن

(حيث ن نتيجة كارثية، وحيث لا يوجد لزوم منطقى فى موضع أو أكثر من السلسلة المفترضة، ولا يوجد سبب لافتراض أننا لا يمكننا أن نتوقف ببساطة عند نقطة ما فى هذا المنحدر)

أمثلة :

(١) إذا استثنَيتُكَ أنتَ من هذا القرار فسوف يكون علىَّ أن أستثنى الجميع.

(٢) إذا أقرضتُكَ جنيهًا اليوم، فسوف تقترض منى غداً جنيهين، ثم عشرةَ جنيهات؛ ولن يمضى وقتٌ طويل حتى تقترض منى ألوفًا وتأتى على كل ثروتى.

(٣) إذا سمحنا اليوم ببعض الضوابط القانونية على الحديث العام أو الكتابة الصحفية، فسوف نسمح غداً بمزيدٍ من القيود؛ وهكذا حتى يأتى اليوم الذى نجد أنفسنا فيه نعيش فى ظل دولةٍ بوليسية فاشية.

(٤) إذا سمحنا للناس باختيار نوع الجنين، فسوف نسمح لهم غداً باختيار لون عينيه وشعره، وما نزال نترَخَّصُ فى هذا الأمر حتى نسمحَ لهم بإنسال أطفالٍ بمواصفاتٍ حسب الطلب.

(٥) إذا أكلتَ أيس كريم جالاكسى فسوف يزدادُ وزنُك؛ وزيادة وزنك باطِّرادٍ تعنى أنك تصاب بالسمنة. وماتزال السمنة تتفاقم حتى تموت بانسداد الشريان التاجى. إذن أيس كريم جالاكسى يسبب الوفاةَ فلا تقربْه.

(٦) ينبغى أن يبقى اختيار المقررات التى تُدَرَّس بالجامعات أمراً متروكًا للأساتذة؛ لأننا إذا سمحنا لرغبات الطلبة بالتأثير فى هذا الاختيار فسوف يتصورون أنهم يديرون التعليم؛ ومن شأن هذا أن يؤدى إلى انهيار النظام، وسرعان ما نجدنا بإزاء جامعات لا تُعَلِّم شيئًا.

الفصل الرابع عشر

الإحراج الزائف
(القسمة الثنائية الزائفة)

false dilemma ; bifucation

black and white fallacy

" أبيض" أو "أسود"
عكازان يتوكأ عليهما كلُّ ذهنٍ مُقْعَد
عاجزٍ عن التحليق فى الفضاء الحقيقى
الرمادى

يقعُ المرءُ فى هذه المغالطة عندما يبنى حجتَه على افتراضٍ أن هناك خيارين فقط أو نتيجتين ممكنتين لا أكثر، بينما هناك خيارات أو نتائج أخرى. إنه يغلق عالَمَ البدائلِ الممكنة أو الاحتمالات الخاصة بموقفٍ ما، مبقيًا على خيارين اثنين لا ثالث لهما، أحدُهما واضحُ البطلان والثانى هو رأيُه دامَ فضلُه.

أمثلة :

(١) إما أنك معنا وإما أنك ضدنا

(٢) America love it or leave it

(٣) إما أن توافق على خفض الضرائب وإما أن تكون راضيًا عن الخراب العاجل الذى سيحيق بهذا البلد.

(٤) إما أن تشن معنا هذه الحرب من أجل الحفاظ على منهجنا فى الحياة وإما أن تكون خائنًا جبانًا.

(٥) إما أن توافق على خفض الدعم الحكومي وإما أن تكون سعيداً بفشلنا فى علاج عجز الميزانية.

(٦) إما أن تستعمل صابون دوف وإما أن تُعَرِّض جلدك لضروب خطيرة من التهيج والحساسية.

(٧) إما أن نفرض حظراً على "س" من الأمور وإما أن نترك شخصيتنا ومنظومتنا الحياتية مهددة بالخطر.

(٨) إما أن نُبيحَ الإجهاض دون قيد أو شرط، وإما فإننا نرغم الأطفال على أن ينشؤوا فى كنف آباء لا يريدونهم.

(٩) إما أن نُسَرِّح نصف الموظفين وإما أن تفلس الدولة قبل يناير القادم.

(١٠) إما أننى موهوبٌ بقدراتٍ نفسية خارقة، وإما أننى دجال مخادع؛ ولكننى لستُ دجالاً ولم أخدع فى حياتى أحداً قط! (هناك احتمالٌ ثالثٌ تم إغفاله: وهو أن أكون موهوماً).

(١١) إما أن يكون هذا الشاهد قد رأى حقًا مخلوقات فضائية، وإما أن يكون مجنونًا، ولكنه غير مجنونٍ، ولم نعرف عنه ولا شهدنا من تصرفاته ما ينم على أى خلل ذهنى على الإطلاق.

(١٢) إما أن تكون هذه السيدة قد اختُطِفت حقًا فى أطباقٍ طائرة وأعيدَت ثانيةً إلى إلى الأرض، وإما أنها تُعانى من ذُهانٍ متقدِّم؛ ولكنها فى تمام العقل والاتزان وملتزمة فى عملها ولم يسبق لها قَط أن أدخِلت إلى مصحة للأمراض العقلية.

تروج هذه المغالطة بصفة خاصة فى أقوال الباعة ومندوبى الدعاية الذين يُضَيِّقون على العميل نطاقَ الخيارات حتى لا يبقى له خيارٌ إلا فى سلعتهم المعروضة. وتروج على ألسنة السياسيين الذين يُحيلون كل من ليس مواليًا لهم إلى عدو مبين، ولا يتركون خانةً للحياديين مثلاً فى منظومتهم التصنيفية المتصوَّرة. وتروج فى خطاب المتطرفين الدينيين على اختلاف مشاربهم، أولئك الذين يقدمون للسذج وكسالى العقل تأويلاً للعالم مفرطًا فى التبسيط والتسطيح والزيف والتشويه.

يمكن تجريد الصورة المنطقية للإحراج الزائف كما يلى:

إما ق وإما ك

لا ق

إذن ك

من الواضح أن هذا القياس صحيح بحد ذاته ولا غبار عليه، مثال ذلك:

إما أن سليمان ميت وإما أنه حى

سليمان ليس ميتًا

إذن سليمان حى

ومثال آخر:

إما أن عمرَ لديه رخصةُ قيادة وإما أنه غير مسموح له بالقيادة

عمرُ لم يحصل على رخصة قيادة

إذن عمر غير مسموح له بالقيادة

ويأتى الخللُ دائمًا إذا كانت ق و ك لا تستغرقان جميعَ الاحتمالات القائمة بحيث يحق لنا تجريدُ الصورة المنطقية للإحراج الزائف، بُغْيَةَ الإيضاح والدقة، كما يلى:

١ – إما أن تختار ق وإما أن تختار ك

٢ - ليس هناك اختيارات أخرى

٣ - لا يمكنك أن تختار ق

إذن لا بديل لك من أن تختار ك

ويكمن الخلل هنا فى كذب المقدمة ٢

ومن ثم لا يلزمك لكى تفند للخصم حجته وتظهره على خطئه سوى أن تكشف له هذه المقدمة المضمرة أو الافتراض المسبق "ليس هناك بدائل أخرى" وتخرجه إلى واضحة النهار.

حين يعم الاستقطاب الذهنى ويتواتر يصبح سمةً شخصيةً تميز الفرد، أو أيديولوجيةً جمعية تميز الجماعة. وهو على المستويين لا يورِث إلا العجز والجمود. يقول د. آرون بِك رائد العلاج المعرفى: "يميل العصابيُّ إلى التطرف والشطط فى التفكير حين تكتنفه مواقفُ تمس الجوانبَ الحساسة من نفسه، مثل تقديره لذاته فى حالة الاكتئاب، واحتمالات الخطر الشخصى فى حالة عصاب القلق. وقد يقتصر الشطط الفكرى على مناطق قليلة. ويعنى الشطط (التطرف الفكرى) thinking in extremes أن تَسِمَ الأحداث والوقائع بأنها بيضاء أو سوداء، حسنة أو سيئة، رائعة أو فظيعة. وقد أُطلِق على هذه الخاصة اسم "التفكير المنقسم" dichotomous thinking أو "التفكير ثنائى القطبية" bipolar thinking . شأن المقدمات الأساسية التحتية لهذا النوع من التفكير أن تُصاغ فى حدود مطلقة مثل "دائمًا" أو "مطلقًا"(*).

ويتجلى الاستقطابُ الذهنى الجمعى فى أوضح صورة فى ظاهرة العنصرية أو ما يعرف بمركزية العرق ethnocentrism . وتعنى مركزية العرق النظر إلى الأشياء على أن جماعتنا هى محور كل شىء والإطار المرجعى الذى يقاس عليه كل شىء آخر

(*) آرون بِك، "العلاج المعرفى والاضطرابات الانفعالية"، ترجمة: د. عادل مصطفى، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٠، ص ١٠٦

وتقيِّم به كل الجماعات الأخرى: جماعتنا هى الصواب وغيرها الخطأ.. هى الحق وغيرها الباطل. هذه العنصرية الصميمة هى التى تحمل كل شعب على أن يغلو فى أية عناصر يجدها خاصة به وحده ومميزة له عن الآخرين. وهذا الاستقطاب الذهنى هو الذى يفضى بالحضارات إلى التجمد والذبول، وهو الذى يذكى الضغائن بين الجماعات المختلفة ويورطها فى صراعات منهكة ويزجى بها إلى حروبٍ مقدسةٍ فى وهم الطرفين، ويعطلها فى هذا العصر عن الاندماج فى المجتمع الكوكبى الجديد. إن أول ما يحيد بالجماعات عن المنطق السديد وعن الاندماج الجديد هو التفكير المستقطب: عقلية "نحن – مقابل – هم"، حيث يقيِّم كل طرفٍ بتبسيطٍ مفرِط: فإما خيرٌ كلُّه وإما شر كلُّه(*).

(*) Greenspan, S. I. (1997). The growth of the mind and the endangered origins of intelligence. Readings, MA: Addison Wesleg.

الفصل الخامس عشر

السبب الزائف

(أَخْذُ ما ليس بعلَّة علَّةً)

false cause ; non causa pro causa

تتقاطَرُ الأحداثُ في الزمان

لا تأبَقُ منه

موثوقةٌ بآناتِها دائمًا

ولكن غير موثوقة بجاراتِها بالضرورة

لماذا تَحدُثُ الأشياء؟

يميل البشرُ بطبيعتهم إلى تفسير الأحداثِ وإدراكِ سببِها. ولذلك أسَّسُوا العلمَ، الأصيلَ منه والزائف. ما سببُ المرض؟ ما سببُ الدمار، والحروب، والكسوف والخسوف، والزلازل والأعاصير، والركود الاقتصادي ..؟ إن في جبِلَّةِ العقل البشري أن يربط الأشياءَ لتُكَوِّنَ نمطًا أو هيئةً أو شكلاً؛ وأن يصل النقاطَ المنفصلة، ويملأ الثغرات، ليَستَوِي له نمطٌ ذو معنى لديه. وهو يرتبك ويتأزم إذا لم يميز أنماطاً، لأن به ولوعًا بالتنبؤ، ورغبةً في السيطرة على الأحداث.

تَطَّرِد الأحداثُ أمام الإدراك البشري في أنماطٍ معينة من التصاحُب والتعاقب والتجاور في المكان والزمان، فيَستَلُّ من ذلك "علاقات ارتباط" تثير فيه عادة "التوقع"، وقد تترسخ فيه عادة التوقع فتحول علاقةَ "الارتباط" **correlation** إلى "سببية" **causality**. فكلما ارتبط حدثان معًا في الزمان والمكان كان ذلك دليلاً عنده على أن أحدهما "سبب" **cause** للآخر، وكلما تعاقب حدثان كان سابقهما سببًا للاحق.

كل ذلك حسنٌ وجميل، وهل العملُ العلمي، فى شطرٍ كبيرٍ منه، إلا اقتفاء للارتباطات التجريبية وتشييد نظريات علمية تفسر هذه الارتباطات بلغة الضرورة القانونية nomic necessity؟(*) تأتى المغالطة، على كل حال، عندما يخلط العقل بين "المَعيَّة" togetherness/association و"السببية" causality، ويجعل مجرد الارتباط بين حَدَثين دليلاً على أن أحدهما سبب للآخر، دون أى بَيِّنَةٍ أبعدَ من ذلك cum hoc ergo propter hoc

إن إثبات وجود علاقة سببية بين حدثين يستلزم أكثر من مجرد الارتباط: يستلزم الاطِّرادَ الدائم، والارتباط الدائم بين نمطى الحدثين، إيجابًا وسلباً، وعدم وجود أى أمثلة مضادة. ذلك أن مجرد "المعية" قد يكون مَرَدُّه إلى:

(١) المصادفة البحتة coincidence

(٢) وجود سببٍ ثالثٍ أعَمَّ من وراء كلا الحدثين، وتسمى المغالطة عندئذ: "إغفال سببٍ مشترك" ignoring a common cause، أو "المعلول المزدوج" joint effect .

(٣) كما أن الاتجاه الحقيقى للعلاقة السببية قد يكون معكوساً، وتسمى المغالطة هنا: "الاتجاه الخطأ" wrong direction .

(*) توصف التفسيرات العلمية عادة بأنها تفسيراتٌ سببية. على أن هناك فصيلاً من الفلاسفة، هم الوضعيون، يرون أن العلم يتعين عليه أن يكشف الارتباطات correlations (ويصوغها صياغة رياضية قدر المستطاع) وليس عليه أن يحدد أسباباً. وأما من وجهة النظر القياسية التى ترى أن العلم يقدم تفسيراً عميقًا للظواهر السطحية، فالتفسيرات العلمية هى تفسيرات سببية قلبًا وقالبًا. على أننا ينبغى ألا نغفل أن بعض التطورات فى الفيزياء الحديثة قد كشفت عن أن الضرورة السببية (وتسمى أحيانًا بالحتمية العِلِّيَّة) لا تنسحب على البِنية الصغرى (تحت الذرية) للعالم الفيزيائي، وهى ذلك المستوى من الواقع الذى تضطلع بدراسته ميكانيكا الكوانتم.

الخلط بين السببية ومجرد المصادفة

(١) وُجِدت ارتباطات شبه تامة بين معدل الوَفَيات فى حيدر أباد بالهند من ١٩١١ إلى ١٩١٩ وبين تغييرات فى عضوية الرابطة الدولية لعلماء الميكانيكا خلال نفس الفترة. ولا يمكن لأى عاقل أن يعتقد حقًا فى وجود أى شىء يتجاوز المصادفة المحضة فى هذه الواقعة العجيبة (والتافهة فى الوقت نفسه!).

(٢) وُجِدَ ارتباطٌ إحصائى وثيق بين مستويات تمويل الفنون فى بريطانيا وبين أعداد طائر البطريق فى القطب الجنوبى!!

(٣) وُجِدَ ارتباط كبير بين أعداد طائر اللقلق فى أماكن معينة من أوروبا وبين معدل المواليد من الأطفال. (من الخَطَل أن نستدِل من هذا الارتباط وحده على أن وجود طائر اللقلق سبب لولادة الأطفال!).

إغفال سبب مشترك neglect of a common cause (المعلول المزدوج joint effect)

يكثر الخلط بين المَعِيَّة والسببية حين يتم إغفال سببٍ مشترك للحدثين كليهما، أى حين يكون الحدثان ناتجين عن حدثٍ ثالث، أو معلولين لعلةٍ مشتركة.

أمثلة :

(١) قبيل اندلاع الحروب يتزايد معدل التسليح لدى الأطراف المتصارعة. إذن زيادة التسليح تؤدى إلى اندلاع الحروب (ربما يكون الصواب أن التوتر والخلاف بين الأمم يفضى إلى كل من التسلح والحرب) .

(٢) الحمى (ارتفاع الحرارة) تؤدى إلى الطفح الجلدي. (قد يكون فيروس الحصبة هو السبب من وراء كل من الحمى والطفح الجلدى)

(٣) وُجِدَ ارتباطٌ قويٌّ بين معدلات بيع الأيس كريم وبين معدلات الجريمة. إذن تناول الأيس كريم يؤدى إلى ارتكاب الجرائم! (الصواب أن ارتفاع حرارة الجو هو السبب فى ارتفاع معدلات الجريمة (بما يفضى إليه من توتر وقلق) وفى ارتفاع مبيعات الأيس كريم.

(٤) كلما كبر مقاس حذاء الطفل كان خطُّه أفضل! إذن كبر حجم القدم يُسَهِّل عملية الكتابة!! (الصواب أن النمو المتصل للطفل يؤدى إلى كل من زيادة حجم القدم ونمو القدرات المدرسية جميعًا بما فيها خط اليد).

(٥) ثمة انخفاض ملحوظ فى البارومتر أثناء هبوب عاصفة. إذن العاصفة سببت انخفاض البارومتر. (الصواب أن انخفاض الضغط الجوى هو سبب كل من العاصفة وانخفاض البارومتر).

(٦) كشفت التحليلات وجود بكتريا معينة بكمية كبيرة لدى أحد المرضى. فاستنتج الطبيب أن البكتريا هى سبب المرض. ثم تبين أن البكتريا غير ذات خطر وأن هناك فيروسًا هو سبب كل من المرض و نمو البكتريا الانتهازية التى تكاثرت نتيجة ضعف المريض.

(٧) خلال العشر سنوات الأولى من انتشار أجهزة التليفزيون فى أى بلد من البلدان وُجِدَ أن معدلات جرائم القتل ترتفع إلى الضعف. إذن التليفزيون هو السبب فى العنف. (الصواب أن انتشار أجهزة التليفزيون هو مجرد عَرَض لتغيرات اجتماعية عريضة النطاق، تشمل اكتمال بنيةٍ تحتيةٍ كهربائية وتَكَوُّن طبقة وسطى كبيرة قادرة على شراء أجهزة التليفزيون وغيرها من الأدوات. من السذاجة إذن أن نَعُد التليفزيون فى هذه الحالة متغيرًا مستقلاً تمامًا).

(٨) فى بعض الولايات الأمريكية وُجِدَ أن معدلات الإدمان تتزايد مع زيادة الفقر. إذن الفقر يؤدى إلى الإدمان. (الصواب أن التمييز العنصرى فى هذه الولايات كان يفضى إلى الإحباط والتراخى فيؤدى إلى كل من الفقر والإدمان) .

مثل هذه الطريقة التبسيطية فى التفكير لن تؤدى إلا إلى حلول تبسيطية، ولن تؤدى الحلول التبسيطية إلا إلى الفشل وإهدار الوقت والجهد، مادام "السبب المشترك" common cause يَقْبَع هناك آمنًا من الملاحظة والرصد، وبالتالى من التناول والعلاج.

الاتجاه الخطأ (للعلاقة السببية) wrong direction

فى هذه المغالطة نجد العلاقة بين العلة والمعلول (السبب والنتيجة) معكوسة، حيث يؤخَذ المعلول كعلة وتؤخَذ العلة كمعلول.

أمثلة :

(١) انتشار مرض الإيدز ناتج عن زيادة الثقافة الجنسية. (العكس هو الصحيح: وهو أن زيادة الثقافة الجنسية ناتجة عن انتشار الإيدز وتَخَوُّف الناس منه).

(٢) يزداد انتشار الأمراض الفصامية بين الطبقات الاجتماعية الدنيا. إذن تَدَنِّى الطبقة الاجتماعية يؤدى إلى الفصام العقلي. (الصواب أن المرض العقلى المزمن يؤدى إلى تدهور أداء المريض الدراسى والمهنى والاجتماعى، فيهبط به شيئًا فشيئًا إلى طبقة اجتماعية أدنى، وهكذا من يُصاب وراثيًا من نسله، وتسمى هذه الظاهرة drift phenomenon).

(٣) وُجِدَ أن هناك ارتباطًا بين معدل امتلاك السلاح فى بعض الولايات ومعدل ارتكاب الجرائم. إذن امتلاك السلاح يؤدى إلى انتشار الجرائم. (الصواب أن انتشار الجرائم يُقلِق المواطنين الآمنين فيستخرجون رخص الأسلحة للتحوُّط والحماية) .

بعد هذا إذن بسبب هذا

(المغالطة البَعْدية/ بِعَقِبِه إذن بِسَبَبِه)

post-hoc ergo propter hoc

a posteriori fallacy

ذاتَ يومٍ في الزمان

أخذَ الديكَ غرورٌ قاتل

فصاح معجَباً: إننى حقًّا مَلِكُ المزبلة، بل مَلِكُ العالم

إننى لأستَلُّ الفجرَ من مكْمنِه بصياحى

وبوسعى إن شِئتُ أن أكُفَّ عن الصياح فأجعلَ الليلَ سَرمَدا

جذبَ الصوتُ شقِيًّا كان يفتشُ فى المزبلة عن رزقٍ،

فجعلَ من الديك وجبةً دسمة

....

هذا ولم يزلْ الفجرُ يطلع على الأرض إلى يومنا هذا

يصيح الديك قبل الفجر، ثم يأتى الفجر وينبلج الصباح؛ إذن صياح الديك يُطْلِع الصبحَ ويسُلُّ الشمس من مكمنها. هكذا فَكَّر الديكُ وهكذا تمضى "المغالطة البعدية" a posteriori fallacy . تفيد المغالطة البعدية أنه مادام شيءٌ ما قد أتى بعد شيءٍ آخر فهو إذن قد أتى بسببه. لقد حدث بِعَقِبِه إذن فقد حدث بِسَبَبِه. أليست المعلولات دائماً تأتى فى أعقاب العلل؟

إن المعلولات لتأتى حقًا بعد عِلَلِها. غير أن هذا "شرطٌ ضروريٌّ" necessary condition لعلاقة العلية وليس "شرطًا كافيًا" sufficient condition . فلكى يوصف حدث ما (أ) بأنه "سبب" لحدث آخر (ب) ليس يكفى أن يأتى قبله، فإثبات علاقة العلية يتطلب ما هو أكثر من مجرد التعاقب أو الارتباط: يتطلب أن جميع أفراد فئة ب، فى عينات وافرة وممثِّلة للفئة ب، تأتى دائمًا وأبدًا بعد جميع أفراد فئة أ، وتغيب دائمًا ب فى غياب أ، مع شيء من التجاور فى المكان والزمان، وغياب أى عامل آخر قد يكون وراء حدوث الاثنين معا.. إلى آخر ذلك مما فَصَّله البحث العلمى عن شروط إثبات العلاقة السببية، والطرائق العملية والإحصائية لإثبات ذلك.

أما الاكتفاء بمجرد التعاقب الزمنى كدليل على علاقة السببية فهو تفكير شديد الفجاجة والسوقية. وهو سوقى لأنه يتسم بالشيوع والجهل. وبه يَتَقَوَّم كلُّ التفكير الخرافى والسحرى وحكايا العجائز والوصفات الطبية الشعبية وثرثرة مجالس الفرا غ والتَبَطُّل.

حين نضع جانبًا ذلك التصور اليومى عن العلة والمعلول، ونتأمل الأمر بدقة وحَيْدة وعمق نجد أننا، رغم توهمنا فهم الآليات التى يؤدى بها كل حدث إلى الآخر، لا نشهد فى الحقيقة شيئًا اسمه "العلِّيَّة"، وكل ما نشهده هو تواترات وارتباطات وتتابعات من الأحداث، بحيث تَؤُول فكرةُ السببية فى النهاية إلى "توقعنا" للاطراد والارتباط. تقترب الإصبعُ من اللهب فتتألم؛ فنسمى اللهب "سببًا" cause والألم "مسبَّباً" effect أو "معلولاً" أو "نتيجة"، لأننا نتوقع الثانى كلما حدث الأول. ونحن بالطبع نلفق تفسيرات لنملأ الثغرات غير المرئية بين الحدثين. فكيف عرفنا أن هذه الأحداث غير المنظورة هى

(*) لاحظ أن تَعَطُّل أى جزء من المسار العصبى لإحساس الألم سوف يجعل اقترابَ الإصبع من اللهب غيرَ متبوعٍ بألم.

الأسباب حقًا؟! لا شيء.. إنها تتوالى دائمًا ويعقب بعضها بعضًا![*] هذه الفجوة في معرفتنا هي مرتعٌ خصيبٌ وملاذٌ آمنٌ للمغالطات:

كان مؤرِّخو الإغريق دائمًا يفسرون الكوارث الطبيعية كنتاجٍ لأفعال البشر. فإذا حدث زلزالٌ مروِّعٌ مثلاً ودمَّرَ مدينةً بكاملها، فإن هيرودوت يعمد بهمةٍ وجدٍ إلى تفصيل الأحداث البشرية السابقة على الزلزال، ثم يستنتج أن المذبحة التي ارتكبها أهل المدينة، مثلاً، قبل الزلزال كانت سببًا في وقوعه.

وقد قدم عالم الاجتماعي الأمريكي جراهام سَمْنَر نظريته فيما أسماه بـ "الطرق الشعبية" أو "العادات الشعبية" folkways، التي تَرُد الأحكام الأخلاقية إلى مظاهر لاعقلية في أساسها، لقوى اجتماعية هي ذاتها غير عقلية. هذه الطرق الشعبية هي عادات شعبية مستقلة عن أفكارنا عنها، ولا تسير حسب قواعد معقولة، وهي لا تتفق إلا مع المزاج أو الموقف العام لزمانها ومكانها المعينين. ولها ما يمكن أن يُعَد حياةً خاصة بها. ذلك أن سمنر يرى أنها تولد وتكبر وتموت ولا يمكن أن يؤثر فيها تأثيراً يُذكَر إلا قوى قليلة (منها التعليم)[*]. من هذه الطرق ما هو ناتج عن استدلال خاطئ، وبخاصة خطأ "السبب الزائف". يقول سمنر إن الطرق الشعبية قد تكونت بطريق المصادفة، أو بواسطة فعلٍ غير عقلاني وقائم على معرفةٍ زائفة: من ذلك أن وباء الطاعون لما تفَشَّى في مولمبو Molembo عقب وفاة أحد البرتغاليين اتخذ الأهالي كل الاحتياطات الممكنة لكي لا يموت رجلٌ أبيض بعد ذلك في بلدهم. ومن ذلك ما حدث في جزر نيكوبار على أثر وفاة بعض من السكان الأصليين كانوا قد بدأوا لتوِّهم في مزاولة حرفة الخزف، إذ انفض الجميع عن مزاولة هذا الفن ولم يَقرَبه أحد بعد ذلك على الإطلاق. ومن ذلك ما حدث في إحدى قرى جنوب أفريقيا حين أهدى البيضُ رجلاً من

(*) هنترميد: "الفلسفة – أنواعها ومشكلاتها"، ترجمة د. فؤاد زكريا، الطبعة الثانية، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٣٧٦

البوشمن عصا مرصعة بالأزرار كرمزٍ للسيادة، إذ توفى الرجل وخلَّفَ العصا لابنه، وسرعان ما توفى الابن؛ فأعاد البوشمن العصا إلى من أهداها خشية أن يموت الجميع. وقد تصادف مرة أن انتشر الجدرى بين شعب الياكات بعد أن شهدوا جَمَلاً لأول مرة، فوقر فى ظنهم أن الجمل هو الذى أحدث المرض ... وبوسعنا أن نجمع ما لا يحصى من هذه الشواهد. وهى فى الحقيقة تمثل الطريقة المتبعة فى الاستدلال العقلى لدى الشعوب البدائية. فمن عادة هؤلاء الأقوام إذا حدث شىءٌ "بعد" شىء آخر أن يستدلوا من ذلك أنه حدث "بسببه"(*).

وما تزال هذه الطريقة فى التفكير تعشش فى أذهاننا حتى اليوم، فالتسونامى الآسيوى سببه تفاقم ذنوب البشر (مع أن التسونامى نتاج زلزال تحت المحيط ناجم عن انزلاقٍ طبَقى، والضحايا ربما كانوا أقل أهل الأرض ذنوبًا) وإعصار كاترينا سببه السياسة الأمريكية (مع أن الأعاصير سببها حركة الرياح فوق ماء المحيط). ومادامت هناك حقًا فجوة فى معرفتنا، فلن يمكنك أن تُقنِع من مال به هواه إلى تفسيرٍ معينٍ دون سواه.

على هذه المغالطة السوقية تقوم حِرَفٌ وتَرتزِق طوائف: العِرافة والفأل والتنجيم والرُّقَى والتعازيم والكهانة والعلاج الشعبى.

يُبَشرُكَ العرَّافُ بأحداثٍ سعيدة، وتأتيكَ أحداثٌ سعيدة؛ لأن الأحداثَ السعيدةَ تحدث طوال الوقت على كل حال. ويُنْذِرُكَ المُنَجِّمُ بعواقب وخيمة، وتنزل بك نوازل غير سارة، لأن النوازل غير السارة تنزل دائمًا على كل حال. ويصف لك المشعوذ حجابًا يَشْفِى مرضك، ثم تشفى من المرض، لأن أغلب الأمراض يشفى

(*)Sumner, W. G. "Ethics are Relative", In James A. Gould (Ed.), Classic Philosophical Questions, second edition, charles E. Merrill Publishing Company, Howell Company, Columbus, Ohio 43216, pp. 84-85.

تلقائيًا بمرور الوقت (وإلا لما بقى حَيٌّ على الأرض إلى اليوم). يتذكر الناس الرميات الصائبة والتوقعات الناجحة، ويتداولونها فيما بينهم مضخَّمة ومُنتقاة، فتستقر فى ذاكرتهم دليلاً على صدق العراف أو المنَجِّم أو المعالج. بينما تُنسَى تلقائيًا تلك الرميات الخائبة والتوقعات الفاشلة، وهى الأكثر والأعم بما لا يُقاس، وتنسدل عليها ستائر النسيان.

تُسَمَّى هذه الظاهرة فى العلم "مشكلة دُرج السِجلات" (أو درج الملفات) file drawer problem : وهى مشكلة تنجم حين يحاول العلماء تحديد ما إذا كانت نتيجة ما هى حقيقية أم زائفة بِناءً على التراث البحثى المنشور. تأتى المشكلة عندما تكون هذه النتيجة هزيلة (أو غير موجودة) ولا تحدث إلا مصادفةً. ومن ثَم فإن من يقع عليها من الباحثين يُسَجِّلها وينشرها، مصحوبةً بالهتاف والتهليل؛ أما الباحثون الذين لم يقعوا على هذه النتيجة قَطُّ فإنهم لا ينشرون أبحاثهم عادةً وإنما يلقون بها فى أدراج السجلات. هكذا تبدو الظاهرةُ الزائفةُ حقيقةً علمية، لا لشيء إلا لأن الأبحاث العديدة المكذِّبة لها قد طُوِيَت فى الأدراج، بينما نُشِرَت الأبحاث القليلة الشاذة التى تؤيد الظاهرة، فكانت لافتةً للأنظار ببرقها وصخبها.

أمثلة أخرى :

(١) لَبِستُ هذا القميص اليوم وذهبت إلى الامتحان فأجبت عن جميع الأسئلة بإجادة تامة. إذن هذا القميص فألٌ حسن ولسوف أرتديه فى كل الامتحانات القادمة. (غنى عن البيان أننى أَجَدْتُ فى الامتحان لأنى كنت مستعداً له استعدادًا طيبًا بالمذاكرة والدرس، وليس لأننى لبست هذا القميص أو ذاك!)

(٢) تَكسِفُ الشمسُ، فَيُهْرَع أفرادُ القبيلة عن بكرة أبيهم، ويظلون يدقون الطبول بعنف، ثم تبرز الشمس من وراء الحجاب. إذن دق الطبول يسترد الشمس ويُخرِجها من كسوفها.

(٣) أصيب حسن بصداع شديد، فعَجَنَت له جدته عجينة من الدقيق والخل وزيت السمك وبول الأرنب، لصقها برأسه ونام، فذهب عند الصداع بعد دقائق. (كثيراً ما يذهب الصداع تلقائيًا بذهاب سببه الحقيقى) .

(٤) تشوشت الصورة فى تلفاز سعيد، فخبط بقوة على التلفاز، فانصلحت الصورة. إذن خبط الجهاز هو أيسر طريقة لإصلاح أعطال التلفاز.

(٥) عطسَ منصور فى منزله بالقلعة، وبعد ثوانٍ وقع تسونامى المحيط الهندي، إذن عطسة منصور فَجَّرت كارثة التسونامى.

* * *

تذييل

الأثر البلاسيبى placebo effect

هناك ظاهرة طبية لافتة يُقال لها "الأثر البلاسيبِى" placebo effect، وهو تَحَسُّنٌ صحى، مُحَسٌّ أو ملاحَظ أو مَقيس، لا يُعزَى إلى العلاج. وتعبير placebo هو تعبيرٌ لاتينى يعنى "سوف أَسُرُّ" أو "سوف أُرضِي". والبلاسيبو هو دواء، أو إجراء علاجى، يعتقد المعالِج أنه خاملٌ أو "لا يَضُرّ". قد يكون البلاسيبو حبوبًا من السكر أو من النشا. وحتى الإجراء الجراحى الزائف، أو العلاج النفسى الزائف، قد يُعَد ضربًا من "البلاسيبو".

وفى الدراسات الطبية عن الأثر العلاجى الحقيقى لدواءٍ مقترَح يستخدم الباحثون، إلى جانب مجموعة المرضى الذين يعالَجون بالدواء، "مجموعة ضابطة" control group تتناول البلاسيبو بدلاً من الدواء الحقيقى؛ وذلك حتى تتسنَّى ملاحظة الفرق بين تأثير العلاج الحقيقى وتأثير العلاج الوهمى (إذ إن للعلاج الوهمى تأثيراً!)، وقياس مدى أفضلية الدواء الجديد على البلاسيبو، والبرهنة من ثَم على أنه علاج حقيقى فعال.

يرد بعضُ الباحثين هذا الأثر البلاسيبى إلى مجرد شعور "ذاتى" بالتحسن كنتيجة للاعتقاد فى العلاج والإيمان بتأثيره الشفائى، ويرده البعض إلى "المسار الطبيعى" natural course للمرض، بما يعتريه من "اشتدادات"exacerbations و "هَدآت" remissions وفترات هجوع طويلة وتراجع طبيعي، وربما الشفاء التلقائى التام كمآلٍ طبيعى لكثير من الأمراض والإصابات.

غير أن تراكم الأبحاث وتواتر الملاحظات المؤيِّدة للأثر البلاسيبى يشير إلى أن الأمر أكبر من مجرد إحساس ذاتى زائف: ثمة تحسن حقيقى مشهود وموثّق ومَقِيس، حتى فى بعض الأمراض العضوية المكينة:

- يزيل بعض الأطباء أنواعًا من الزوائد الجلدية بدهانها بصبغة خاملة براقة والوعد بأنها تزول مع زوال الصبغة!
- وفى دراسات عن الربو الشعَبى تبين أن استنشاق بلاسيبو يُوَسِّع الشعَب الهوائية توسيعًا حقيقيًا مَقِيسًا.
- وفى التهابات القولون وُجِدَ تحسنٌ حقيقى فى خمسين بالمائة من المرضى إثر تعاطيهم دواءً خاملاً (بلاسيبو).
- ومن الروايات البحثية الفذة ما سجله أحد أطباء القلب بصدد الإجراء الجراحى المعروف بربط الشريان الثديى الداخلى فى بعض حالات الذبحة الصدرية (لزيادة المدد الدموى إلى عضلة القلب): فقد وجد الأطباء، بالمصادفة، أن الجراحة الوهمية المتضمنة لمجرد الفتح الجراحى من دون ربط الشريان قد أدت إلى نفس الأثر العلاجى (وهو تحسن ٩٠٪ من المرضى!)

فى ضوء هذه النتائج الملموسة الثابتة ربما يكون التفسير الأمثل لظاهرة "الأثر البلاسيبى" هو التفسير البيوسيكولوجى. فمن الواضح أننا بإزاء ظاهرة معقدة ربما لا يسعها إلا تفسير مركب يضفر التفسير النفسى بتفسير بيوكيميائي: فمن شأن "الاعتقاد" فى العلاج، ومشاعر الاهتمام والرعاية، والمساندة والتشجيع والأمل، التى يبثها الموقف العلاجى، أن تستفز فى الجسم آلياتٍ فسيولوجية تُفضِى إلى أثر فيزيقى حقيقى:

- قد يكون هذا الأثر من خلال إطلاق "الإندورفينات" endorphins في مواضعها ومساراتها العصبية.

- وقد يكون من خلال حفز جهاز المناعة.

- وقد يكون من خلال تنشيط محورٍ عصبي هرموني هو "محور المهاد التحتي – النخامية – الكظرية" hypothalamo-hypophyseal-adrenal axis .

لعل هذا الهامش الشفائي الذي يتيحه الأثر البلاسيبي (إلى جانب الهجوع التلقائي للمرض) هو الباب الموارَب الذي ينفذ منه الدجالون والأدعياء، والكثير من ألوان ما يسمى بـ "الطب البديل" alternative medicine، إلى الساحة العلاجية: العلاج بالرقى، العلاج بالزار، العلاج بالعطور، "العلاج المِثلي" homeopathy، "الانسجام الحيوي" bioharmonics، "الكَيروبراكتيك" (العلاج بتقويم العمود الفقري يدويًا) chiropractic .... إلخ

قد يقول قائل: وما الضَّيْر؟! وماذا يُجدِيني أن أعرف كيف يحدث الشفاء مادام الشفاءُ يحدث؟

والجواب أن هذه الضروب من "تناسخات البلاسيبو"، على فوائدها التصادفية في بعض الحالات، إنما تُغَشّي على المسار الجاد للبحث الطبي الحقيقي، وتُضِلُّ عن التماس العلاج الصحيح في مظانه الصحيحة، وتستبدل به هُراءً بلاسيبيًا "تَفَتُّه" لأناسٍ ذاهلين بالمرض غارقين في الأغاليط. إن البلاسيبو لن يستأصل ورماً، ولن يجبر كسراً، ولن يكبح صَرَعاً، ولن يوقف نزيفًا، ولن يغسل كلًى، ولن ينقذ حالة حَرِجة .. ولو كان هامش البلاسيبو يكفي لعلاج الناس لما نشأ المرفقُ الطبي لدى البشر منذ البداية.

وبعد؛ فإن تناسخات البلاسيبو تريد أن تبيعنا بضاعةً بأكثر من ثمنها؛ فالأثر البلاسيبي قائم ومبذول ومتضَمَّن ومبيَّت سلفًا في كل دواء وفي كل إجراء علاجي. إنما تسعى الأبحاث الدوائية إلى إثبات جدوى علاجية تتجاوز الأثر البلاسيبي بِفارِقٍ ذي دلالة.

الفصل السادس عشر

السؤال المشحون (المُرَكَّب)

loaded question (complex question)

سأل ألكسينس من إليس أحد الفلاسفة على سبيل السفسطة:

"هل أقلعتَ عن ضرب أبيك؟"، فما كان جواب الفيلسوف إلا أن قال: "لم أكن أضربه ولم أقلِع!"

السؤال المشحون أو المُرَكَّب هو تكنيك يعمد إلى دس "فروض مسبقة" presuppo-sitions، غير مبرَّرة وغير داخلة فى التزامات الخصم، داخل سؤال واحد، بحيث إن أى جواب مباشر يعطيه المجِيب يوقعه فى الاعتراف بهذه الفروض. والمثال التقليدى على المغالطة:

"هل توقَّفتَ عن ضرب زوجتك؟"

فأيًا ما كان الجواب، نعم أو لا، فإن المجيب يعترف بالفرض المسبق وهو أنه كان فى وقتٍ ما يضرب زوجته. حين يكون هذا الفرضُ المسبق كاذبًا أو غيرَ مبرهَن عليه يكون هذا مثالاً لمغالطة السؤال المركب أو الملغوم. إنه شَرَكٌ أو أحبولة؛ لأنه يُضَيِّق على المُجيب نطاقَ الخيارات إلى صنف واحد من الإجابة المباشرة، أو عدد ضئيل من احتمالات الجواب المباشر من شأنها جميعًا أن تزعزع موقفَه فى الحوار.

انظر أيضًا إلى هذا السؤال المفخخ:

"متى أقلعتَ عن تعاطى المخدرات؟"

إنه مَصوغٌ بحيث يتضمن داخله عبارتين أخريين لم تتم البرهنة عليهما، ويسلِّم بهاتين القضيتين تسليمًا دون دليل. أى أنه ينطوى على "مصادرة على المطلوب" petitio principii، لأنه يفترض مسبقًا أجوبةً محددة عن أسئلةٍ سابقة غير مصرح بها. مثل هذا السؤال لا يمكن الرد عليه ببساطة بالإيجاب أو بالامتناع. إنه ليس سؤالاً بسيطًا بل يتركب من عدة أسئلة معبأة معًا فى سؤال واحد:

١ – هل كنتَ تتعاطى المخدرات فيما مضى؟

٢ – وإذا كنتَ قد تعاطيتَ المخدرات فهل توقفتَ عن التعاطى؟

٣ – وإذا كنتَ قد توقفتَ عن التعاطى فمتى كان ذلك؟

لا بأس باستخدام هذه الخدعة لإظهار الحقيقة فى بعض المواقف. فقد دأبَ المحققون على أن يستخدموا هذا التكنيك لإيقاع المتهم فى الاعتراف. يسأل المحققُ مثلاً: "أين أخفيتَ جسمَ الجريمة؟"، "أين خبأتَ المالَ الذى سرقتَه؟"، "ما الذى دفعَكَ إلى تزوير هذه الوثيقة؟"

والرد الذكى عندما يواجَه المرءُ بهذا السؤال الملغوم هو أن يحلل مكوناته إلى أجزاء ثم يجيب عن السؤال المضمَر الأول أو يناقشه أو يفنده، عندئذ يتبدد السؤال الصريح من تلقاء نفسه.

وقد يشتمل السؤال الواحد على عبارتين متصلتين بحرف عطف، كما لو كانتا مرتبطتين أو كانت إحداهما تستلزم الأخرى بالضرورة، بحيث يُتَوَقَّع من المُجيب أن يقبلهما معًا أو يرفضهما معا، بينما إحداهما فى حقيقة الأمر مقبولةٌ لديه والأخرى مرفوضة منه!

أمثلة :

(١) هل تؤيد خفضَ الضرائب وزيادةَ رفاهية الشعب؟

(٢) هل أنت مع حريةِ المواطن وحقِّه فى استخراج ترخيصٍ بحمل أسلحة؟

(٣) هل تؤيد حريةَ السوق وتركَ الرخاء يعم كل أرجاء العالم؟

(٤) هل تؤيد المادة ٧٦ من الدستور التى تنص على حرية النشر وعلى حرية إبداء الرأى وتحكم بالسجن لمدة لا تزيد عن السنتين على من ينشر قولاً يؤدى إلى البلبلة ويوقع الفُرقةَ بين شرائح المواطنين؟

(٥) هل تؤيد زيادة مصروفات التعليم العام ورفع نوعيته ومستواه؟

(٦) هل تريد أن تدرسَ الموسيقى وتضيعَ وقتك؟

(٧) أنتَ تركتَ العمل وأوعزتَ إلى زملائك بالإضراب. حدث هذا أم لا؟

من البيِّن أن السؤال هنا يتضمن عدة أمور ويطلب الرد بجواب واحد! والصورة المنطقية لهذا السؤال هى:

هل تريد (تعتقد/توافق/فعلتَ..) "أ" و "ب" (و "ج" و "د"...) ؟

بينما يمكن للسؤال أن ينقسم إلى:

هل تريد أ؟ ، هل تريد ب؟ .. إلخ.

فإذا كان أ و ب مرتبطين حقًا فلا مغالطة هناك، أما إذا كان بالإمكان الإجابة عن كل سؤال بجوابٍ مختلف فإننا نكون بصدد مغالطة منطقية هى "السؤال المركب" complex question .

الفصل السابع عشر
التفكير التشبيهي (الأنالوجي الزائف)

false analogy ; analogical fallacy

وقد يتقارب الوصفانِ جدًا ومَوصوفاهما متباعدانِ

المتنبى

وجهكَ يا عَمْرو فيه طولٌ وفي وجوه الكلاب طولُ
مَقابحُ الكلبِ فيكَ طُرًّا يزولُ عنها ولا تَزولُ

ابن الرومى

يفيد "الأنالوجى"(المماثلة) analogy بحد ذاته وجود مماثلة جزئية بين ملامح شيئين أو حدثين أو تصورين تسمح بمقارنةٍ ما بينهما. ويمكن تجريد الصورة المنطقية لقياس الأنالوجى كالتالى:

أ يشبه ب

ب هو ج

إذن أ هو ج مثل ب

ويقع المرء فى مغالطة "الأنالوجى الزائف" false analogy أو الضعيف عندما يَعقِد مقارنةً بين أمرين ليس بينهما وجهٌ للمقارنة، أو أمرين بينهما مجرد تشابه سطحى وليس بينهما وجه شبه يتصل بالشأن المَعْنِيِّ الذى تريد الحجةُ أن تُثبِتَه.

يتألف "الأنالوجي الزائف" من افتراض أن الأشياء المتشابهة في وجهٍ من الوجوه لا بد من أن تكون متشابهة في وجوه أخرى. وعليه فمادام شيئان، أ و ب، متماثلين في جانب من الجوانب فإنهما، إذن، متماثلان في جوانبَ أخرى، أو في جميع الجوانب!

أهمية الأنالوجي ومشروعيته

من الحق أن قدراً كبيراً من معرفتنا يقوم على إدراك التشابه بين الأشياء، ومن ثم تصنيفها في فئات، ويقوم على التعميم من أمثلةٍ محددة إلى صورٍ عامة أو مبادئ مجردة، وعلى التعلم من سابقات الوقائع من أجل تعزيز الفائدة وتجنب الضرر، وعلى تطبيق معرفتنا بشيءٍ ما – في تناولنا لشيءٍ آخر مشابه. في القياس الفقهي مثلاً يُستخدم الأنالوجي استخداماً مشروعاً ولا غِنى عنه؛ ويُعَرَّف بأنه "إلحاق جزئي بجزئي آخر في حكمه لمعنى مشتركٍ بينهما؛ مثال ذلك أن نقول: النبيذ كالخمرة فهو حرام"(*).

وفي مجال القضاء كثيراً ما يُستخدَم القياسُ على سابقةٍ (أو سوابق) قضائيةٍ لوجود مماثلة مع القضية الراهنة. بل إن معنى القوانين وروحَها لا تتبلور ولا تبزغ إلا بكدح القضاة في تطبيقها على الحالات الخاصة قاضياً تلوَ آخر، وحالةً تلوَ أخرى؛ ويكون الأنالوجي في ذلك هو قوام الفهم ومِلاك التأويل.

وليس من قبيل المبالغة أو الغلو أن نقول إن كل صور الاستدلال وإعمال العقل، وكل ضروب الإدراك الحسي والذهني، إنما تستند إلى قدرتنا على تمييز أوجه التشابه ذات الصلة ومعاينة القواسم المشتركة من خلال هذا التدفق الكاليدوسكوبي لأشياءِ العالم وأحداثه ومرائيه.

(*) في تعريفات الجرجاني: "القياس في اللغة عبارة عن التقدير، يُقال قستُ النعلَ بالنعل إذا قدَّرتُه وسوَّيته، وهو عبارة عن رد الشيء إلى نظيره. وفي الشريعة عبارة عن المعنى المستنبَط من النص لتَعَدِّيه الحكمَ من المنصوص عليه إلى غيره، وهو الجمع بين الأصل والفرع في الحكم.

حدود الأنالوجى ومخاطره

غير أن الأشياء (وكذلك المواقف والأحداث والتصورات) لا يمكن أن تتماثل تمامًا، وإلا لكانت العلاقةُ بينها علاقةَ "هوية" identity لا مجرد "تماثل" analogy (راجع مبدأ لَيْبِنتْز)(*). فهناك دائمًا نقطةٌ ينهار عندها التماثلُ ويبدأ تدفقُ الاختلافات. ثمة دائمًا نقطةُ فراقٍ مادام أعضاء كل فئة إنما يجمعهم التماثلُ لا الهوية. هنالك يكون التمادى بالتماثل حيث لا تماثلَ هو ضرب من السخف والامتناع والعته الصميم، أشبه بمحاولة الكتابة على الماء أو محاولة تشييد الصروح على الرمال المتحركة.

الأنالوجى المجازى (البيانى/التصويرى) figurative analogy

تُعَد الصورُ البيانية، من تشبيه واستعارة .. إلخ، وسائطَ ضروريةً لنقل الأفكار وتوصيل المعلومات وتقريبها إلى الأذهان. تتيح لنا الصورُ البيانيةُ أن نتحدث عن مفاهيمَ جديدةٍ غيرِ مألوفة للمستمعين فى حدودٍ قديمةٍ مألوفة لديهم، استنادًا إلى وجهِ شبهٍ معين بين الفكرة المجهولة التى نريد إيضاحها لهم والفكرة المألوفة التى يعرفونها من الأصل، وامتدادًا بخصائصَ أخرى للمألوف لكى توازى خصائصَ أخرى للمجهول. تضطلع هذه الملكةُ التصويرية البيانية بدورٍ كبيرٍ فى التفكير والتواصل، وتمثل عنصرًا حيويًا من عناصر الفهم والإفهام.

غير أن الصور البيانية لا يمكن أن تُستخدَم استخدامًا مأمونًا إلا كوسيلةِ إيضاحٍ لمعنى معين يرمى إليه المتحدِّث. إنها أدواتٌ للتعبير وليست مصادرَ للمعرفة؛ إنها وسائلُ لتقريب الأفكار لا للبرهنة عليها، وسائطُ للتوصيل لا للتدليل، للإفهام لا للإفحام. إذا أراد المرء مثلاً أن يفسر التغييرات التى تعتور الإنسان وهو يتقدم من الشباب إلى الشيخوخة فإن له أن يكتب فقرةً بيانية مُنَمَّقة يقول فيها:

(*) ينص مبدأ ليبنتز Leibniz's principle ويُسمَّى أيضًا "هوية اللامتمايزات" identity of indiscernibles على أن الشيئين المتميزين إحصائيًا (أى أنهما حقًا شيئان اثنان) لا يمكن أن يشتركا فى جميع الخصائص.

"ما أشبهَ الحياةَ بالنهر: يَدْرُج كغديرٍ مَرِحٍ، ثم يَستوِى تيارًا عاتيًا،

ثم يرزح فى نهاية المطاف واهنًا كليلاً حتى يتبددَ فى البحر."

ولكن ليس لأحدٍ أن يستمد من هذا، ومن معرفته بالأنهار، مبادئَ عن إدارة الأعمال أو عن العلاقات الإنسانية!!

وانظر إلى هذا الرأى التشبيهى للملك جيمس الأول:

"النظام الجمهورى هو نظامٌ زائفٌ ومدمِّر؛ ذلك لأن الملك هو رأس الدولة؛

وإذا أنتَ فَصلْتَ الرأس عن الجسد فلن تعودَ بقيةُ الأعضاء تؤدى وظائفَها، وسيموت الجسدُ كله."

هكذا يَتَبَدَّى بؤسُ التفكير التشبيهى: فالدولة لا تشبه الجسدَ الحى إلا مجازًا وتصويرًا بيانياً، ولا يمكن أن يُستنبَط من هذا التماثل أى قواسمَ مشتركةٍ حقيقية تجمع بين الجسد والدولة.

وقد يذهب جميع الشموليين نفس المذهب فيقولون إن الدولة أشبه بالجسد: يعمل على أفضل نحو إذا كان ثمة دماغٌ حادٌّ يديره، لذا فإن الحكومات المتسلطة أكثرُ كفاءةً من غيرها من الحكومات.

لا تتطرق أى من هذه التشبيهات الزائفة التى تُشَبِّه الدولة بالجسم الحى إلى الحديث عن كبد الدولة أو بنكرياسها أو آليات الإخراج بها!!

ويلحق بذلك تشبيه الحضارات بالكائن الحي. وهو تشبيهُ تزخر به تفسيراتُ التاريخ ونظرياتُه. ففى محاولة إضفاء معنى ما على مسار التاريخ تبزغ كل صنوف المقارنة. إن جميع الحضارات السالفة تشترك فى أنها الآن ماضٍ وأنها كانت ذات يومٍ حضاراتٍ وأنها قبل ذلك لم تكن. ومن هذه الحقائق الثلاث النافلة المبتذلة خلص كثيرٌ من المؤرخين إلى "تشبيه دورة الحياة" life cycle analogy : فالتعاقب البسيط "غير حى -> حي-> لم يعد حيًا" يَستدعِى مقارنةً لا تقاوَم بالكائن الحي. وقد بلغ الغلو بالبعض

إلى أن يمتد بالتشبيه إلى تبرير الاستعمار: ذلك أن الحضارة حين تبلغ أشُدَّها فمن الطبيعى أن تنزع إلى التكاثر بأن تنثر بذورَها فى أماكنَ بعيدة!!!

وفى مجال نظرية العلاقات الدولية ثمة مغالطة شهيرة يطلق عليها "domestic analogy"، تقوم على تشبيه العلاقات بين الدول بالعلاقات بين الأفراد بحيث إن الأمورَ البينشخصية interpersonal – أخلاقياتِها وعلاجَها – يتم إسقاطُها على مبادئ السياسة الخارجية!

وجدير بالذكر أن تأثير الأنالوجى الزائف قد يكون مدمِّراً إذا انقلب ضد من استخدَمه: فمن التقنيات الفعالة فى فن المناظرة أنه إذا استخدم الخصمُ تشبيهاً لكى يدعم حجته فما عليك سوى أن تمسك بطرف هذا التشبيه وتمطه فى اتجاهٍ يخدم حجتَك أنت؛ فينقلب السحر على الساحر! عندئذ سيضطر خصمك إلى التسليم بأن تشبيهه لم يكن موفقاً، وسيخسر نقاطًا فى نظر الجمهور. مثال ذلك أن يقول رئيس اللجنة (فى مشروع لا تستريح له أنت ولا تأمَن عواقبَه):

"ونحن إذْ نبحر قُدُمًا فى لجنتنا الجديدة دعونى أُعرِب عن أملى فى أن نتكاتف سويًا من أجل رحلةٍ سلسة".

فبوسعك عندئذ أن تقول:

"السيد رئيس اللجنة على حق، ولكن تَذَكَّروا أن المجَدِّفين كانوا دائمًا يوضعون فى سلاسل ويُضرَبون بالسياط، وكانوا إذا غرقت السفينةُ يغرقون معها!"

* * *

أنالوجي يَتَلَمَّظُ بدَم بشري!!

"إنكَ لا يمكنُكَ أن تصنع عجَّةً دون أن تَكْسرَ بيضًا"

منذ أن جادت قريحة لينين بهذه الصورة المُعْجِبة أصبح هذا التشبيه البياني في القلب من فلسفة الثورات والانقلابات، وغدا ذريعةً مقْنعةً غايةَ الإقناع لسحق المعارضة دون رحمة: أية رحمة؟! إنكَ في مرحلة شديدة الخصوصية من مراحل سير التاريخ، أنتَ فيها إما قاتل وإما مقتول. وعندما تَقتُل وأنت في هذه المرحلة فإن عليكَ أن تستأصِل، لكي تستيقن من أنك واريتَ العدوَّ وثأرَه، أي أن تتخلص من الطبقة الحاكمة والمعارِضة وكلٍّ من لديه بهما أدنى صلة حتى الأجنةِ في البطون! حسنٌ فالغايةُ تبرر الوسيلة على كل حال؛ وقسوتُك، بعد كل شيء، مبطنةٌ بالرحمة: الرحمة بالطبقات الكادحة وهي الغالبية العظمى دائمًا وأبدًا!

غير أن هذه "المرحلة التاريخية" (التي تُصَوَّر دائمًا على أنها عابرةٌ مؤقتة) تظل "مقيمةً" لا تَبرح!!! فلما كانت الأهداف المثالية البعيدة المنال يتأخر مجيئُها طويلاً، وفترةُ خنقِ النقد والمعارضة تطول أكثر فأكثر، فإن الاضطهاد والاستبداد سيزدادان حدةً (وإن خلصت النوايا). وبالضبط لأن المقاصد والأهداف تُرَى مثالية فإن الفشل المستمر في تحقيقها جديرٌ بأن يؤدي إلى القذف بالتهم وادعاء أن "شخصًا ما يهز القارب!" – لا بد أن هناك تخريبًا، أو تدخلاً أجنبيًا، أو قيادةً فاسدة (إذ إن جميع التفسيرات الممكنة التي تَستثني الثورةَ نفسَها تتضمن بالضرورة خبثًا وشرًا من جانب شخصٍ ما). حينئذ تبرز ضرورةُ كشف المذنبين واستئصال شأفتهم. ومَن طلبَ مذنبين وَجَدَ مذنبين! وهنا يكون النظام الثوري قد غرق إلى الأذقان في دمٍ غليظ.(*)

(*) Popper K. R., "The Open Society and Its Enemies", Vol. 2, fifth edition, Princeton University Press, 1966, pp. 158-168.

ولعل الترياقَ الشافى من هذا الأنالوجى الدموى هو أنالوجى مثلُه! هو تشبيه "قارب نويرات" (نسبة إلى أوتو نويرات Otto Neurath من حلقة فينا):

"إن البشرَ أشبهُ ببحارةِ سفينةٍ فى عُرض البحر: يمكنهم أن يُصلِحوا أى جزء من السفينة التى يعيشون فيها ويمكنهم أن يصلحوا السفينة كلها جزءًا جزءًا؛ ولكن لا يمكنهم أن يصلحوها كلها دفعةً واحدة"

أمثلة أخرى للتفكير التشبيهى :

- من العبث أن نبذل كل هذا الجهد فى محو أمية الكبار. ذلك أنه لا فائدة، بعد كل شىء من البكاء على اللبن المسكوب.
- التعليم المدرسى كالعمل التجارى يحتاج إلى استراتيجية تنافسية تؤدى إلى تزايد الربح.
- يجب أن نسمح للطلاب باصطحاب كتبهم فى الامتحانات. ألا يستخدم المحامون المذكرات القضائية فى مرافعاتهم، ويستشير الأطباء الأشعة فى جراحاتهم؟ (لاحظ أن العنصر الجوهرى فى هذه الأفعال مختلف: فالمرافعة والجراحة هى "تطبيق" للمعرفة، أما الامتحانات فمن المفترض أنها "اختبار" للمعرفة).
- المسدس كالمطرقة؛ كلاهما أداةٌ معدنية من الممكن أن تستخدم فى القتل. فلماذا يباح تداول المطارق ويُحظَر تداول المسدس؟
- المستخدَمون أشبه بالمسامير؛ فالمسامير لا تؤدى فعلها ما لم تطرقها على رأسها. وكذلك المستخدَمون.
- العلم أشبه بالكعك؛ يَحْسُنُ أن تصيبَ منه جزءًا يسيراً، فإذا أسرفتَ فى تناوله أصاب أسنانك بالتسوس. كذلك العلم إذا أوغلتَ فيه وتبحرتَ أصاب عقلك بالجنون.

- " الإنسان ليس جزيرة (منعزلة).. إلخ". (دائمًا ما يُستخدَم هذا الأنالوجى لتبرير رؤية جمعية أو تمرير أجندة اشتراكية أو شمولية. ولكن هذا بالطبع ما يكونه كل إنسان على التحقيق: الفرد فرد، يولد وحده ويموت وحده ويملك وحده امتياز الدخول إلى عالمه الذاتى الخبروى)

- تدفق الكهرباء أشبه بتدفق الماء؛ فكلما زاد سُمك السلك زاد التيار الكهربى المتدفق.

- العقول كالأنهار؛ قد تكون عريضة (المجال)؛ وكلما كان النهر أعرض كان أكثر ضحالةً. إذن كلما زاد العقل اتساعًا زاد سطحيةً أو ضحالة!

- إن لدينا قوانين نقاء الأطعمة، وقوانين سلامة الأدوية، فلماذا لا تكون لدينا قوانين تضمن نقاء أفلام السينما والروايات والقصص؟

- الشعر أرقى من الرواية؛ لأن قارورة عطر واحدة أثمن من مائة شتلة من الفل. (يمكنك بنفس التشبيه أن تقول: نعم ولكن النزهة فى مشاتل الفل هى أبهى وأبهج من حبسه فى قارورة!)(*)

كُتَّابُنا والتفكير التشبيهى

من المؤسف حقًّا أن كثيرًا من كُتَّابِنا ومتحدِّثينا الأكثر رواجًا وإقناعًا لا يفعلون فى أغلب الأحيان أكثر من أن يُلبِسوا أفكارَهم أثوابًا من الاستعارات والتشبيهات. قلنا

(*) أخذ الأستاذ العقاد بهذا الرأى فى تفضيل الشعر على الرواية؛ وأتى فى ذلك بتشبيهٍ معجِب إذ يقول (فى كتابه "فى بيتى") : ".. وما أكثرَ الأداةَ وأقلَّ المحصولَ فى القصص والروايات.. إن الأداةَ فى الشعر موجزة سريعة والمحصول مسهبٌ باقٍ، ولكنك لا تصل فى القصة إلى مثل هذا المحصول إلا بعد مرحلة طويلة فى التمهيد والتشعيب، وكأنها الخرنوب الذى قال التركى عنه، فيما زَعَمَ الرواةُ، إنه قنطار خشب ودرهم حلاوة!". ومن عجيب المصادفات، رغم ذلك، أن للأستاذ العقاد بيتين من الشعر هما بمثابة ردٍّ على هذا التشبيه نفسهِ بتشبيهٍ آخر: يقول الأستاذ العقاد (مُستقصيًا المعنى كعادته):

ليست خلاصةُ كلِّ شيءٍ غُنْيَةً ... عنهُ وإن كانت خلاصةَ ماهرِ

فالشهدُ وهو خلاصةُ الأزهارِ لا ... يُغنِى العيونَ عن الربيعِ الزاهرِ

إنه لا بأس بذلك البتة، وربما يكون ضرورة لتيسير الفهم وتقريب التناول. غير أنهم يظنون أن مهمتهم انتهت عند هذا الحد، ويتوهمون أنهم بهذه التشبيهات والمماثلات قد فرغوا من عبء البرهان وأثبتوا نظرياتهم بما لا يدع للشك مجالاً! الحق أنهم إذا أثبتوا شيئًا فإنما يثبتون أنهم مازالوا سادرين فى التفكير البدائى "قبل المنطقى"-pre logical من حيث الولوع بمجرد الشبه وأخذه مأخذ البيِّنة.

مَن طَلَبَ شَبَهًا وَجَدَه.. ثمة دائمًا وجهُ شبهٍ بين أى شيئين من أشياء العالم مهما تباينا واختلفا. وإذا أدمن المرءُ التفكير التشبيهى فلن يُعجِزَه أبدًا أن يجد لكل شيء شبيهًا وأن يُقَيِّض لكل شيءٍ مثلاً.

ومن طرائف ذلك أن لويس كارول قدم لقرائه لغزًا عبثيًا لا معنى له: ما وجه الشبه بين الغراب والمكتب؟!! غير أنه لم يعدم من بين قرائه من وجدوا أوجهَ شبهٍ كثيرةً!! منها ما كتبه إليه أحدُ القراء من أن وجه الشبه بين الغراب والمكتب هو أن إدجار ألان بو كتبَ عن الأول وعلى الثانى!! (wrote on both).

الفصل الثامن عشر

مهاجمة رجلٍ من القش

straw man fallacy

مَن يَدرِى لعل التاريخ، الذى كتبه المنتصرون،
قد حَجَب عنا نصفَ الحقيقة
واستبدلَ به رجالاً من القش!

هى تلك المغالطة العتيدة التى يَعمِد فيها المرءُ إلى مهاجمة نظريةٍ أخرى غيرِ حصينة بدلاً من نظرية الخصم الحقيقية. وذلك تحت تعميةٍ من تشابه الأسماء أو عن طريق إفقار دم النظرية الأصلية وتغيير خصائصها ببترها عن سياقها الحقيقى أو بإزاحتها إلى ركن قَصِىٍّ متطرف. ويشبه هذا الجهدُ العقلى العقيم، سواء حسنت النية أو ساءت، أن يكون رميًا لخصمٍ من القش بدلاً من الخصم الحقيقى، أو قصفًا لكتيبةٍ هيكلية بدلاً من قصف الكتيبة الحقيقية!! إنه لأيسرُ كثيراً أن تنازِلَ رجلاً "دُميةً" من أن تُنازِلَ رجلاً حقيقيًا.

وتأتى التسمية من تلك الممارسة التى كانت شائعةً فى العصور الوسطى، والتى تُستخدم فيها دميةٌ على هيئة رجل محشوةٌ بالقش لكى تمثل "الخصم" فى ممارسة المقارعة بالسيف. وما تزال صيغٌ من هذه الممارسة شائعةً حتى الآن، وبخاصة فى مواقف التعبير عن الاحتجاج والكراهية وفى مظاهرات المناهضة السياسية.

تحمل هذه الممارسة مسحةً من بقايا الفكر البدائى قبل المنطقى؛ حيث يلتئم الرمز والمرموز إليه، ويقوم الجزء مقام الكل، ويُعامَل اسمُ الشخص أو خصلة من شعره أو أى أثر من آثاره كأنه بديل له(*).

تتم مغالطة رجل القش بأن يَجْبُلَ المحاورُ حجةً هشةً سهلةَ المنال غير حجة الخصم الحقيقية وينسبها إلى الخصم، ثم يُعْمِل فيها مَعاوِلَ الهدم والتقويض، فيضفى انطباعًا زائفًا بأنه نجح فى التفنيد، ويعلن انتصارَه على خصمه. قد يتم ذلك عن عمدٍ فيكون حيلةً قذرةً وينم على الخبث وسوء النية والافتقار إلى الأمانة فى الجدل؛ وقد يتم عن غير عمد فينم على الغفلة أو الجهل ويكون، فى كل الأحوال، مَضيعةً للوقت وإهدارًا للجهد فى معركة وهمية غير ذات صلة وتُرَّهَةٍ خارجة عن الموضوع!

ثمةَ طرائقُ مختلفةٌ لاتخاذك رجلَ القش: فقد تُقَدِّم الجوانبَ الأضعفَ من نظرية الخصم وتتظاهر بأنك تُفَنِّد النظرية من كل جوانبها؛ وقد تقدم حجة الخصم فى صورة مضَعَّفة أو مبَسَّطة؛ وقد تشوه أو تحرِّف حجةَ الخصم أو تسيء تمثيلها؛ وقد تختلق شخصًا وهميًا تنسِب إليه أقوالاً وأفعالاً وعقائدَ وتتظاهر بأنه يمثل الطائفة التى ينتمى إليها الخصم.

(*) "من الأمثلة على التئام الرمز والمرموز إليه، معاملة اسم الشخص كجزء جوهرى منه – كأنه بديل له. فلدينا عدد من الأقداح الفخارية الكبيرة نقش عليها ملوك "المملكة الوسطى" المصريون أسماء القبائل المعادية لهم فى فلسطين، وليبيا، والنوبة، وأسماء حكامها، وأسماء بعض المتمردين المصريين. كانت هذه الأقداح تُحَطَّم فى احتفال مهيب، قد يقام أثناء جنازة سلف الملك. والغاية من هذا الطقس مذكورة بصراحة: إنها الدعوة بالموت على هؤلاء الأعداء كلهم؛ لأنهم بعيدون عن قبضة الفرعون. غير أننا إذا دعونا تحطيم الأقداح طقسًا رمزيًا، فاتنا مغزاه. فقد كان المصريون يشعرون أنهم يُلحِقون بأعدائهم أذى حقيقيًا حين يحطمون أسماءهم. فيضيفون بعد أسماء الخصوم، الذين يعددونهم ويدعون عليهم بالموت، عبارات كهذه: "كل فكرٍ مؤذٍ وكل كلام مؤذٍ وكل أحلام مؤذية وكل خطط مؤذية وكل صراع مؤذٍ" إلخ. فكتابة هذه الأمور على الأقداح التى ستحطَّم تنال، فى اعتقادهم، من قدرتها الفعلية على إيذاء الملك أو تقليص سلطانه". (هـ. فرانكفورت وآخرون : ما قبل الفلسفة – الإنسان فى مغامرته الفكرية الأولى، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، الطبعة الثالثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٢، ص ٢٥)

لم تَرِد مـغـالطةُ رجل القش فى تراث أرسطو على نحـو صـريح. غـيـر أنه أوصَى بالأمـانة والإخـلاص fidelity فى تمثيل آراء الآخرين على حقيقتها، واعتبَرَها شرطًا للجدل الحقيقى، وحَذَّرَ من الاكتفاء بإسباغ مظهر الآراء الأخرى دون جوهرها، واعتَبَرَ ذلك ضـربًا من السـفـسطة. تدل هذه الوصـايا الأرسطية على أنه أدرك مغـالطة رجل القش وميَّزَها، وإن لم يُدْرِجْها فى قائمة المغالطات ويسبغ عليها اسمًا.

التحريف بالتجزىء

قد تتناول جزءًا صـغيرًا من موقف الخصم، فتأخذه بأكثر من حجمه، وتفْرِط فى تعميمه فتعامله كما لو كان ممثلاً لموقفه الكلى، بينما هو لا يمثل شيئًا ذا قيمة. وإنه لتبديدٌ للطاقة وإجهاضٌ للجدل، فضلاً عن كونه إجحافًا ومغالطة، أن تتناول بالتفنيد جانبًا هامشيًا من جوانب المذهب أو صيغة ضعيفة مفرطة التبسيط لموقف الخصم. إن الأيديولوجيات التى كسبت أنصارًا ودامت حِقَبًا هى، على الأرجح، أنساقٌ تتمتع بمزايا معينة عليك أن تقفَ عليها وتكتنهَها، حتى يتسنى لك أن تفندها فى جوانبها القوية. فالمسألة الجديرة حقًا بالتناول إنما ينبغى التماسُها فى هذه الجوانب القوية وعلى هذا المستوى الرفيع.

التصنيف والتنميط

يميل العقلُ البشرى بطبيعته إلى تصنيف الأشياء وتنميطها (حتى لَيغدو ذلك شرطًا من شروط الإدراك). لأن العقل لا مَحِيدَ له عن أن يفرض نظامًا على الفوضى ويضـفى مـعنى على الشـواش. ربما لذلك يميل المرءُ أحـيـانًا إلى أن يصنفَ الخـصـمَ تصنيفًا خاطئًا ويتوسَّم فيه غيرَ ما هو، ويُسقط عليه من تصنيفاته الفئوية الخاصة ما لا يناسبه. وكأن المرء هنا يكشف عن ذات نفسه أكثر مما يكشف عن الآخر، ويَسْرِى عليه

قول سبينوزا "إن ما يقوله بولس عن بطرس يُخبِرنا عن بولس أكثر مما يخبِرنا عن بطرس".

وقد يميل المرءُ إلى "التنميط" stereotyping فيدمغ الخصم بصفاتٍ معينة تميز الجماعة أو الطائفة التى ينتمى إليها، بينما الخصم يرى رأيًا يحيد كثيرًا عن تلك الطائفة أو يذهب مذهبًا يمثل جناحًا معينًا منها، والذى قد يختلف اختلافًا مهمًا عن آراء الأجنحة الأخرى من نفس الطائفة.

رجل القش المتطرف

ويجرى مجرَى التبسيط أن ترمِي الخصم بالتطرف وهو معتدل، وبالإطلاق وهو نسبى. والحق أن أمثل النماذج لرجل القش هو أن تهَوِّل من موقف الخصم وتزيحه من الأواسط إلى الأطراف. ذلك أن المواقف المتطرفة أسهل فى التفنيد لأنها لا تسمح باستثناءات. انظر إلى هذا الطيف من المواقف:

كل أ هو ب

معظم أ هو ب

بعض أ هو ب

بعض أ ليس ب

معظم أ ليس ب

لا أحد من أ هو ب

الأطراف هنا هى: "كل أ هو ب" ، "لا أ هو ب". هذه المواقف هى الأيسر تفنيداً، ولا يلزم لتقويضها إلا "مثال مضاد" counterexample واحد. مثل هذه القضايا الكلية هى عادة كاذبة (ما لم تكن أ ، ب مرتبطتين بالتعريف)، وذلك بحكم طبيعة العالم

وتكوينه. وتزداد صعوبةُ هذه القضايا في التفنيد تدريجيًا حتى تبلغ أوج الصعوبة في أوسطها: "بعض أ هو ب" ، "بعض أ ليس ب". فلكي تفند إحدى هاتين القضيتين يتعين عليك أن تثبت أحد الطرفين: "لا أ هو ب" أو "كل أ هو ب" على الترتيب. المتطرفون إذن هم القائلون بمذاهب تبدأ بـ "كل" أو "لا أحد". فالمتطرفون في قضية الإجهاض مثلاً هم القائلون: "كل إجهاض مباح" أو "كل إجهاض حرام". من هنا دأبت مغالطة رجل القش على مهاجمة الأفكار أو الاتجاهات في صورتها المتطرفة حيث هي أضعف ما تكون.

قد يكون رأي الخصم "تعميمًا مقيدًا" (أو مشروطًا) qualified generalization فتأخذه أنتَ مأخذَ "التعميم المطلق" absolute generalization، لكي تسهِّل على نفسك مهمةَ تفنيده بذكر مثال مضاد أو بضعة أمثلة. إنك إذن تقع في مغالطة "إغفال المقيِّدات" secundum quid(*)

وقد يكون رأيُ الخصم معتدلاً فتزيحه أنت إلى حافة الشطط والغلو التي كثيرًا ما ينقلب عندها الرأي إلى مَسخٍ غريب منفِّر (أو شيطان demon) هو أبعد ما يكون عن الموقف المتوازن الذي يتخذه الخصم: فينقلب "التحرر" مثلاً إلى "تحلل"، أو ينقلب "التحفظ" إلى "تزمت"، أو ينقلب "الحزم" إلى "قسوة"، أو تنقلب "الحصافة" إلى "جبن".. إلخ. يُطلَق على هذه العملية، أي عملية قلب الموقف المعتدل إلى موقف متطرف، اسم "شَيطنة" demonization (إضفاء الصبغة الشيطانية). ويمكن بالتالي تسمية هذه المغالطة الفرعية اسم "straw demon" (شيطان القش).

كان دور رجل القش تاريخيًا هو أن يُهَوِّل مخاطر التغيير! يُذَكِّرنا التاريخ أن بضعةً من المفكرين والمصلحين يدعون إلى التحرر والتسامح قد تم سحقهم بفيالقَ

(*) هي معاملة القاعدة ذات الاستثناءات المقبولة على أنها مبدأ مطلق (أو العكس: أي معاملة الاستثناء معاملة القاعدة) . انظر تفصيل هذه المغالطة في موضعها.

جرارة من "رجال من القش" يدعون إلى الفوضى والإباحة وتدمير المجتمع.. إلخ. وكان دور رجل القش سياسياً، وما يزال، هو تأليب الرأى العام بالتعبير الخاطئ عن مواقف الخصوم السياسيين أو زعماء الأحزاب الأخرى.

كيف نحدد موقف الخصم الذى سنتناوله بالتفنيد؟

علينا، مثلما أوصى أرسطو من قبل، أن نمثل رأى *الآخرين* تمثيلاً أميناً وكاملاً وجوهرياً: ولن يتسنى ذلك إلا بأن نحدد قائمة *التزامات الخصم بكاملها*، تلك الالتزامات التى ألزم نفسه بها فى الحوار، والمسجَّلة عليه كتابيًا أو صوتيًا من خلال أسئلته أو إقراراته التى طرحها طوال الحوار. المشكلة هنا مشكلة عملية: كيف يمكنك أن تثبت أن موقفًا ما لخصمٍ ما قد تم تحريفه فى حالةٍ معينة؟ الأمر هنا يتوقف على تأويلِ ما عناه الخصم بقوله، واستشفاف موقفه الحقيقى فى مسألة معينة؛ وهى مهمة صعبة أحيانًا بسبب تعدد التأويلات الممكنة.

من الأفضل بطبيعة الحال أن يتم التسجيل الدقيق لمجريات الحوار: صوتًا وكتابةً وشهوداً؛ وذلك لِتَجَنُّبِ عَثْرة "أنت قلتَ/لا لم أقل". غير أنه ليس من الميسور فى المجالات اليومية المعتادة أن نتجنب هذه العثرة، وذلك لقصور الذاكرة البشرية من جهة، ولِتَفاوت الفهم وتأويل الأقوال من جهةٍ أخرى.

مبدأ الإحسان principle of charity

وهنا تتجلى أهمية المبدأ المسمى "مبدأ الإحسان" فى تأويل النصوص وفهم الآخرين: فحيثما *تَشَعَّبَت التأويلاتُ* المكنة لقول الخصم فإن من الحكمة أن تفسر الشك لمصلحة الخصم وأن تتناول التأويل الأوجه والأقوى بالنقد والتفنيد.

وقد استنَّ كارل بوبر فى مواجهة خصومه الفكريين مبدأ جديداً يعد فى ذاته درسًا من أهم الدروس المنهجية المستفادة من كتاباته. لقد دأب المفكرون طوال تاريخ الجدل والمناظرة على مهاجمة النقاط الضعيفة فى دعوى الخصوم، لا نستثنى من ذلك أعتى المجادلين من أمثال فولتير. غير أن لهذه الطريقة عيوبًا كبيرة: ذلك أن لكل دعوى جوانب قوية وجوانب أضعف. ومن البديهى أن جاذبية أى دعوى إنما تكمن فى جوانبها القوية دون الضعيفة. ولذا فإن مهاجمة الجوانب الضعيفة فى النظرية قد يحرج دعاتها ولكنها لن تقوض الجوانب القوية التى يرتكزون عليها بدرجة أكبر. لعل هذا هو السر فى أننا قلما نجد الناس تتنازل عن آرائها بعد أن تخسر جدلاً. فالأغلب أن تؤدى مثل هذه الخسارة فى النهاية إلى تقوية موقفهم؛ إذ تدفعهم إلى التخلى عن الجوانب الضعيفة من نظريتهم أو تقويتها.

أما بوبر فقد كانت طريقته هى أن يواجه نظرية الخصم من زاويتها القوية؛ بل يحاول تقوية نظريته أكثر فأكثر وسد ثغراتها وتزويدها بمزيد من الحجج والدعامات قبل أن يشرع فى شن هجومه. إنه يريد أن يجعل من خصمه "خصمًا جديراً بمهاجمته"، وأن ينقَضَّ على نظريته وهى فى أوج قوتها وجاذبيتها. إنها طريقة مثيرة وشائقة؛ ونتائجها، إذا ما نجحت، قاصمةٌ مدمِّرة. ومن الصعب أن تقوم لنظريته قائمة بعد أن يكون كل ما لديها من ذخر ومصادر إمداد قد تم تدميره(*).

أمثلة لمهاجمة رجل من القش

(١) السيد النائب يطلب خفض الزيادات المخصصة للخدمات الصحية بنسبة ٢٠٪. ولكن كيف لنا أن نبخس الصحة نصيبها من اهتمامنا ونحرم أطفالنا

(*) نستثنى من ذلك نقد بوبر لهيجل؛ وهو نقد غير منصف، ويعج بالقدح الشخصى والسب المقذع. راجع كتابنا "كارل بوبر" – مائة عام من التنوير ونُصرة العقل، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٢، ص ١٥١ وما بعدها.

من حقهم فى التطعيم والرعاية. (قد لا نوافق النائب على اقتراحه، ولكن لاحظ أن الخفض الذى يطالب به النائب هو خفض فى زياداتٍ مضافة وليس خفضًا فيما هو قائم، وأن النسبة المطلوب خصمها (الخمس) لا تبلغ أن تكون "بخسًا"، وأن محصلة الاقتراح لن تفضى إلى النتيجة الكارثية المزعومة (لا تطعيمات، لا رعاية)، وأن النسبة المدخرة قد تقيَّض لمرفقٍ آخر ليس أقل أهمية من الصحة، كالتعليم والبحث العلمى .. إلخ).

(٢) "إن التصويت لجولد ووتر إنما هو تصويت للحرب النووية" (ليندون جونسون فى حملته الانتخابية عام ١٩٦٤).

(٣) "كيف تحظى نظرية أينشتين بكل هذا القبول وهى تذهب إلى أن كل شىء مباح وأن الأخلاق إنما هى شأن نسبى يختلف من بيئة ثقافية إلى أخرى". (لاحظ الخلط بين نسبية أينشتين theory of relativity الفيزيائية الخالصة والنسبية، أو النسبوية، الأخلاقية moral relativism التى تتحدث عن المجال الأخلاقى والقيمى ولا صلة لها بمجال الفيزياء من قريب أو بعيد).

(٤) كثيراً ما تؤخذ المادية الحديثة، والتى تسمى أحياناً "المذهب الفيزيائى" physicalism بجرائر المادية الكلاسيكية الساذجة القديمة.

(٥) وكثيراً ما تُفَنَّد الوضعية المنطقية logical positivism تفنيداً لا ينطبق إلا على وضعية كونت.

(٦) وكثيراً ما يؤخذ المذهب الشكلى عند أمثال كلايف بِل على أنه تركيز على الشكل على حساب المضمون، بينما تعنى نظرية كلايف بِل شيئًا مختلفًا تماماً ويكاد يتجه إلى العكس!!

(٧) – تنبغى زيادة الدعم للأمهات المطلقات العاطلات عن العمل خلال العام الأول من الولادة حتى يتسنى لهن تقديم الرعاية اللازمة لمواليدهن.

- إنك تطالب بأن تنال بضع طفيليات عاطلات متبطلات ما طاب لهن من عَرَق دافعى الضرائب من المواطنين العاملين الشرفاء.

الاستخدام المشروع لرجل القش

أحيانًا ما تُظهرنا الصورةُ الكاريكاتورية على مميزاتٍ وعيوب لم نكن نلحظها فى الشخص الأصلى. وكذلك يفعل التقليد الفكاهى للشخصيات والمحاكاة الأسلوبية الساخرة للمؤلفين (الباروديا parody) وليس ما يمنع أن يستعين المرء بصورة هزلية كاريكاتورية للرأى الذى سوف يتناوله بالتحليل والنقد، مادام يعلن ذلك إعلانًا ويُسلِّم بأن هذا ليس رأى الخصم على وجه الدقة ولكنه كاريكاتور فيه تضخيم لعيوبٍ دقيقة ربما تلطُف على ملاحظة القارئ العادى. إنه يقدمه على سبيل التوطئة، لكى لا يلبث أن يسدل عليه الستار دون طعن ويركز الضوء على هذه النقاط الدقيقة بحجمها الطبيعى وبكل الأمانة فى التمثيل والطرح. فى هذه الحالة يكون رجل القش تقنية بيداجوجية، أو وسيلة إيضاح مسعِفة، تَبْتَغِى المزيدَ من الدقة فى التمثيل، وتتبرأ من التحريف والتشويه ولَىِّ الحقائق.

* * *

ومهما يكن من شىء فإن مهاجمة خصم من القش بدلاً من الخصم الحقيقى هى فى أغلب الأحيان ضرب من الغش والجبن، وخروج عن الموضوع، ومضيعة للوقت والجهد، ومحاولة بائسة لإحراز انتصار رخيص، تنم بالأحرى عن افتقارٍ إلى انتصارات حقيقية غير مختلَقة، وتعَطُّشٍ إلى نجاحات واقعية غير موهومة.

كن رجلاً إذن، ولا يَكُنْ دَيْدَنُك أن تنسج الدُّمَى وتحشوها قشًا وتُوسِعها لكماً، متحاشياً بين ذلك التقاءَ الخصوم وبأسَ الرجال:

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ طلبَ الطعنَ وحدَه والنزالا

كن محسنًا لخصمك، واعرِضْ حجتَه فى أدق صورة وأقواها، ثم قَوِّضْها تَكُنْ قد فَعَلْتَ شيئًا يُذْكَر.

الفصل التاسع عشر
مغالطة التشيىء

reification ; hypostatization

substantialization of abstracta

رِكْبَةُ التشييء

فراح يفك محركَ سيارتِه، بحثًا عن العشرين حصانًا

التى هى "قوة المحرك"!!

أراد جحا أن يتزوج، فبنى دارًا تتسع له ولأهله. وطلبَ من النجار أن يجعل خشبَ السقوفِ على أرض الحجرات ويجعل خشبَ الأرض على السقوف، فراجعه النجارُ دَهِشاً، ولم يفهم ما يعنيه. قال جحا: "أما علمتَ يا هذا أن المرأة إذا دخلت مكانًا جعلت عاليَه سافلَه؟ اقلبْ هذا المكانَ الآن يعتدلْ بعدَ الزواج".

فى هذه النادرة الكوميدية "يُشَيِّئُ" جحا تعبيرًا بيانيًا رائجاً، ويُحَمِّل استعارةً بريئةً ما لا تحتمل ويأخذها بغير ما قصدَتْ إليه. وفى هذه النادرة تضخيمٌ كاريكاتورى لمغالطةٍ شائعة نقع فيها جميعاً، ربما كلَّ يوم؛ ونبتلعها جميعاً، ربما كلَّ لحظة؛ حين تأتى فى صورةٍ أشَدَّ خَفاءً، وتكتسى برداءٍ أكثَرَ اعتيادًا وإلفاً.

"التشييء" reification/ hypostatization هو أن تُعامِلَ المجردات أو العلاقات كما لو كانت كياناتٍ (كائنات) عينية concrete entities، أو أن تَنْسِب وجودًا حقيقيًا للتصورات العقلية أو البناءات الذهنية.

لقد بَرَعَ بنو الإنسان حقًا فى خلق تصورات مجردة ومفاهيم ذهنية تساعدهم على حَصْر الأشياء والأحداث، وتصنيفها واختزالها اختزالاً يتيح لهم من الاقتصاد الذهنى ما يمكِّنهم من الإحاطة بأشياء العالم وتناولها. غير أن المأساة تكمن فى أن هذه

العملية قد تجرى أيضًا فى الاتجاه العكسى: أى معاملة التصور المجرد كما لو كان "شيئًا" حقيقيًا. حين يحدث ذلك نكون بإزاء مغالطة منطقية عتيدة مُبَيَّتة فى صميم العقل البشرى ذاته وفى طريقة أدائه لوظيفته.

لا غرو تُعَدُّ "مغالطة التشيىء" reification من أهم المغالطات وأكثرها شيوعًا. وإن أنساقًا فلسفية بكاملها، ومذاهب سياسية واجتماعية وأخلاقية، ونظريات علمية، لَتقوم على هذه المغالطة الكبيرة وتتأسس عليها. وإذا كان للفلاسفة مطلقُ الحرية فى أن يقرروا أى الأشياء يُعَد حقيقيًا وأيها غير حقيقي، فليس من حقهم أن يُرَحِّلوا تشييآتهم إلى الحقول الأخرى من البحث ملحِقين بها اضطرابًا وخَلطًا كان منه بُد. يَعِجُّ تاريخُ العلم والاجتماع والسياسة، وحتى الرياضيات، بِعَثَرات كبرى عطَّلت مسارَه حِقَبًا، كنتيجة لإلحاح المفكرين فى طلب "تعريفات حقيقية" تقرر ما "تكونه" الأشياء استنادًا إلى "ما ينبغى أن تكونه" فى تصورهم، وإنكار أصقاع كاملة من البحث بوصفها غير حقيقية أو غير صالحة.

للتشيىء رغم ذلك مجالُه الذى يُستخدَم فيه، عن قصد وإدراك، لخدمة الحقيقة والتعبير عن الواقع. ذلك هو المجال البيانى البلاغى كما يتجلى فى ألوان الاستعارة والمجاز والتشخيص، وهى وسائل لغوية شديدة الأهمية والجدوى فى الأدب والشعر (بل فى العلم نفسه فى بعض الأحيان!) وبعيدة عن المغالطة بحكم طبيعة التعبير ذاته وموقفنا فيه ومَأخَذنا له؛ على ألا نمتد بتلك الاستعارات البريئة إلى غير مقصدها ونَحْمِلَها على غير مَحْمَلِها.

الحق أن التشيىء ليس أكثر من استخدام "استعارة" metaphor، غير أنه، حين يكون مغالطة، يأخذ الاستعارة بعيداً ، أو يأخذنا بها، حتى ننسى أنها استعارة ونبدأ فى الاعتقاد بأن كياناتنا التصورية المجردة لديها الخصائص العيانية التى أضفيناها عليها على سبيل الاستعارة. إن طريقتنا فى وصف الشيء لها بالغ الأثر فيما نعتقده عن الشيء. يعنى ذلك أن انطباعنا عن الواقع تُشَيِّده، إلى حد كبير، اللغةُ التى

نستخدمها في وصف الواقع. هكذا تهيب بنا دراسة "التشييء" أن نتوخى الحذر في طريقتنا في وصف الأشياء، لئلا نشرع، دون أن ندرى، في تصور أن وصفنا يحوى ماهيةً موضوعيةً خارج اللغة ذاتها.

من الحالات النمطية للبارانويا، أو الفصام البارانوى، أن يعانى المريض من اعتقادٍ راسخٍ بأنه مضطهَدٌ من قِبَلِ إخوته وأقاربه وزوجته وجيرانه وأصدقائه وزملاء عمله. وقد يكون هناك شيء من الاضطهاد الطفيف كرد فعل لسلوكه العدوانى تجاههم، وقد يكون هؤلاء انفضُّوا عنه نتيجة شكوكه واضطرابه. غير أن المريض لا يعنى بـ "الاضطهاد" هنا مجرد وصف لسلوك هؤلاء، ولا "يرده" إلى مجموع استجاباتهم السلوكية تجاهه؛ بل "يُشَيِّئ" reify, hypostatize الاضطهادَ ويوقن بأن هناك "قوة سرية" من وراء هذه الاستجابات السلبية. ليس "الاضطهاد" عنده مجرد "فئة" من الأحداث يصنِّف تحتها سلوكيات الآخرين حياله، بل هى "كيان حقيقى" مستقل عن العالم يقبع من وراء هذه السلوكيات ويسببها بطريقة سرية. وما الإخوةُ والأقارب والزوجة والجيران وزملاء العمل إلا عملاءُ لهذه "القوة". إنها كيانٌ واقعى أفلاطونى قائم، يتمتع بوجودٍ حقيقى ووضعٍ أنطولوجى.

إن التشييءَ ضربٌ من الجنون العقلى سهل الانكشاف فى حالة البارانويا، غير أنه أصعبُ انكشافًا فى الحالات الأكثر اعتياداً وإلفاً، والتى نصادفها كل لحظة فى حياتنا اليومية وفى حواراتنا وقراءاتنا ومشاهداتنا التليفزيونية.

يُشَيِّئُ العرَّافون وزبائنُهم مفهومَ "المستقبل" وكأنه "شىءٌ" يمكن أن يقبع فى المرمدة أو الفنجان أو كرة البلور، أو كأنه نوع من البلاد قائم هناك حيث تجرى الحوادث التى سوف يُعاد إنتاجُها على هذه الأرض حين يأتى أوانها. إنها هناك تمكن رؤيتُها على نحوٍ غامض فى الكف وثفالة البن وأوراق اللعب. وما عليك سوى انتظار وصولها مثلما تنتظر خطاباً هو فى البريد بالفعل.

يقول هيجل:

"الدولة هى الفكرة الإلهية كما توجد فى الحاضر... إنها القوة المطلقة على الأرض؛ إنها غاية ذاتها وموضوع ذاتها. إنها الغاية النهائية التى لها الحق الأعلى على الفرد"

ورغم أننا يمكن أن نفهم هيجل فهمًا استعاريًا يبرِّئه من التشيىء، إلا أن كلماته صارت تُفهم فهماً تشييئيًا لدى ملايين البشر من مختلف الاتجاهات: منها الماركسي، ومنها النازى وغيره من ضروب الشوفينية البغيضة. وصارت تعنى أن الأمة غايةٌ عُليا بمعزلٍ عن رخاء الفرد وصالحه؛ بمعنى أن هناك كائنًا عملاقيًا قائمًا يسعد ويشقى ويصح ويمرض يُقالُ له "الأمة" نضحى من أجله بالأفراد ونذبحهم تَقْدِمةً لجلاله.

يقول سلفادور دى مادارياجا Salvador de Madariaga فى تعليقه على هذا الاتجاه: "كلا وألف كلا؛ الغاية العليا هى الفرد، وينبغى ألا تكونَ للمؤسسات الجمعية سلطةٌ عليه إلا بقدر ما يلزم لنموه الفردى الخاص"(*).

وكثيراً ما يتحدث هواةُ السيكولوجيا عن "الأنا" ego و "الهو" id كأنهما أنفسٌ بديلة تتناوب الأمر داخل الرأس (مثل "الشبح داخل الآلة" the ghost in the machine على حد تعبير جلبرت رايل ساخراً من ثنائية ديكارت).

ويُشَيِّئُ أغلبُ الناسِ الحبَّ وكأنه كائنٌ شبَحيٌّ يتلبس المُحِبَّ فيُسَهِّده ويُبليه. الحب ليس "جوهراً" substance بل "علاقة" relation؛ ليس "كائناً" بل انسجام كائنَين. ولعل هذا التشيىءَ هو ما يجعل المحِبَّ يستسلم للحب ولا يرجو مَهربًا من حبائله، ظنًا منه أن الأمر برُمَّته قَدَرٌ لا فكاك منه. لقد سكن الحبُّ قلبَه وأقام به فكيف له أن يطرد هذا الساكنَ المقيم؟! ويظل المحب يُسقط نموذجَه الأنثويَّ المثالى على محبوبته الحقيقية "الأرضية" فيجعل منها إلهًا لا وجود له إلا فى خياله. حتى إذا ما اقترب منها اقترابًا

(*) Sontag and Beddie, Nazi-Soviet Relations. New York: Didier, 1948, p. VIII.

واقعيًا خاب أملُه وأَخْنَت عليه الحقيقة، وسقط على صخرة الواقع فشَجَّتْه بقدر ما علا بالمثال. وصدق فيه قول المتنبى:

مما أضرَّ بأهلِ العِشْقِ أنهمُ هَوُوا وما عرَفوا الدنيا وما فطِنوا
تَفْنَى عيونُهمُ دمعًا وأنفسُهُمْ فى إثْرِ كلِّ قبيحٍ وجهُهُ حَسَنُ

أمثلة أخرى(*)

(١) "الطبيعة تبغض الفراغ". (لاحظ أن الطبيعة لا تبغض شيئًا).

(٢) "أغراض الطبيعة دائمًا نبيلة، ومن ثم ينبغى علينا أن نقبل بالطبيعة". (لاحظ أن الطبيعة لا أغراض لها).

(٣) "وحدها القوانين العادلة ما يداوى آلام المجتمع". (القوانين لا "تداوي" شيئاً، و "المجتمعات" لا تتألم).

(٤) "الصناعة خطر على الطبيعة والمجتمع" (الصناعة ليست "شيئاً"، ولا تجترح أى فعل، والطبيعة والمجتمع ليسا "أشياء" لكى يُفعَل بها أى شيء. بعض الصناعات قد تسببِّ ضرراً ببعض الأشياء الطبيعية أو بعض الأشخاص فى مجتمعٍ ما؛ غير أن معاملة أيٍّ من هذه ككيانات، حتى لو كانت كيانات جمعية، هى مغالطة.

(٥) ماذا تساوى الاعتبارات الشخصية إلى جانب حاجات المجتمع، ومصير الأمة، والحفاظ على الثقافة؟ (لاحظ أنه مادام "المجتمع" لا حاجات له، و"الأمم" لا مصائر لها، وليس هناك "شيء" من قبيل "الثقافة" لكى تحفظه، فإن الاعتبارات الشخصية فى حقيقة الأمر هى كل ما يتبقى هناك!)

(*) يمكننا أن نفهم "الطبيعة"، و "المجتمع"، و "الصناعة"، و "الأمة"، و "الثقافة" فى الأمثلة التالية فهمًا استعاريًا مجازيًا فلا يعود فى الأمر مغالطة. غير أن الناس كثيرًا ما تعامل مثل هذه "الأنساق" الكلية كما لو كانت "كيانًا شبيهًا بالشيء"، وهنا تبدأ المغالطة. كان هتلر فى أواخر أيامه، وقد صار على يقين من الهزيمة، يتحدث عن "الأمة" وكأنها كائنٌ حقيقى قائم بمعزلٍ عن الأفراد، كائن أعلى ينبغى أن يفديه الأفرادُ جميعًا بأرواحهم حتى لو قضوا عن آخرهم!!!

الفصل العشرون

انحياز التأييد (التأييد دون التفنيد)

confirmation bias

دَلَفَ إلى المناظرة التليفزيونية يتأبَّطُ أضابيرَ منتفخةٍ

بقصاصاتٍ ووثائقَ تؤيدُ دعواه

ولعله بنِصفِ هذا العَرَق

كان قمينًا أن يجمعَ ضِعفيها

من القصاصات والوثائق المُفَنِّدة!!

فى تجربةٍ شهيرة(*) عُرِضَ على المشاركين أربعُ بطاقات، كل بطاقة منها تحمل عددًا على أحد وجهيها وحرفًا أبجديًا على وجهها الآخر، مثل هذا:

4	E
K	7

ثمة فرضيةٌ فى هذه البطاقات تقول بأنه: "إذا كان فى البطاقة حرفٌ متحرك على أحد وجهيها فإن على وجهها الآخر عددًا زوجيًا بالضرورة". والمطلوب من المشارك أن

(*) تُسَمَّى "بطاقات واسون" Wason card problem

يقدم أسرع طريقة لاختبار هذه الفرضية (أو يُطلَب منه، بصيغة أخرى، تحديد بطاقتين اثنتين فقط عليه أن يقلبهما لكى يختبر صدق هذه الفرضية).

فى هذه التجربة وقع جميع المشاركين تقريبًا فى الاختيار الخطأ (وهو: E، ٤) ولم يهتدوا إلى الجواب الصحيح (وهو: E، ٧). ذلك أن عليك أن تقلب بطاقة E لتكشف إن كان هناك عدد زوجى على ظهرها؛ فإذا لم يكن فالفرضية كاذبة. يتعين عليك أيضًا أن تقلب البطاقة ٧ لكى تتيقن من أنها لا تحمل فى ظهرها حرفًا متحركاً؛ فإذا وجدته فالفرضية كاذبة. ومادامت البطاقة E بها عدد زوجى والبطاقة ٧ ليس بها حرف متحرك فإن الفرضية صادقة. ولا يهم ما يكون على ظهر البطاقة ٤ والبطاقة K ولا يغير من الأمر شيئًا.(*)

والآن ما هو مصدر الضلال هنا؟

لماذا نميل فعلاً إلى اختيار البطاقة ٤ بدلاً من ٧ ؟

يبدو أن لدينا مَيْلاً صميمًا إلى أن "نؤيِّد" confirm مثل هذه الفرضيات بدلاً من أن "نُفَنِّدها" disconfirm. إننا نقلب البطاقة ٤ لأننا نبحث فقط عن أمثلة موجبة للفرضية وليس أمثلة سالبة. إننا أمْيَل إلى البحث عن دليل "مؤيِّد" حتى إذا كان الدليل "المفنِّد" أكثرَ دلالةً بكثير.

يفكر الواحدُ منا بمثل هذه الطريقة: "إذا قلبتُ بطاقة العدد الزوجى ووجدتُ حرفًا متحركًا أكون قد أيَّدتُ العبارة". غير أن العثور على مثالٍ يؤيد القاعدة لا يُثْبِتُ أن القاعدة صادقة؛ بينما العثور على مثالٍ واحدٍ يُكَذِّب القاعدة هو أمرٌ يكفى لأن يُثْبِت كَذِبَها على نحوٍ نهائى حاسم ويقضى عليها قضاءً مُبرَمًا.

(*) لاحظ أن الفرضية هنا هى عبارة شرطية conditional، والعبارة الشرطية تكون كاذبة إذا، وفقط إذا، كانَ مُقَدَّمها (عبارة إذا) صادقًا وتاليها (عبارة إذن) كاذباً.

انظر أيضاً إلى المثال التالي: فهذا سياسى يرى أن إلغاء الضرائب المحلية سوف يؤدى إلى انخفاض معدلات الجريمة. ومن ثم فقد طلب من الباحثين لديه أن يجمعوا أمثلةً لحالات أُلغيَت فيها الضرائبُ المحلية ثم انخفضت معدلاتُ الجرائم. وجد الباحثون أن هناك مائةً من هذه الأمثلة. إذَّاكَ خلص السياسى إلى أنه مُحقٌّ فى افتراض أنه بخفضِ الضرائب المحلية يمكنه أن يقلِّص الجريمة.

لقد أراد السياسى أن "يؤيِّد" فرضيتَه فحسب، لا أن "يُفَنِّدَها". وربما يكون بذلك قد ضَلَّ السبيل. ولعل باحثيه لو جَدُّوا فى الطَّلَبِ لأتوا له بمائتى حالةٍ ارتفعت فيها الجريمةُ بعد إلغاء الضرائب المحلية!!

فى مجال الاستدلال الإحصائى يُعَدُّ انحياز التأييد confirmation (أو التحقيق verification) ضرباً من الانحياز المعرفى تجاه تأييد الفرضية محل الدراسة. ومن أجل معادلةِ هذا الميل البشرى الملاحَظ يتم تشييد المنهج العلمى بطريقة تُلزِمنا بأن نحاول تفنيد disconfirmation أو تكذيب (falsification) فرضياتنا.

وفى مجال السيكولوجيا يُعَرَّف انحياز التأييد بأنه ظاهرة تتميز بميل صانعى القرار إلى ملاحظة الأدلة المؤيدة لدعاويهم والاحتفاء بها والتماسها بهمةٍ، بينما يميلون إلى تجاهل الأدلة التى قد تنال من الدعاوى، وإلى التقاعس عن طلبها والبحث عنها. وهى بهذا المعنى تُعَد صورة من صور "الانحياز الانتقائى" selection bias فى جَمْع الأدلة.

يذهب البعض إلى أن انحياز التأييد قد يكون هو السبب من وراء الاعتقادات الاجتماعية "المُخَلِّدة لذاتها" و "المُحَقِّقة لذاتها". وقد يكون سبب هذا الانحياز هو أن الذهن البشرى بِحُكْم تكوينِه يجد صعوبةً فى "معالجة" processing الإشارات السالبة أكثر مما يجده فى معالجة الإشارات الموجبة.

وتشير الدراسات الحديثة رغم ذلك إلى أنه بينما تسود مغالطة التأييد كحالةٍ مبدئية، فإن تكرار ورود البيانات المفنِّدة يُحْدِث تحولات فى التفكير النظرى. فالمسلك

العام لدى الباحثين هو استبعاد البيانات المفنِّدة فى البداية باعتبارها نتاجَ زللٍ أو سهو أو عوامل دخيلة. غير أن تكرار البيانات المفنِّدة وتراكمها وإلحاحها فى الظهور يُحْدِث تغيرًا فى استراتيجيات الاستدلال السببى(*).

كارل بوبر: مذهب التكذيب falsificationism

"كان بوبر مناوئًا لفكرة أن المعرفة العلمية تتراكم عن طريقة تأييد الفرضيات أو تحقيقها. وفى تصور شديد الاختلاف والجِدَّة لدينامية العلم ذهب بوبر إلى أن الفرضيات لا تكون جديرة حقًا بالقبول ما لم تكن قابلة للتكذيب. كانت فكرته مدمِّرةً وبسيطة: من السهل أن تجد أمثلة مؤيدة للفرضيات؛ سهولة تجعل من المستبعد أن يكون هذا هو طريق العلم الصحيح. تأمل مثلاً فرضية بسيطة مثل: "جميع النباتات تتكاثر جنسياً". فإذا كان كل ما يلزمنى هو الشواهد المؤيِّدة لذلك، فإن بميسورى أن أُهرَع إلى الحديقة وأكتشف أن جميع الزنابق الستمائة وأربع وستين تتكاثر جنسيًا، وجميع البنفسجات التسعمائة وثلاث وخمسين تتكاثر جنسياً، وهلم جرا. وسرعان ما يجتمع لدىَّ عددٌ هائل من الأمثلة الموجبة. ومع ذلك فلو اطَّلَعَ أيُّ عالمٍ نبات على عملى فلن يأبه له؛ لأننى لم أحاول أن أجد مثالاً "مفنِّدًا"؛ لم أنظر إلى حالات يمكن أن تكون "أمثلة مضادة" counter-examples. فقبل تَبَنِّى أى فرضية ينبغى علىَّ أن أفحصَ كثيراً من الأنواع المختلفة من النباتات المزهرة، وأن أفحص الأعشاب والسراخس، وبعامةٍ، يجب علىَّ أن أحاول جهد ما أستطيع أن "أُكَذِّب" falsify فرضيتى.

(*) لمزيدٍ من الإيضاح انظر أيضًا "بنية الثورات العلمية" لتوماس كون، وله بالعربية أكثر من ترجمة. ومن تمام القول أن نشير إلى أنه فى السياق العيانى لا يقع الناس فى خطأ انحياز التأييد بنفس المعدل: من ذلك أنه لدى تقديم نسخة "عيانية" من نفس الاختبار اهتدَى عددٌ كبير من المشاركين إلى الإجابة الصحيحة. من أمثلة هذه الصيغة العيانية تقديم أربع بطاقات كل بطاقة بها مشروبٌ معين على أحد وجهيها وعُمْرُ شاربِه على الوجه الآخر: قهوة، كولا، ١٤، ١٨؛ وتقول الفرضية إنه إذا كان الشخص يشرب القهوة فإن عمره إذن لا بد من أن يكون فوق ١٦

تأملْ فرضيةً أخرى، وهى الفرضية القائلة بأن "منطقة بروكا" هى التى تتحكم فى إنتاج الكلام. فلكى يبرهن المرءُ على هذه الفرضية فلن يكفيه أن يعثر على ارتباط موجب بين حالات تَلَف منطقة بروكا وبين فقدان الكلام. فلا بد للمرء أن يكشف ما إذا كان هناك مرضى بتلفٍ فى منطقة بروكا بدون فقدان للنطق، وأن يكشف ما إذا كانت هناك حالات فقدان نطق مع تلف فى مناطق أخرى. عندئذ سيكون الفشل فى التكذيب ذا دلالة، بعكس تجميع الحالات المؤيِّدة. تفيد دعوى بوبر أن العالِم إذا قبِل الفرضيات عن طريق إيجاد أمثلة مؤيِّدة فسوف ينتهى به المطاف إلى قبول ما لا يُحصَى من الفرضيات الكاذبة والسير فيما لا يحصى من الطرق المسدودة. أما إذا ظفر بفرضيةٍ صمدت لمحاولاتٍ عنيفة لتكذيبها، فعندئذ يمكنه قبول هذه الفرضية، لا باعتبارها صادقة، ولا باعتبارها مؤيَّدة، بل باعتبارها أفضل فرضية متاحة حتى الآن."(*)

يمكننا أن نفسرَ العلاقةَ المنطقية بين التحقيق والتكذيب كما يلى: تتنبأ النظرية القائلة بأن الدببة القطبية يجب أن تكون بيضاء بأن الدب الذى سأراه فى المرة القادمة سيكون أبيض. فإذا حدث أن كان الدب القادم أبيض حقًا فقد يُغرينى ذلك بأن أقول إن مشاهدتى هذه تؤيِّد النظرية. ولكن الحقيقة أن هذه المشاهدة لا يمكن أن تُعَد برهانًا نهائيًا على صدق النظرية. ذلك لأن هناك احتمالاً سيظل قائمًا أبداً بأن يأتى دب قادم فى رَتَل الملاحظة غير أبيض. وإذا حدث هذا تكون هذه الملاحظة وحدها كافية لتكذيب النظرية بصفةٍ نهائية. هكذا يتبين لنا أن التأييد لا يحسم أمر النظرية بينما التكذيب يمكن أن يُكِيل للنظرية ضربةً واحدةً قاضية.

التكذيب إذن، وليس التأييد، هو معيار العلم.

أما عن التأييد فإن بوسع أى نظرية أن تجد لها ما شاءت من الأدلة التى تتسق معها وتؤيدها. وتزعم معظم النظريات التى تدعى الصفة العلمية أنها مشيدة أصلاً على

(*) Churchland, P. S., Neurophilosophy, ninth edition, A Bradford book, The MIT Press, 1996, pp. 259-260.

أساس التفكير الاستقرائى، أى استقراء كل الحالات المعروفة واستخلاص تعميم يشملها جميعاً. وماذا يكون التأييد هنا سوى الإتيان بمزيد من نفس الصنف من الحالات؟! إن هذا من الوجهة المنطقية هو عُقم لم يأتِ بجديد. أما المنهج المُجدِى عند بوبر فهو أن نفكر استنباطيًا ونفتش عن حالات مفنِّدة للنظرية؛ لأن العثور على مثال مضاد واحد سيكون كافيًا للإجهاز عليها. أما إذا صمدت النظرية ستُعَد قوية وأهلاً بالأخذ بها باعتبارها أفضل فرضية متاحة آنيًّا.

فرنسيس بيكون: المثال السلبي فوق المثال الإيجابي

"اقرأْ واستمعْ. لا لكى تمارِى وتُفحِم، ولا لكى تعتقدَ وتُسلِّم، ولا لكى تظفر بحديثٍ أو قول؛ بل لكى تروزَ وتُمَحِّص."

فرنسيس بيكون

يقـول بيكون فى "الأورجـانون الجـديد" **Novum Organum** "من دأب الفـهم البشرى عندما يتبنى رأيًا (سواء لأنه الرأى السائد أو لأنه راقه وأعجبه) أن يَقسِر كلَّ شىء عداه على أن يؤيده ويتفق معه. ورغم أنه قد تكون هناك شواهد أكثر عددًا وثقلاً تقف على النقيض من هذا الرأى، فإنه إما أن يهمل هذه الشواهد السلبية ويستخف بها، وإما أن يختلق تفرقةً تُسَوِّل له أن يزيحها وينبذها، لكى يَخلُص، بواسطة هذا التقدير السبقى المسيطر والموبق، إلى أن استنتاجاته الأولى ما تزال سليمةً ونافذة. ولذا فقد كان جوابًا وجيهًا ذلك الذى بَدَرَ من رجلٍ أطلعوه على صورةٍ معلقةٍ بالمعبد لأناسٍ دفعوا نذورَهم ومن ثم نجوا من حطام سفينة، عساه أن يعترف الآن بقدرة الآلهة؛ فما كان جوابه إلا أن قال: "حسناً، ولكن أين صور أولئك الذين غرقوا بعد دفع النذور؟!"

وهكذا سبيل الخرافة، سواء فى التنجيم أو فى تفسير الأحلام أو الفأل أو ما شابه؛ حيث نجد الناس، وقد استهوتهم هذه الضلالات، يلتفتون إلى الأحداث التى تتفق معها، أما الأحداث التى لا تتفق، رغم أنها الأكثر والأغلب، فيغفلونها ويغضون عنها الطرف.

على أن هذا الأذى يتسلل بطريقة أشد خفاء ودقة إلى داخل الفلسفة والعلوم، حيث يفرض الحكمُ الأول لونَه على ما يأتى بعده، ويحمله على الإذعان له والانسجام معه، ولو كان الجديد أفضل وأصوب بما لا يقاس. وفضلاً عن هذا، وبِغَض النظر عن ذلك الهوى والضلال الذى ذكرْتُ، فإن من الأخطاء التى تَسِمُ الفكرَ الإنسانى فى كل زمان أنه مغرم ومُولَع بالشواهد الموجبة أكثر من الشواهد السالبة، حيث ينبغى أن يقف من الاثنين على حياد. والحق أنه فى عملية البرهنة على أى قانون صادق يكون المثال السلبى هو أقوى المثالين وأكثرهما وجاهةً وفعالية" (الأورجانون الجديد – الكتاب الثانى، شَذْرة ٤٦)

الفصل الحادي والعشرون
غفال المُقَيِّدات

ignoring qualifications

secundum quid

"قالت القاعدة للاستثناء: لماذا تَعَلَّقُ بجناحي دائمًا وتُقَيِّدني

ولا تدعُني أبسط ظلي على العالم

ردَّ الاستثناءُ على القاعدة:

أفيقي .. أنا لست عالقًا بجناحك

أنا منك .. أنا أكبرُ قوادمِكِ

وأشدُّ مؤيديك"

يتألف شطرٌ كبير من حديثنا اليومي من عبارات حول ما تكونه الأشياء على وجه الإجمال، وكيف يسلك الناس بصفة عامة .. إلخ. ونحن نستند إلى هذه الأحكام العامة في جدلنا السياسي والأخلاقي وفي أغلب الشؤون الهامة في الحياة الاجتماعية. غير أن علينا أن نحذر من التعنت في تطبيق هذه التعميمات على حالات خاصة قد لا تنطبق عليها. ذلك أن الظروف والملابسات تغير الحالة، والتعميم الذي يصدق على الإجمال قد لا يصدق في حالة معينة، لأسبابٍ وجيهة تتعلق بالظروف الخاصة (أو "العرَضية" accidental) لتلك الحالة. حين نطبق تعميماً على حالات فردية لا يشملها التعميم على نحو صحيح فنحن نرتكب إذَّاكَ "مغالطة العَرَض (المباشر)" fallacy of accident، أما حين نفعل العكس ونتناول، عن غفلة أو عن قصد، مبدأً يَصدُق على حالةٍ استثنائية معينة ثم نمده لينسحبَ على المجرى العام للحالات، فإننا نرتكب "مغالطة العرَض المعكوس" fal-

lacy of converse accident . والحق أن مكمن الخطأ واحد فى الحالتين، وهو إغفال المُقَيِّدات أو المحدِّدات أو الشروط التى ينطوى عليها التعميم، واستخدام القاعدة ذات الاستثناءات المقبولة على أنها قانون مطلق.

ذلك أن بمقدور التَنَطُّع أن يخلط بين صنفين مختلفين من التعميم:

(١) التعميم الشامل أو المطلق: وهو تعميم لا يسمح بأى استثناء، ويكفى "مثال مضاد" counter-example واحد لدحضه أو تكذيبه.

(٢) التعميم القابل للإبطال defeasible أو المقيَّد qualified : وهو تعميم يسمح باستثناءات، ويتساوق مع وجود أمثلة مضادة معينة. إنه تعميم غير صارم، بل اختبارى وقابل للتعديل والتطوير.

إلى هذا الصنف الأخير من التعميم تنتمى أغلب القواعد والمبادئ الأخلاقية والاجتماعية والمدنية والعُرفية، وكذلك التعميمات التجريبية والفروض المسبقة، والحِكَم والأمثال والأقوال المأثورة. ويعج الحس المشترك بمثل هذه القواعد العامة التى تصدق على الجملة لا على الإطلاق. إننا نعيش فيها وبها، ونعرف بفضلها وجهتنا وننظم حياتنا وندخر طاقتنا. على أن نأخذها مأخذ الأداة التى ينبغى أن نستخدمها لا أن تستخدمنا. فهى، شأن كل أداة، قد تجلب الضرر مثلما تجلب النفع، وذلك حين يُساء استخدامها. وإساءة استخدام القواعد هى أن نأخذها مأخذ المطْلَقات حين نكون بصدد الاستثناء، أو، على العكس، حين نأخذ الاستثناء مأخذ القاعدة.

إن أصلب القواعد العملية وأشدها ثباتًا وبداهة إنما تقوم على المألوف المتاح فى البيئة، وتنتسب إلى السياق الثقافى والتاريخى للمرء. (مثال ذلك أن قولنا "معظم الطيور قادرة على الطيران" إنما هو تعميم تجريبى من الخبرة المتاحة. وليس ما يمنع أن تكون هناك أعداد غفيرة من طيور البطريق فى القارة المتجمدة الجنوبية تقلب الآية وتجعل الصواب أن "معظم الطيور لا تطير"!)

تُعَلِّمنا الخبرة أنه ما من تعميم، مهما اتسع تطبيقُه وعَمَّ نفعُه، إلا وله استثناءاتٌ تفلت من طائلته. فى مجال القانون مثلاً نجد أن المبادئ التى تصح فى عموم الأحوال

لا تخلو من حالات استثنائية محددة. من ذلك أن مبدأ "بطلان شهادة الشاهد بما سمع من الغير" (شهادة الرواية أو السماع عن الغير) hearsay testimony (أى أن الشهادة عن الغير لا تُقْبَل كدليل أو بينة) لا يسرى إذا كان الطرف المروى عنه متوفى أو عندما يكون ناقل الشهادة يفعل ذلك ضد مصلحته الشخصية الأكيدة.

وفى محاورة يوثيديموس ينتزع سقراط من يوثيديموس، الذى يعتزم أن يصير رجل دولة، التزامًا أو تعهدًا بكثير من الحقائق الأخلاقية المتفق عليها: "من الخطأ أن تَخدع"، "من الظلم أن تسرق".. إلخ. عندئذ يقدم سقراط سلسلةً من الحالات الافتراضية التى تخرق المبدأ العام؛ فلا يجد يوثيديموس فكاكًا من أن يوافق على أنه قد يبدو أن من الصواب أن تَخدع (لكى تنقذ مواطنيك)، وأن من العدل أن تسرق (لتنقذ حياة صديق) .. إلخ.

أمثلة من مغالطة العرَض المباشر accident

- سيارة الإسعاف التى عبرت الآن تستحق مخالفة لأنها كسرت الإشارة الحمراء
- لا شأن لى بنزيف أنفك. التعليمات صريحة: غير مسموح لأى طالب بالذهاب إلى الحمام إلا بعد جرس الحصة.
- لا يُسمح للسيارات بتجاوز حدود السرعة

سيارات الشرطة هى سيارات

إذن لا يُسمح لسيارات الشرطة بتجاوز حدود السرعة.

- قَطْع أجساد الناس بالسكين جريمة

الجراحون يقطعون أجساد الناس بالسكين

إذن الجراحون مجرمون

-"حسنًا ما قلتَ يا كيفالوس. ولكن لننظرْ فى الفضيلة ذاتها، أى العدالة، فما هى؟ أهى الصدق فى القول والوفاء بالدين فحسب؟ ألا ترى معى أن هذين الأمرين ذاتهما قد يكونان صوابًا أحيانًا وخطأً أحيانًا أخرى؟ لِنفرض أن صديقًا أودع لدىَّ أسلحة، ثم أصيب بالجنون فيما بعد، أتراني ملزمًا بردها إليه؟ لن يقول أحد إننى ملزم بذلك، أو أنني أكون على حق لو فعلتُ ذلك _كما أن أحدًا لن يعتقد بأن من واجبى قول الصدق لمن كان فى مثل حالته".
(أفلاطون - الجمهورية - الكتاب الأول)(*)

- لا تكذب.

إذن لو سألك مجرم خطير عن مكان ضحيته المستهدفة فلا تكذب عليه.

- لا تقتل.

ولا حتى النمل الأبيض الذى يهاجم بيتك، ولا أعداءنا القادمين لقتالنا.

- الديمقراطية تمنح الجميع حق الاقتراع.

إذن ينبغى السماح للأطفال والمجرمين بالاقتراع.

- مادامت حرية القول مكفولة للجميع.

إذن من حقى أن أصرخ "حريق..حريق" فى مسرحٍ مزدحم.

- مادمتَ قد تعهدتَ بحفظ قططك داخل المنزل عندما تبنيتها من الجمعية.

إذن ينبغى ألا تدعها تخرج خارج البيت حتى لو شب فيه حريق.

- مادام الأسبرين مفيداً لمرضى القلب.

(*) انظر "جمهورية أفلاطون"، دراسة وترجمة د. فؤاد زكريا، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٣، ص ١٨١-١٨٢ ؛ وانظر أيضاً إلى تعليق د. فؤاد زكريا على ذلك فى دراسته للجمهورية ص ٤٧

إذن هو مفيد أيضًا لأخى المريض بالقلب وقرحة المعدة.(من المعلوم طبيًا أن الأسبرين يُفاقِم قرحة المعدة).

أمثلة لمغالطة العَرَض المعكوس converse accident

- مادمنا نسمح لمرضى المراحل الأخيرة ومرضى احتشاء القلب بتناول المورفين

  إذن ينبغى أن يُسمح لكل فرد بتناول المورفين

- مادمتَ سمحتَ للطالب س الذى صدَمَتْه شاحنةٌ بتقديم بحثه فيما بعد

  إذن يجب أن تسمح للفصل كله بتقديم الأبحاث فيما بعد

- ها أنتم ترون هذا الرجلَ الذى يعيش على السمك المقلى والبطاطس المقلى طوال حياته ومستوى الكولسترول فى دمه أقل من المعدل

- إذا أبَحنا للمصابين بالجلوكوما باستخدام الماريجوانا الطبية

  إذن كل شخص من حقه أن يستخدم الماريجوانا .

الفصل الثانى والعشرون

مغالطات الالتباس

fallacies of ambiguity

كثيراً ما يتبدل معنى الكلمات أو التعبيرات أثناء الحديثِ أو فى مَساقِ حجة. قد يحدث ذلك عن غفلة وقد يحدث عن عمد؛ فيحمل الحدُّ معنى معينًا فى إحدى المقدمات، ويحمل معنى مختلفًا تمامًا فى النتيجة. عندما يعتمد الاستدلالُ على مثل هذه التبدلات يكون مغالطًا بطبيعة الحال. ويُطلَق على هذا الفصيل من المغالطات "مغالطات الالتباس" fallacies of ambiguity . وهى فى أغلب الأحيان مغالطاتٌ فجَّةٌ سهلةُ الكشف، غير أنها قد تَدِقُّ فى بعض الأحيان وتخفَى على متلقيها أو حتى على مرتكبها!

قد يَخلق الالتباسُ خلطًا خطيراً حتى لو لم يأتِ فى مَساق حُجة. ومن الأمثلة المشهورة على ذلك حوادثُ اصطدام السفن والطائرات من جراء الالتباس فى لغة الاتصال. فى السابع والعشرين من مارس عام ١٩٧٧ لَقِيَ ٥٨٣ شخصاً حتفهم عندما اصطدمت طائرتا ركاب على المَدْرَج الذى خَيَّمَ عليه الضبابُ فى تينيريف بجزر الكناري. قال قائد الطائرة فى رسالته اللاسلكية إلى التحكم الأرضى: "نحن الآن at the take off" بمعنى "نحن فى نقطة الإقلاع عن المَدْرَج". إلا أن المتحكِّمَ الأرضى أخذَ الرسالةَ بمعنى أن الطائرة كانت منتظرةً على المَدْرَج. وكانت النتيجةُ أن قَضَى المئاتُ نحبَهم فى الصدام. تُبَيِّن مثل هذه الحالات أن المشكلات التى تنجم عن الالتباس لا يُستهان بها. وهى مشكلاتٌ شائعةٌ جداً فى الوقت نفسه. فى القضايا القانونية على سبيل المثال، وفى التعاملات التجارية والتعاقدات المدنية والاتفاقيات الدولية يشكل الالتباسُ وتعددُ التأويلات للنص الواحد مشكلةً عتيدة. وما تزال مشكلة "الانسحاب من أراضٍ، أو الانسحاب من الأراضي" تَسكُن ذاكرةَ كلٍّ منا؛ وهى مشكلةٌ ناجمة عن الالتباس المُبَيَّت فى صميم اللغة الإنجليزية وأدوات التعريف والتنكير بها.

(١) الاشتراك (الالتباس المعجمى/اشتراك اللفظ)

equivocation

"الورَع.. ها هو ذا التباس

بوسعِه أن يلعبَ على الكفتين، مُرَجِّحًا أيًا منهما على الأخرى

كم ارتَكَبَ من الخيانات زاعِمًا أنها فى سبيل الله

ولكن هيهات له أن يلبِسَ شيئًا على رب السماء"

مكبث

الفصل الثانى – مشهد ٣

معظمُ ألفاظ اللغة هى ألفاظٌ "مشتركة" equivocal لها أكثر من معنى واحد(*). ولبعض الألفاظ نطاقٌ كبيرٌ من المعانى. يقول أبو حامد الغزالى فى كتابه "المستصفَى":

"وأما الألفاظ المشتركة فهى الأسامى التى تنطبق على مسميات مختلفة لا تشترك فى الحد والحقيقة البتة : كاسم "العين" للعضو الباصر ، والميزان، والموضع الذى يتفجر منه الماء – وهو العين الفوارة – والذهب، والشمس، وكاسم "المشترِى" لقابل عقد البيع، وللكوكب المعروف "

الغزالى

" المستصفَى ج١ "

(*) فى تعريفات الجرجانى: المشترك ما وُضِعَ لمعنى كثير، كالعين، لاشتراكه بين المعانى ... وضده المترادف أى ما كان معناه واحداً وأسماؤه كثيرة، كالليث والأسد.

ينشأ الاشتراكُ نتيجةً للتطور التاريخي للغات الطبيعية. والتى نعلم اليوم أنها تقوم على "المواضعة" convention والاتفاق، وأن علاقة الدال بالمدلول فيها هى علاقة "اعتسافية" (اعتباطية) arbitrary لا ضرورة فيها، وأنها تتطور ببطء ونادراً ما تكون التغيرات التى تلحق بها متعمدة من جانب الأفراد أو الجماعات. وقد كان هذا الاشتراك القائم فى صميم المعجم اللغوى حَرِيًا أن يهدد الوضوح والإفصاح ويعطل الوظيفة الاتصالية للغة؛ لولا أن اللغة تتغلب على الالتباس الكامن فى ألفاظها بواسطة السياق الصريح الذى يتكفل، فى أغلب الأحوال، ببيان المعنى المقصود. يقول لودفيج فتجنشتين: ليس للكلمة الواحدة من كلمات اللغة معنى محددٌ دقيق، وإنما للكلمة الواحدة، كما هى مستخدمة بالفعل فى الحياة اليومية، معانٍ لا حصر لها تتحدد بحسب السياقات والظروف المختلفة التى تُستخدَم فيها. فالكلمة مطاطة تتسع استخداماتها وتضيق وفقًا للظروف والحاجات؛ ومثلها كمثل أدوات النجار_ليس لكل أداة استخدامٌ واحد وإنما استخدامات مختلفة فى الظروف والحاجات المختلفة. ولا يوجد بين الاستخدامات المختلفة للكلمة الواحدة عنصرٌ مشترك محدد، وإنما يوجد بينها "تشابهات عائلية" family resemblances متداخلة مندمجة كالتى نراها بين أفراد الأسرة الواحدة.

السياق إذن من وسائلنا للتغلب على التباس الألفاظ. ومن وسائلنا الأخرى أن نستخدم "التعريف" فنتواضع على الطريقة التى سوف نستخدم بها هذه الكلمة أو تلك فى سياق معين من القول. وينشأ الالتباس حين يعجز كل من السياق والتعريف عن حصر نطاق المعانى الخاص بكلمة ما فى معنى واحد بعينه. ونحن حين نقوم بخلط المعانى المختلفة لكلمة أو تعبير، عفواً أو عن قصد، فإننا إذن نستخدم اللفظة استخدامًا مشتركًا equivocally .. وحين نفعل ذلك فى مَساق "حجة" argument نكون قد ارتكبنا "مغالطة الاشتراك" fallacy of equivocation . ذلك أن الحجة لا تكون منتِجةً منطقياً، ولا تؤدى فعلَها كحجة، ما لم تكن ألفاظها تحمل ذاتَ المعنى فى كل مرة ترد فيها، سواء فى المقدمات أو فى النتيجة.

حين أقول لك "كن مؤمناً" فقد يعنى ذلك "ثِقْ فى رحمة الله" وقد يعنى "اعتقِد فى وجود الله". وحين أقول "إننى أعتقد فى" الرئيس فلان فإن ذلك يعنى أبننى أثق فى كفاءته كرئيس، ولكن حين أقول "إننى أعتقد في" التلِباثى (التخاطر) فإننى أستخدم التعبير نفسه ولكن بمعنى جِدٍّ مختلف، وهو أننى أعتقد فى وجود ظاهرة التخاطر.

كذلك تحمل الألفاظ النسبية، من قبيل "جيد"، "قصير"، "صغير".. إلخ، خطرَ الاشتراك حين يُساء استخدامها. من ذلك أن النملة "الكبيرة" تظل حيوانًا "ضئيلاً"، والفيل "الصغير" يظل حيوانًا "ضخمًا"! والباحث "الجيد" قد يكون محاضِراً "رديئًا" والجنرال "القدير" قد يكون رئيسًا "ضعيفًا"، والانتقال من أى حد من هذه الحدود إلى الآخر يُعَد انتقالاً مغالطًا.

أمثلة أخرى :

(١) كل قانون ينبغى أن يُطاع

قانون الجاذبية هو قانون

إذن قانون الجاذبية ينبغى أن يُطاع

(هنا تُستخدَم لفظة "قانون" بمعنيين مختلفين. ويسمى هذا الصنف من المغالطة "مغالطة التباس الحد الأوسط"

(٢) كل العلوم تؤدى إلى الفهم الأفضل للعالم

إذن علوم السحر تؤدى إلى فهم أفضل للعالم

(حيث تُستخدَم كلمة "علوم" بمعنيين مختلفين)

(٣) كل قتلة الأطفال غير إنسانيين (بمعنى غير رُحَماء)

إذن ليس هناك قاتل أطفال ينتمى إلى النوع الإنسانى (بمعنى الإنسان العاقل homo sapiens)

للاشتراك طاقاتٌ بلاغية هائلة حين يُستخدَم للتأثير البيانى والشعرى والخطابى. ومن الأمثلة المأثورة للاستخدام البلاغى الموفق للاشتراك قول بنيامين فرانكلين:

"إذا لم نتعلق ببعضنا البعض فسوف نتعلق على انفراد"

"If we don't hang together, we will hang separately"

حيث "نتعلق" الأولى تعنى "نتضامن"، والثانية تعنى "نُشنَق". غير أن الحجة صائبة لأننا حقًّا إذا لم نتضامن فى مراحل الصراع أو الثورة فثمة احتمالٌ كبير بأن نفشل ونُعدَم شنقاً. وباستخدام ذات الكلمة بأكثر من معنى فقد تبلورت الفكرة واستوَت فى صياغةٍ موفقة تستقر فى الذاكرة بسهولة ورسوخ.

ومن الاستخدامات المأثورة للاشتراك قول الإمام الشافعى:

"ما جادلتُ عالِمًا قَطُّ إلا غَلَبْتُه، وما جادلتُ جاهلاً قَط إلا غَلَبَنى!!"(*)

ومنها: "دولة الظلم ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة"

"من الفن ألا يظهر الفن!" (حيث كلمة "فن" الأولى تعنى art وكلمة "فن" الثانية تعنى الصنعة techne)

ليس الاشتراك بحد ذاته مغالطاً، غير أنه يَبقَى شَرَكًا لغويًا منصوبًا يجعلنا عُرضةً للوقوع فى المغالطة، وذلك حين ينجح الاشتراكُ فى أن يجعل الحجةَ المغلوطة تبدو حجةً صائبة.

(*) بمعنى أننى أغلب العالِمَ بالحجة والدليل بينما يغلبنى الجاهلُ بالصوت والمَحْك.

(٢) التشابه (التباس المبنَى/اشتراك التركيب)

amphiboly

"من الحيل المألوفة للعرافين أن يقدموا تنبؤاتهم بطريقةٍ غامضة تجعلها عصيةً على الإخفاق – تجعلها غير قابلة للدحض"

كارل بوبر

تُعَد العبارة "متشابهة" amphibolous إذا كان معناها غيرَ محدد، نتيجةً لتفكك مبناها وتعثر الطريقة التى تتضام بها ألفاظُها، بحيث تكون قابلة، بسبب تركيبها، لأكثر من تفسير واحد، أى "حمالة أوجه"(*). قد تكون العبارةُ المتشابهة صادقةً وفقًا لتأويلٍ معين، وكاذبةً وفقًا لتأويلٍ آخر. فإن أوردناها كمقدمةٍ على تأويل الصدق، واستخلصنا منها نتيجةً على تأويل الكذب، نكنْ قد وقعنا فى "مغالطة التشابه" أو "الاشتباه" أو الالتباس النحوى أو التركيبى (اشتباه المبنَى) amphiboly fallacy .

من حِيَل المنجمين والكُهّان منذ أقدم العصور أن يصوغوا تنبؤاتهم فى صيغ "متشابهة" غامضة ملتبسة، بحيث تتملص من أى شىء كان حقيقًا أن يُكَذِّبَ التنبؤَ لو أنه كان محددًا دقيقاً. إنها "خُدَعٌ تحصينية" immunization stratagems تجعل النبوءةَ متمنِّعةً على التكذيب أصلاً وأساساً، وتجعلها مساوقةً لكل ملاحظةٍ ممكنة، وموافقةً للشىء ونقيضه، ومهما يكن مآلُ الأمور فإنه سيكون متفقًا مع تأويلٍ معينٍ من تأويلات العبارة. وقد دأب الناسُ بدورهم على أن يُسبِغوا على النبوءة التأويلَ الذى يريدون. إن مغالطةَ التشابه مكينةٌ فى حياة البشر ضاربةٌ فى صميم العقل الإنسانى.

(*) فى المعجم الوسيط: المُتَشابه النص القرآنى يحتمل عدةَ معانٍ. غير أن الجرجانى يُعَرِّف المتشابة تعريفًا ضيقًا فيقول "المتشابه (عند الفقهاء) هو ما خفِيَ بنفس اللفظ ولا يُرجَى دَركُه أصلاً، وضده المُحْكَم.

كانت المنطوقاتُ المتشابهات هى عُدَّة كاهنات الوحى فى دلفِى باليونان القديمة. يروى هيرودوت أن الملك كروسوس ملك ليديا أخذ مشورةَ كاهنة الوحى فى دلفى قبل أن يَشْرَعَ فى حربه ضد سَيْرُس (قورش) ملك فارس. فكانت النبوءة:

"إذا ذهَبَ كروسوس ليحاربَ سَيْرُس فسوف يُدَمِّر مملكةً عظيمة".

ابتَهَجَ كروسوس للنبوءة، وقد فهم أنها تعنى أنه سوف يُدَمِّر مملكة فارس العظيمة. فزحَفَ بجيشه لقتال سَيْرُس ولكنه مُنِيَ بالهزيمة على يد ملك الفرس. وإذ كُتِبَ له البقاءُ فقد عاد إلى دلفى وشكا مُرَّ الشكوَى مما لحق به بعد أن تلقَّى مشورةَ الوحى. هنالك ردَّت الكاهناتُ بأن نبوءة دلفى كانت صادقةً تماماً: "بذهابه إلى الحرب دَمَّرَ كروسوس مملكةً عظيمةً – مملكتَه هو!" والحق أنك لو أنْعَمتَ النظرَ فى منطوق النبوءة فسوف تلاحظ أنها لم تبين بوضوح أى "مملكة" تلك التى سيلحق بها الدمار. وقد ألمح هيرودوت إلى أن كروسوس كان ينبغى عليه، لو أنه فَطِنٌ حقاً، أن يعود ثانية ليسأل الكاهنة أى "مملكة" تَعنى.

وفى مسرحية مكبث لشكسبير تقول إحدى نبوءات الساحرات: "كن جريئًا رابط الجأش فاقد الرحمة؛ فلن يستطيع حيٌّ وضعته أنثى أن يُضِرَّ بمكبث". فلما اقتتل مكبث وعدوه ماكدوف قال مكبث: "محال أن تحاول: ليس فى طاقتك أن تسفك دمي، أكثر مما فى قدرتك أن تطبع فى الهواء أثرَ حسامك. اذهبْ وحاربْ غيرى ممن تُمَس جسومُهم، أما جسمى ففى حماية رُقْيَةٍ سحرية، لا يحلها إلا رجلٌ لم تضعْه امرأة"؛ هنالك قال ماكدوف: "أنا ذلك الرجل. دعْ وهْمَ رقيتك السحرية، واعلم أن ماكدوف نُزِعَ من بطن أمه نزعاً، ولم تضعه أمه وضعاً". لقد وُلِدَ ماكدوف ولادةً أشبه بالقيصرية ولم تلده أمه ولادة طبيعية. حين أدرك مكبث "التشابه" amphiboly الذى أضاعه صاح قائلاً:

"لا يَحسُنُ بعاقلٍ منذ اليوم أن يُصَدِّق الشياطين الخداعين الذين يغروننا بألفاظ ذات معنيين ، فيَسُرُّون آذاننا بالمواعيد ثم يخيبون آمالَنا – لن أقاتلك"

أمثلة أخرى :

(١) "لا تقتل نفسك هكذا يا رجل؛ دعنا نساعدك".

(٢) يقول الرجل لزميله فى بلاد نيام نيام أكلة البشر: "الزعيمُ يريدُكَ للغَداء".

(٣) "إننى ضد الضرائب التى تعطل النمو الاقتصادى". (ماذا يريد هذا السياسى أن يقول: هل يعنى أنه مناوئ لكل الضرائب لأنها جميعًا تعطل نمو الاقتصاد، أو أنه مناوئ فقط لذلك الصنف من الضرائب التى من شأنها أن تعطل نمو الاقتصاد؟ بوسعك بالطبع أن تؤوِّل العبارةَ وفقًا لهواك السياسى وبرنامجك الاقتصادى وتحيزاتك الخاصة، وأن تَضرِبَ صفحًا عن التأويل المضاد.)

(٤) "فى مقابل دهان مصنعى فأنا أتعهد بأن أدفع للسيد عطا الله مرزوق مبلغ عشرة آلاف جنيه وأن أعطيه سيارتى الفيات فقط إذا انتهى من الدهان قبل يناير ٢٠٠٧". (إذا أنعمتَ النظر فى منطوق هذا التعهد فسوف تجد أنه يحتمل أكثر من ثلاثة تأويلات).

(٥) "كان ضَرْبُ زيدٍ مُبَرِّحًا". (لا يُبَيِّنُ لنا تركيبُ الجملة ما إذا كان زيدٌ هو الضارب أو المضروب!).

(٦) "وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به" (المعنى إذا وُقِفَ على "الله" مغاير للمعنى إذا وُقِفَ على "والراسخون فى العلم")

(٣) النَّبْــــــر

accent

النبر على الأحرف داخل الكلمة (أرسطو)

"النَّبْر" (الارتكاز، التشديد، التوكيد) من المغالطات الثلاث عشرة التى بَيَّنَها أرسطو فى عمله الرائد "On sophistical refutations"، وهو بالتحديد من الأغاليط الست المعتمدة على اللغة، والتى يقول عنها أرسطو: "تلك هى الطرق التى قد نعجز بها عن أن نعنى ذاتَ الشىء باستخدام ذاتِ الأسماء أو التعبيرات". النبر، إذن، عند أرسطو هو ضرب من مغالطة "الالتباس" ambiguity .

ولكى نفهم ما عناه أرسطو بالنبر ينبغى أن نعلم بعض الأشياء عن اللغة اليونانية المكتوبة فى زمنه. فإذا كانت اليونانية الآن تحتوى على علاماتِ نبرٍ ثلاثٍ تُستخدَم لتحديد النطق فإن هذه العلامات لم يكن لها وجودٌ فى الكتابة اليونانية القديمة، وإنما كان يعرفها القارئُ المُلِمُّ باليونانية المنطوقة (مثلما هو الحال بالنسبة للغة العربية القديمة الخالية من الإعجام، أى النَّقْط، والتشكيل). لذا كانت بعضُ الكلمات تُنطَق على نحوٍ مختلفٍ بينما تُكتَب على نحوٍ واحد؛ الأمر الذى يفتح باب الالتباس فى اللغة المكتوبة.

مثال ذلك أنه فى الإنجليزية قد تنطق الكلمات المتشابهة الهجاء بالنبر على المقطع الأول لتدل على الاسم، وبالنبر على المقطع الثانى لتدل على الفعل: من ذلك record = تسجيل. وفى الإيطالية كلمة capito تعنى "أصل"، بينما capio بالنبر على حرف i تعنى "فَهِمتُ". وفى العربية: "ومَنْ عندَه علمُ الكتاب" تُقرأ أيضًا "ومِن عندِه علمُ الكتاب"(*).

النبر على الكلمة داخل العبارة

تُعَد حجةٌ ما مخادعةً وباطلة إذا تبدَّل المعنى داخلها نتيجة تبدل النبر على كلماتها أو أجزائها. فإذا ما أتينا بمقدمة تعتمد فى معناها على نبر كلمة معينة، ثم استخلصنا

(*) عبد الرحمن بدوى : "المنطق الصورى والرياضى"، الطبعة الخامسة، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٨١، ص ٢٤٩ .

منها نتيجة تعتمد على معنى الكلمات نفسها منبورةً على نحوٍ مختلف، نكون قد ارتكبنا "مغالطة النبر" fallacy of accent .

أمثلة :

(١) ينبغى أن نكون "أمناء"مع أصدقائنا

ينبغى أن نكون أمناء مع " أصدقائنا "

فهى بالنبر على كلمة "أمناء" تعنى أننا ينبغى أن نكون أمناء بعامةٍ وفى المقام الأول، وهى بالنبر على كلمة "أصدقائنا" تعنى أننا فى حلٍّ من الالتزام بالأمانة مع غير أصدقائنا .

(٢) جميع الناس خُلِقوا "سواسية"

جميع الناس "خُلِقوا"سواسية

فإذا كان التشديد، أو النبر، على كلمة "سواسية" فإنها تعنى المساواة بين الناس على الإطلاق. أما إذا كان التشديد على كلمة "خُلِقوا" فقد توحى بضدها:

أى بأن جميع الناس ليسوا الآن سواسية. بذلك يتيح النبر للناطق أن يومئَ إلى السامع باستدلالٍ مُعين ثم يتنصلَ منه فيما بعد وينكر أنه قال ذلك!!

الاقتباسات المنتزَعة من سياقها (النبر على عبارات أو فقرات من سياقٍ أعَم)

يلْحِق بعضُ المناطقة تلك الاقتباسات بالنبر، باعتبار أن الاجتزاء أو الاقتباس المنْبَتَّ عن سياقه يغير الارتكاز على نحو مضلِّل؛ بينما يعده البعض مغالطةَ التباسٍ منفصلةً باعتبار أن ما يفعله فقدان السياق هو أكبر من ذلك: إنه السماح بعودة

الغموض الطبيعى للكلمات لكى يؤكد نفسه. ذلك أن السياق، مثلما ألمحنا من قبل، هو قوام المعنى ومحددٌ القصد ومانع الالتباس. وفى غياب السياق يختلط حابل المعنى بنابله، ويمكن للمغالِط أن يأسر ما شاء من المقاطع "السائبة" ويرتكز عليها ويحمِّلها أى معنى يريد!

أمثلة :

(١) فى الحملة الانتخابية عام ١٩٦٦ ادَّعى الجمهوريون أن ألجور، نائب الرئيس، قد قال "ليس هناك صلة مؤكدة بين التدخين وسرطان الرئة". وإنه لَقائلُها! غير أن سياق عبارته كالتالى: "بعض علماء شركات الدخان سوف يَدَّعون بصفاقة أن ليس هناك صلة مؤكدة بين التدخين وسرطان الرئة.. غير أن الأدلة الراجحة المقبولة لدى الأغلبية الساحقة من العلماء تقول: نعم، التدخين يسببٌ سرطان الرئة".

(٢) فى ظهر كتابه الأخير ادَّعَى المؤلف فوسيدال أن سيدنى بلومنثال يقول عنه: "يعتبره الكثيرون أنبهَ صحفيِّى جيله"؛ وهى عبارة منتزَعة من سياقٍ ينتقد فيه بلومنثال المفكرين المحافظين ويقول، قاصداً تسفيههم بمثال: "بين اليمينيين المحافظين فإن واحداً مثل فوسيدال يعتبره الكثيرون أنبهَ صحفيى جيله!!"

(٣) فى إعلان للدعاية: تخفيضات تصل إلى ٩٠٪ (مع تكبير ٩٠٪ وتصغير "تصل إلى"). أما إذا استعرضت السلع فسوف تجد أن ما "وصل" تخفيضه إلى تسعين بالمائة هو جانب لا يُذكر من السلع، بينما الغالبية العظمى من التخفيضات هى أقل كثيراً من ذلك.

(٤) حتى الصدق الحَرفى يمكن أن يُستخدَم للخداع بالنبر: كان قبطان إحدى السفن ممتعضاً من معاونه الأول الذى كان مخموراً على الدوام أثناء العمل، فجعل يكتب كل يوم تقريباً بسجِل الأداء: "المعاون سكران اليوم". فلما تَوَلَّى

المعاونُ عمليةَ التسجيل إذ كان القبطانُ مريضاً، فقد ثأر لنفسه وكتب فى السجل: "القبطانُ غيرُ سكران اليوم"!

(٥) "يأيها الذين آمنوا لا تَقربوا الصلاة". "فويلٌ للمصلِّين".

ألوان أخرى من النبر

يعرف الموسيقيون وقائدو الأوركسترا أننا لو غَيَّرنا الارتكازات فى العزف لخَلقنا لحنين مختلفين! ويعرف التشكيليون أننا لو غيرنا الارتكازات فى اللوحة لخَلقنا دلالتين مختلفتين. والنبر فى الشعر أيضًا يسمى "ارتكازا" **ictus** إذ تتميز بعض المقاطع عن بعض بالشدة أو اللين (الارتفاع أو الانخفاض) ويكون ذلك ناشئًا عن احتشاد الجهاز الصوتى عند إخراج بعض المقاطع دون بعض. وفى عروض الشعر العربى يضطلع النبر بدورٍ مهم مازال قيد الدراسة والبحث. وقد قدم الدكتور شكرى عياد مشروع دراسة علمية بعنوان "موسيقى الشعر العربى" أفاض فيها فى تبيان تأثيرات النبر على الوقع الموسيقى للشعر(*). ويذهب الدكتور محمد النويهى فى كتابه "قضية الشعر الجديد" إلى أن النبر يمكن أن ينشئ نظامًا جديداً للعروض العربى. مثال ذلك أن فى العروض العربى بحراً شديد الارتباط بنظام النبر والتأثر به، وهو بحر المتدارك أو الخبب؛ فالنبر "يلوِّن" الإيقاعَ فى بحر الخبب ويخرجه من أسر النظام الكمى الدقيق. ويمضى الدكتور النويهى إلى أبعد من ذلك فيقول إن هذا البحر ينقسم إلى قسمين عظيمين يكاد كل منهما يكون بحراً مستقلاً إذا استمعنا إلى النظام النبرى الغالب فيه.

(*) د. شكرى محمد عياد: موسيقى الشعر العربى، دار المعرفة، القاهرة، يوليو ١٩٦٨

وفى المذاهب والأيديولوجيات تقوم "الأولويات" مقام النبر؛ بمعنى أننا لو غيرنا ترتيب الأولويات فى مذهب أو عقيدة لخرجنا بمذهب آخر وعقيدة أخرى من حيث النتاج والأثر. يعرف ذلك كثير من الأيديولوجيين حتى لَيذهب بعضهم إلى أن إصلاح مذهب أو عقيدة ربما تَطَلَّب تغييرَ الأولويات دون مساسٍ بجوهر أى مفهوم فرعى بحد ذاته!

الفصل الثالث والعشرون

مغالطة التركيب والتقسيم

composition and division

تتمثل مغالطة التركيب والتقسيم فى الانتقال غير المشروع من خصائص الكل إلى خصائص أجزائه المُكَوِّنة (تقسيم (division)، أو الانتقال، على العكس، من خصائص المكونات إلى الكل (تركيب (composition) إنها لَـ "نَقْلَةٌ خاطئةٌ" تخرق قواعدَ الاستخدام اللغوى والمنطقى السليم أن تَنْسِبَ صفات الكل إلى الأجزاء، أو، فى الاتجاه المقابل، أن تنسب صفات الأجزاء إلى الكل بوصفه كلاً؛ ذلك أن خصائص الكل (بوصفه كلاً) وخصائص الجزء (إذ يُفرَد على حِدة) ليست دائمًا بالشيء الواحد، ولا ينبغى أن نتوقع تطابقها فى جميع الأحوال.

مغالطة التركيب composition

هى مغالطة إضفاء صفات الجزء على الكل.

يقع المرءُ فى مغالطة التركيب حين يذهب إلى أن ما يَصدُق على أفرادِ فئةٍ ما، أو أجزاءِ كلٍّ ما، يصدق أيضًا على الفئة (معتبَرةً كوحدةٍ واحدة) أو على الكل بوصفه كلاً.

ألا نَشهد كل يومٍ مدرِّبًا رياضيًا يستورد، من الخارج والداخل، خِيرةَ اللاعبين وأعلاهم سعراً، ويشكل منهم فريقًا كل أفرادِه نجومٌ متلألئة، فإذا بفريق الأحلام هذا يفشل فى كل المسابقات فشلاً مستغرَباً، لا تفسره مهاراتُ لاعبيه ونجوميتّهم. ذلك أن الفريق هو الكل العضوى المتآلِف وليس المجموع الجبرى لأعضائه.

يَعْرف ذلك أيضًا قائدو الأوركسترا المتمرسون. فقد تضم الأوركسترا أمهرَ العازفين قاطبةً ثم لا تتألف منهم فرقةٌ ناجحة؛ ربما لأن كل عازف من هؤلاء يكون مأخوذًا أكثر مما ينبغي بعرض براعته بحيث لا يأتي النغمُ الكلى وحدةً متسقة.

كذلك هو الحال فى ميادين القتال. فقد يَعِنُّ لقائد عمليات خاصة أنه حين يضم فى فَوجِهِ أقوى رجال الجيش جميعًا يستوى له أقوى فرق العمليات. غير أن قوة الفوج تعتمد على عوامل أخرى غير قوة كل جندى على حدة: تعتمد على انسجام الأداء وسرعته، والروح المعنوية للفريق وقدرته على العمل تحت أصعب الظروف وأقل الإمدادات.

تكمن المغالطةُ هنا فى عدم القدرة على إدراك أن الجماعة كيانٌ قائم بذاته ومتميز عن أعضائه، ويتصف من ثم بخصائصَ قد لا تنطبق على الأفراد. ومهما تقدم من بَيِّنَةٍ لإثبات جودة هؤلاء الأعضاء، كل على حدة، فإن هذه البينة غير ذات صلة حين يتعلق الأمر بتقييم الجماعة.

وكثيراً ما نشهد فى حياتنا الواقعية أموراً تَصدُق على الأفراد، أو قطاعات من الأفراد، غير أنها لا تعود كذلك إذا توسعنا فيها لتشمل الجماعة بأسرها: خذ الدعم الحكومى كمثال: تُدَعِّم الحكومة الحبوب فيستفيد المزارعون، وتدعم الجلود فيستفيد منتجو الجلود.. وهكذا. من التسرع رغم ذلك أن "نمد تقديرَنا الاستقرائى" extrapolation ونقول إن الاقتصادَ كله حقيقٌ بالفائدة إذا دعمنا جميعَ المنتجات. ذلك أن المزارعين ومنتجى الجلود لا يستفيدون إلا إذا كانوا ضمن فئة صغيرة تستفيد من الدعم على حساب كل فرد آخر. فإذا ما امتد المبدأُ ليشمل الجميع فإن كل فرد ينال الدعم، وكل فرد يدفع الضرائب للحكومة لكى تقدم الدعم، وكل فرد من ثَم يخسر الكثير مما يَصُب فى جيب البيروقراطية التى تدير هذه التحويلات!!

حين نُنْعِم النظرَ إلى مفهوم الـ "كل" Whole نجد لدينا صنفين من الكل: هناك "الكل البنائى أو التركيبى"(*) structured whole أى الكل "المركب" من أجزاء مثل: الآلة، فريق الكرة، العمل الروائى .. إلخ، وهو بالطبع أكثر من مجموع أجزائه. وهناك أيضًا "الكل غير التركيبى" unstructured whole أو الكل التراكمى، وهو كومة من الوحدات أو العناصر التى تؤلف هذا الكل. فى هذه الحالة يكون الكل هو مجرد

(*) وفقًا لـ "نظرية الأنظمة العامة" general systems theory ينطوى العالم على علاقات متبادلة بين جميع الظواهر واعتماد متبادل بين جميع الأشياء.فالكائنات الحية والمجتمعات والأنساق البيئية الكبرى ـ كلها أنساق أو أنظمة تتراتب فى هيئة بنيات متعددة المستويات، يتكون كل مستوى من أنظمة تحتية، كل نظام تحتى هو "كل" بالنظر إلى أجزائه وهو "جزء" بالنظر إلى النظام الأعلى الذى يندرج فيه. هكذا تجتمع الذرات فتكوِّن جُزَيئات، وتتحد الجزيئات فتكون بلورات أو لتكوِّن ـ فى الأحياء ـ عُضَيَّات (أعضاء الخلية)، والتى تتحد لتكوِّن الخلايا. ومن اجتماع الخلايا تتكون الأنسجة والأعضاء التى ترتبط معًا لتكون الأجهزة المختلفة؛ ومن تَضافر الأجهزة يتشكل فى النهاية الكائن العضوى (الإنسان،..)، ومن أفراد البشر تتكون الأمم، ويمضى التراتب صُعُدًا فتتكوَّن الأنظمة الأعلى التى تضم معًا مكونات حية وغير حية، وتشمل الأنساق البيئية، والكواكب والأنظمة الشمسية والمجرات.. إلخ.

للأنظمة الأكثر تعقيدًا، والتى تقع على مستوى أعلى فى التراتب، خصائصُ لا يمكن وصفُها بالحدود المستخدَمة فى وصف مكوناتها أو أنظمتها التحتية الواقعة على مستوى أدنى، دون إغفال جوانب هامة من تلك الأنظمة. مثل هذه الخصائص الجديدة التى تبزغ أو "تنبثق" فى التركيبات أو الأنساق الأكثر تعقيدًا تُسَمَّى "الخواص الانبثاقية" emergent properties، وبتعبير أبسط: حين تجتمع بعض المكونات لتُكَوِّن نظامًا (نسقًا) تبزغ لهذا النظام الأعقد صفاتٌ جديدة لا يمكن التنبؤ بها بشكلٍ كامل (فى مرحلتنا الراهنة من العلم على الأقل) من خلال صفات مكوناتها.

هكذا تلفتنا نظرية الأنظمة إلى حقيقة ما تفتأ تواجهنا على الدوام، وهى أننا قلما يتسنى لنا أن نستنبط خواص مفردات أكثر تعقيدًا من خواص مكوناتها. فخواص الماء مثلاً (كالسيولة والميوعة والخمول والتوتر السطحي..) هى خواص لا تشبه من قريب أو بعيد خواص الأوكسجين أو الهيدروجين. وهكذا تتجلى لنا مزالق النزعة الردية (الاختزالية) reductionism فى أوضح صورة: ذلك أن أنساق الطبيعة تنطوى على "جِدَّة" novelty حقيقية، وأن للمستوى الأعلى من مستويات الوجود صفاته الجديدة وقوانينه الخاصة التى يجب أن نتوجه إليها مباشرة ونقابلها على أرضها وندرسها بحقها الشخصي. (عادل مصطفى: أنثوية العلم، مجلة سطور،القاهرة، العدد ٩٧، ديسمبر ٢٠٠٤، ص ٨٥) .

مجموع عناصره لا أكثر. مثال ذلك حبات الفول فى العلبة أو حبات الرمل فى حفنة الرمل أو النسخ المفردة فى الرزمة. وفقًا لهذا التقسيم لمفهوم "الكل" يمكننا أيضًا تصور صنفين من مغالطة التركيب:

(١) مغالطة الانتقال غير المشروع من خصائص الأجزاء إلى خصائص الكل بوصفه كلاً. مثال ذلك أن نقول "كل جزء من أجزاء هذه الآلة خفيف الوزن، إذن هذه الآلة خفيفة الوزن". أو أن نقول "كل مشهد فى هذه المسرحية متقنٌ فنيًا، إذن هذه المسرحية متقنةٌ فنيًا". أو أن نقول "كل قطعة من الأسطول جاهزة للقتال، إذن الأسطول جاهزٌ للقتال".

(٢) مغالطة الانتقال غير المشروع من خصائص الأفراد أو العناصر إلى خصائص الفئة الكلية التى تضم هذه العناصر. مثال ذلك أن نقول "الباص يستهلك بنزينًا أكثر من السيارة الخاصة، إذن الباصاتُ (كفئة) أكثرُ استهلاكًا للبنزين من السيارات".

بوسعنا أن نردَّ هذا الصنفَ من مغالطة التركيب إلى الخلط بين الاستعمال "الإفرادى" **distributive** والاستعمال "الجَمعى" **collective** للحدود العامة أو الكلية. الحق أننا نستخدم أحيانًا الأسماء العامة، أو حتى كلمة "كل" نفسها، ونقصد بها "كل فرد" من الفئة معتبَرًا على حدة؛ ونستخدمها أحيانًا أخرى ونعنى بها "الفئة" ككل. نعم، الباصات تستهلك بنزينًا أكثر من السيارات الخاصة "إفراديًا" **distributively** أى باعتبارِ كلٍّ باصٍ وكل سيارة على حِدة، أما "من الوجهة الجمعية" **collectively** فالسياراتُ الخاصة أكثرُ استهلاكًا بكثير نظرًا لكثرتها العددية. تكمن المغالطة هنا فى القول بأن ما يمكن إسناده إلى اللفظة الكلية على نحوٍ "إفرادى" يمكن إسناده إليها أيضًا على نحو "جمعى".

متى يكون الانتقال من خصائص الأجزاء إلي خصائص الكل مشروعا ؟

الحق أن الانتقال بين خصائص الأجزاء وخصائص الكل يكون مشروعًا فى كثير من الأحيان (وربما فى أغلبها). إنما نهدف من تحليل المغالطات أن نضبط تفكيرنا فى جميع الأحوال، وأن نقف على الأساس المنطقى الذى يجعل نقلتنا الاستدلالية صحيحة ويَزَعنا من النقلات الخاطئة فى التأمل وفى الجدل. انظر إلى الأمثلة التالية وجميعُها صائبةٌ فى الانتقال من خصائص الأجزاء إلى خصائص الكل:

- جميع أجزاء هذا الكرسى بيضاء

إذن هذا الكرسى أبيض

- جميع أجزاء هذا الجلباب قطنية

إذن هذا الجلباب قطنى

- كل جزء من هذه الآلة حديدى

إذن هذه الآلة حديدية

ما الذى يجمع بين هذه الخصائص "أبيض للكرسي"، "قطنى للرداء"، "حديدى للآلة"، ويجعل الانتقالَ مشروعًا من الجزء إلى الكل؟

يَرُدُّنا هذا السؤال إلى تقسيمٍ للخصائص من حيث كونها:

- مطلقة أو نسبية

- معتمدة على البنية أو مستقلة عن البنية

الخصائص المطلقة: هى التى لا تنطوى على مقارنة، صريحة أو ضمنية، بشىء آخر، أو بمعيار أو محك. مثال ذلك أسماء الألوان، أو الخامة المصنوع منها شىء ما، أو الصفات المتعلقة بالشكل، أو الحقائق الثابتة مثل قابلية الاشتعال أو السُمِّيَّة أو قابلية

الأكل.. إلخ. أمثلة للخصائص المطلقة: أبيض، أحمر، قطنى، دائرى، مربع، سام، قابل للاشتعال..

الخصائص النسبية: هى التى تنطوى على مقارنة، صريحة أو ضمنية، بشيء آخر، أو بمعيار ما، مثل وزن الشيء، ومثل المقاسات (الطول والعرض والعمق والحجم..إلخ)، ومثل القوة، السعر، صفات الشخصية، المظهر.. إلخ.

الخصائص المستقلة عن البنية **structure-independent properties :** مثالها: أخضر، نحاسي، ثقيل، خفيف، قوي ..

الخصائص المعتمدة على البنية **structure-dependent properties :** مثالها: جيد، ردىء، مثلث، مربع، قوي، قابل للأكل..

خلص بعض المناطقة إلى أن الانتقال بين صفات الكل وصفات الجزء لا تكون مشروعة إلا فى حالة الخصائص "المطلقة المستقلة عن البنية"، وفيما عدا ذلك من الخصائص يكون الانتقال عرضة لخطأ التركيب والتقسيم.

أمثلة أخرى لمغالطة التركيب

- جميع أجزاء هذه الآلة خفيفة الوزن

  إذن هذه الآلة خفيفة الوزن

- جميع مكونات هذا العقّار رخيصة

  إذن هذا العقار رخيص

- كلا العددين ١ ، ٣ هو عدد فردي

  ١ ، ٣ هما كل أجزاء العدد ٤

  إذن العدد ٤ هو عدد فردى

- الذرات لا لون لها

الكرة مكونة من ذرات

إذن الكرة لا لون لها

- الصوديوم والكلور كلاهما سام للإنسان

إذن كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) سام للإنسان

- الهيدروجين غاز قابل للاشتعال، والأكسجين غاز يساعد على الاشتعال

إذن المادة المكونة من اجتماعهما (الماء) ينبغى أن تكون غازاً هائل الاشتعال.

- أعرف أنك تحب الحليب، وتحب التمر، وتحب السمك

وقد خلطتُها لك جميعًا فى هذا الطبق الذى تشتهيه!

- الفيل يأكل أكثر مما يأكله الفأر أضعافًا مضاعفة

إذن الفيلة (كفئة) تأكل أكثر مما يأكله جميع الفئران على الأرض

- القنبلة النووية أكثر تدميراً من القنبلة العادية

إذن القنابل النووية التى أُلقِيَت فى الحرب العالمية الثانية خلَّفَت دماراً أكثر مما خلفته جميع القنابل الأخرى

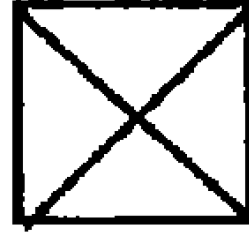
- كل عضو فى المحكمة العليا لديه تحيزاتُه الشخصية

إذن قرارات المحكمة ككل هى النتاج المحتوم لهذه العناصر الشخصية. (لاحظ أن فكرة القرارات الجمعية ذاتها هى أن تَجَمُّع المعرفة يمهد لحكمٍ أقرب إلى الصواب من حكم أى عضو واحد من المجموعة إذ يفكر بمفرده)

- أفاد أحد أعضاء المجلس بأن فرض تعريفة على اللحوم سوف يفيد منتجى اللحوم، وفرض تعريفة على الفحم سوف يفيد عاملى المناجم، وفرض تعريفة

على لعب الأطفال سوف يفيد منتجي اللعب، وبالتالى فإن فرض تعريفة على كل السلع سوف يفيد منتجيها، وبالتالى سوف يفيد المجتمع ككل. (لاحظ أن جميع المنتجين هم أيضًا مستهلكون، وبالتالى فإن فرض تعريفة على كل شيء قد يكلف الناس، إجماليًا، أكثر مما يفيدهم. كما أنه يفضى إلى مضاعفات وخيمة على التجارة الدولية وعلى الإنتاج المحلى).

- جميع أجزاء هذا الشكل مثلثة



إذن هذا الشكل مثلث!

مغالطة التقسيم

division

مغالطة التقسيم هى، ببساطة، مقلوبُ مغالطةِ التركيب أو ظلُّها؛ أى إضفاء خصائص الكل على المكونات، أو الانتقال غير المشروع من خصائص الكل إلى أجزائه المكونة. يقع المرء فى هذه المغالطة حين ينسب إلى أفراد جماعة شيئًا لا يَصدُق إلا على الجماعة كوحدة، أو حين يظن أن ما يصدق على الكل لا بد له من أن يصدق أيضًا على أجزائه.

يمكننا تصنيف هذه المغالطة أيضًا، وفقًا لتصنيف مفهوم "الكل إلى "كلٍّ تركيبى بنيوى" و "كلٍّ تراكمى غير بنيوى"، إلى نوعين:

(١) مغالطة الانتقال غير المشروع من خصائص الكل بوصفه كلاً إلى خصائص أجزائه المكوِّنة. مثال ذلك أن تقول: هذه الآلة ثقيلة، أو معقدة أو ثمينة، إذن هذا الجزء أو ذاك من الآلة هو بالضرورة ثقيل (أو معقد أو ثمين). أو أن تقول إن سكن الطلاب ضخم جداً، إذن غرفة هذا الطالب المقيم فى هذا السكن لا بد من أن تكون غرفة كبيرة.

(٢) مغالطة الانتقال غير المشروع من خصائص الفئة الكلية إلى خصائص الأفراد أو العناصر المكونة لهذه الفئة. مثال ذلك أن تقول: إن طلاب الجامعة يدرسون الطب والهندسة والقانون والأسنان والعمارة، إذن هذا الطالب الجامعى أو ذاك يدرس الطب والهندسة والقانون والأسنان والعمارة. ذلك أن طلاب الجامعة "من الوجهة الجمعية" collectively يدرسون فعلاً كل هذه الأفرع، غير أن من الخطأ أنهم "إفرادياً" distributively يدرسون كل هذا. وكثيراً ما تبدو الحجج المعتمدة على هذه المغالطة شبيهة جداً بالحجج الصائبة، وذلك لأن من الحق أن ما يصدق "إفرادياً" على الفئة الكلية يصدق أيضًا على كل عضو فيها (إذا كانت الجماعة س مثلاً هم من الأطباء، فمن البين أن هذا العضو أو ذاك فى هذه الفئة هو بالضرورة طبيب)؛ ومن ثم ينبغى التفطن إلى المغالطة الخفية التى تنتقل من صفة تصدق "جمعياً" على فئة كلية وتلصقها بكل فرد من أفراد هذه الفئة (مثال ذلك: التعليم فى الأردن رفيع المستوى، إذن هذا الخريج الأردنى رفيع المستوى)

كثيراً ما تستخدم مغالطة التقسيم لجلب شرف شخصى إلى حوزتنا بفضل انتمائنا لفئة تستحق التقدير. مثال ذلك أن أقول لك:

"المصريون نوابغ فى الطب منذ أقدم العصور، إذن دع لى هذا المريضَ وكن مطمئنًا".

وكثيراً ما تُستخدَم، بنفس القياس، لجلب الخزى إلى مناوئينا بسبب انتمائهم لفئة موصومة بشىء معين.

أمثلة أخرى لمغالطة التقسيم

- العدد ٤ عدد زوجى

١ ، ٣ هما كل أجزاء العدد ٤

إذن ١ ، ٣ هما عددان زوجيان

– الكرة زرقاء

إذن الذرات التى تكوِّن الكرة هى أيضًا زرقاء

– الخلية الحية هى مادة عضوية

إذن المواد الكيميائية المكونة للخلية لا بد من أن تكون أيضًا مادة عضوية

– كلوريد الصوديوم (ملح الطعام) مادة قابلة للأكل

إذن كل من الكلور والصوديوم هو مادة قابلة للأكل

– القنابل التقليدية أحدثت دماراً أكثر مما أحدثته قنبلتا هيروشيما وناجازاكى فى الحرب العالمية. إذن القنبلة التقليدية أشد تدميراً من القنبلة النووية.

– هذا الجدار القرميدى طوله عشرة أقدام

إذن قوالب القرميد فى هذا الجدار طولها عشرة أقدام

– المخ قادر على التفكير والوعى

إذن كل خلية مخية قادرة على التفكير والوعى.

– مجلس الوزراء متردد فى اتخاذ القرار

إذن الوزراء مترددون فى اتخاذ القرار. (لاحظ أن المجلس، معتبَراً ككل، قد يكون متردداً لا لشىء إلا لأن نصف أعضائه يرون بحسمٍ عكس ما يراه النصف الآخر بحسمٍ مثلِه)

– يستطيع النمل أن يدمر شجرة

إذن هذه النملة تستطيع أن تدمر شجرة

– الشعراء فى مصر ينقرضون

إذن الشاعر مسعد عبد العاطى ينقرض .

الفصل الرابع والعشرون

إثبات التالى

affirming the consequent

العبارة الشرطية conditional هى العبارة التى تضع شرطًا condition (يُسمَّى المقدَّم antecedent ثم تمضى (فى "التالى" consequent) لتتحدث عما يلزم عن هذا الشرط ، أى لتتحدث عما يكون عليه الحال إذا ما تحقق هذا الشرط . وفى مغالطة إثبات التالى يتم الانتقال فى الاتجاه العكسى ، من إثبات التالى إلى إثبات المقدَّم.

فى كتابه " المنطق الصورى والرياضى" يقول د. عبد الرحمن بدوى." يقع المرء فى هذه الأغلوطة حينما يعتقد أن الشرط ولازمَةُ (أى المُقدَّم والتالى) فى القضية الشرطية منعكسان ، أى أن بوسعه أن يعكس القضية فيمضى من التالى إلى المقدَّم ، مثلما هو يمضى من المقدم إلى التالى ؛ كأن يقول :

إذا كان الحكم النيابى صالحًا لمصر لبقى فيها مدة طويلة

ومادام الحكم النيابى قد بقى فى مصر مدة طويلة

إذن هو حكم صالح لمصر

وترتكب هذه الأغلوطة فى كل حالة نعتقد فيها أن نظرية ما صحيحة لأن نتائجها التى لابد أن توجد إذا كانت صحيحة هى نتائج موجودة – فنظن أن التحقيق Verification كافٍ للبرهنة على صحة النظرية . والاستنتاج فى هذه الأحوال لا يكون صحيحًا إلا فى الحالة التى نجزم فيها بأن هذه النظرية وحدها هى التى تفسر حدوث هذه النتائج . وفيما عدا ذلك لا يكون الاستنتاج مفيداً لليقين(*).

(*) عبد الرحمن بدوى : " المنطق الصورى والرياضى " ، ص ٢٤٦.

يرى البعض أن هذا فى حقيقة الأمر هو أساس المنهج العلمى : فإذا كانت النظرية العلمية أ يلزم عنها التنبؤ ب ، فإن كل ملاحظة صادقة للتنبؤ ب تزيد من احتمال صدق النظرية أ .

إذا صَدَقَت النظرية أ لَوُجِدَ التنبؤ ب

التنبؤ ب موجود

إذن النظرية أ صادقة

وهو كما ترى مأزق حقيقى تقع فيه نظرية "التحقيق" verification (أو التأييد confirmation)؛ فمهما جمعنا من ملاحظات عن ب التى تلزم عن أ فسوف يظل هناك احتمال قائم أبداً بأن تأتى الملاحظة القادمة مكذِّبةً للنظرية أ .

* * *

والآن انظر إلى الحجة التالية :

إذا كان شيءٌ ما إنسانًا فهو إذن فان

سقراط إنسان

إذن سقراط فان

إنها بالطبع حجة صائبة تمامًا ولا غبار عليها البتة . ولكن انظر إلى الحجة القادمة التى يتم فيها عكس القضية والمضى من إثبات التالى إلى البرهنة على المقدَّم :

إذا كان شيء ما إنسانًا فهو فان

سالى فانية

إذن سالى إنسان

وهنا يتبدى الخطأ بوضوح ، فالحق أن سالى قد تكون قطة، فانية بكل تأكيد، ولكنها ليست إنسانًا . وانظر إلى الحجة التالية :

إذا كنتُ أنا أطول من سلمى ، لكانت سلمى قصيرة

سلمى قصيرة

إذن أنا أطول من سلمى

ومن الشائق حقًا أن دراسةُ أجريت على الأشخاص غير المدربين فى المنطق قد كشفت أن أكثر من ثلثى المشاركين يقبلون مثل هذه الحجج المغلوطة(*) . إنها حجج تتشبَّه بالحجة الأولى الصحيحة التى صورتها :

إذا كان أ كان ب ، وما دام هناك أ ، إذن هناك ب

أو بتعبير آخر : إذا أ إذن ب

أ

إذن ب

غير أنها تختلف عن هذا اختلافًا مهمًا ، لأن صورتها كالآتى :

إذا كان أ كان ب ، ومادام هناك ب ، إذن هناك أ

أو بتعبير آخر : إذا أ إذن ب

ب

إذن أ

(*) Stephen Law : "The Philosophy Gym", Headline. Book Publishing, London, 2003, p. 275.

فالمشكلة هنا هى وجود افتراض مضمر مفاده أن أ فقط هى التى يلزم عنها ب، وهو افتراض لم يرد فى القياس . ذلك أن قياس الحجة يترك الاحتمالات مفتوحة لأشياء أخرى يلزم عنها ب . يمكن أن يُترجَم هذا إلى الصورة التالية :

إذا أ إذن ب

إذا ج إذن ب

ب

إذن أ

وهو كما ترى قياس بَيِّن الخطأ. ولا يصح عكس القضية الشرطية إلا إذا أخذت صورة : إذا وفقط إذا ، إذن ب **If, and only if, A then B**

* * *

يندر أن ينخدع أحدٌ بهذه المغالطة حين تأتى فى صورة صارخة فَجَّة ، غير أنها

. قد تخفى على أحد بهذه المغالطة حين تأتى فى صورة صارخة فَجَّة، غير أنها قد تخفى على أفطن الناس عندما تأتى متسربلةً بنصوصٍ جليلة أو مشحونة بعواطف قوية . وكثيراً ما نصادف هذه الخطأ المنطقى فى الإعلانات التلفزيونية والخطب والسياسة.

إذا كنت فتى رياضياً جذاباً قوى الشخصية فسوف ترغب فى شراء سيارة BMW وباقى القياس مضمَر تقديره .

أنتَ ترغب فى شراء سيارة BMW

أنتَ ، إذن ، فتى رياضى جذاب قوى الشخصية.

ومن الثابت المسجل تاريخيًا أن كلا الطرفين فى المناقشات عن الإرهاب فى بريطانيا قبل تفجيرات ٧ يوليو ٢٠٠٥ كانا يستخدمان هذه المغالطة . فقد كان بعض

أعضاء الحكومة البريطانية يُحاجُّ بأن القوانين البريطانية المضادة للإرهاب كافية لمنع أى هجمات إرهابية . ومن حيث إنه لم تحدث هجماتٌ إرهابية فى بريطانيا ، إذن القوانين البريطانية المضادة للإرهاب كافية :

إذا كانت القوانين المضادة للإرهاب كافية فلن تحدث إذن هجمات إرهابية

لم تحدث هجمات إرهابية.

إذن القوانين المضادة للإرهاب كافية.

هكذا استخدم أعضاء الحكومة البريطانية حجة "إثبات التالى" affirming the consequent ، والتى تبين خطؤها فى ٧ يوليو ٢٠٠٥ . أما الطرف الآخر ، أنصار الحريات المدنية ، فقد حاجوا بأنه لا حاجة لبريطانيا إلى قوانين جديدة ؛ لأن الإرهابيين لا يستهدفون سوى الولايات المتحدة . وكان تبريرهم لذلك هو أنه لو كان الإرهابيون مَعنيين بمهاجمة بريطانيا لحدث هجماتٌ إرهابية ، وهو ما لم يحدث :

إذا كان الإرهابيون معنيِّين ببريطانيا لحَدَثَت هجماتٌ إرهابية

لم تحدث هجمات إرهابية .

إذن الأرهابيون غيرُ معنيين ببريطانيا

وهو أيضًا مثال لـ "إثبات التالى "affirming the consequent الذى تَبَيَّنَ خطؤه فى السابع من يوليو ٢٠٠٥.

أمثلة أخرى لمغالطات إثبات التالى :

- إذا كنتُ فى الإسكندرية فأنا فى مصر.

أنا فى مصر

إذن أنا فى الإسكندرية .

- إذا كانت الطاحونة تلوث مياه النهر لزادت حالات موت الأسماك.

حالات موت الأسماك فى ازدياد .

إذن الطاحونة تلوث مياه النهر (من الواضح أن موت الأسماك يمكن أن يحدث لأى سبب آخر ، كاستخدام المبيدات الحشرية).

- أنت تكذب فى قولكَ ، وأنتَ لا تجيد الكذب فيحمر وجهك دائمًا عندما ترتكبه ، وها هو وجهك متورد وأنتَ تتحدث.

- إذا سقط المطر لابتل الرصيف.

الرصيف مبتل

إذن لا بد من أن يكون المطر قد سقط (قد تكون البلدية قد غسلت الرصيف للتو!)

- إذا كان ستيفن كينج هو الذى كتب الأناجيل لكان كاتبًا رائعًا .

ستيفن كينج كاتب رائع

إذن ستيفن كينج هو الذى كتب الأناجيل

- جميع الفصاميين يتصرفون بطريقة غريبة.

هذا الشخص يتصرف بطريقة غريبة .

إذن هذا الشخص فصامى .

- إذا كان هذا المتهم أهلاً للمحاكمة فسوف يجيب بالتأكيد عن ٨٠٪ على الأقل من أسئلة هذا الاختيار.

هذا المتهم أجاب عن ٨٧٪ من أسئلة الاختيار.

إذن هذا المتهم أهل المحاكمة (بالطبع قد يكون فاقداً للأهلية لدواعٍ أخرى لا يحصرها الاختبار).

- إذا حظرنا مباريات الكرة بجميع مستوياتها لقضينا على ظاهرة الشغب فى الملاعب

القضاء على ظاهرة الشغب فى الملاعب أمر مرغوب.

إذن حظر المباريات جميعًا أمر مرغوب .

- إذا حظرنا كل علاقة جنسية لقضينا على مرض الإيدز

القضاء على مرض الإيدز أمر مرغوب

إذن حظر العلاقات الجنسية أمر مرغوب

- إذا كان لسالى جِراءٌ فإنها بالضرورة كلبةٌ أنثى

سالى كلبة أنثى

إذن سالى لها جراء.

* * *

إنكار المقدَّم

denying the antecedent

قلنا إن القضية الشرطية هى العبارة التى تضع شرطًا (يسمى "المقدَّم" **antecedent**) ثم تمضى (فى "التالى" **consequent**) لتتحدث عما يكون عليه الحال إذا ما تحقق هذا الشرط ، أى ما يلزم عن هذا الشرط . وفى مغالطة إنكار المقدم تقرر

المقدمة الأولى عبارة شرطية ثم تقوم المقدمة الثانية بإنكار مقدم هذه العبارة الشرطية (أى إنكار اللازم الذى يترتب على الشرط).

وبعبارة أخرى : يقع المرء فى مغالطة إنكار المقدم إذا قام فى قضية شرطية ينفى المقدم واستنتج من ذلك نفى التالى ، كما فى المثال الآتى :

إذا كنتُ نائمًا فإن عينى تكون مغمضة

أنا لست نائمًا

إذن عينى ليست مغمضة

وصورته : إذا إذن ب

لا أ

إذن لا ب

إن حقيقة أن عينى تكون مغلقة أثناء النوم لا تمنع احتمال أن أغلقها وأنا فى تمام اليقظة . غير أن هذا النوع من الاستنباط قد يكون خادعًا جدًا إذا كان مطمورًا فى حجة أكثر تعقيدًا ؛ وذلك بسبب الخلط بين معنى "إذا" ومعنى "إذا وفقط إذا" . فالحق أن الحجة السابقة تكون صائبة إذا كانت المقدمة الأولى تقرر أننى لا أغلق عينى إلا عندما أكون نائمًا.

يكثر استخدام هذه المغالطة من قِبَل المحامين ، إذ يدَّعون أن غيابَ دليلٍ معين هو برهانٌ على براءة المتهم . فإذا اختفى الشخص س ، مثلاً ، والذى تشير الأدلة إلى أن المتهم قد قام بقتله ، فإن المحامى قد يدفع بأنه من دون جثة بالإمكان إثبات القتل:

إذا عُثِر على جثة س فقد يكون مُوكِّلى قد قتله

لم يُعثَر على جثة س

إذن موكلى لا يمكن أن يكون قد قتل

وهى كما ترى مغالطة يعبَّر عنها بالمبدإ المأثور "غياب الدليل ليس دليلاً ، وإن تكن المغالطة أعقد من ذلك" .

أمثلة أخرى لمغالطة إنكار المقدَّم :

- كل الطيور لها أجنحة .

الخفاش ليس من الطيور .

إذن الخفاش ليس له أجنحة (بالطبع كون الطيور جميعًا ذوات أجنحة لا يمنع أن تكون هناك مخلوقات أخرى ، كالحشرات والخفافيش ، ذات أجنحة).

- سعيد يلعب الشطرنج دائمًا على الغداء يوم الأربعاء.

وبما أن اليوم هو الخميس،

إذن من المحال أن سعيداً يلعب الشطرنج الآن .

(بالطبع لا شىء يمنع سعيداً من أن يلعب الشطرنج فى الأيام الأخرى).

- إذا كانت السماء تمطر فإن الرصيف يكون مبتلاً .

السماء لا تمطر منذ أسبوع .

إذن الرصيف لا بد من أن يكون جافًا .

(بالطبع ليس هناك استحالة فى أن يكون الرصيف قد تم غسله للتو).

- إذا كنتُ فى الإسكندرية فأنا إذن فى مصر .

أنا لست فى الإسكندرية

إذن أنا لست فى مصر

– كل الطماطم حمراء (إذا كان شيء ما هو طماطم فلا بد من أن يكون أحمر).

هذا ليس من الطماطم

إذن هذا ليس أحمر .

– إذا كانت سياساته ناجعة فإن البطالة سوف تنكمش .

ولكن سياساته غير ناجعة

إذن البطالة لن تنكمش

(بالطبع قد تكون هناك أسباب تفضي إلى انكماش البطالة رغم سوء السياسات)

– إذا كان هذا الاختبار قائماً على معايير مخادعة فسوف يكون إذن معياراً غير صادق

ولكن المعايير ليست مخادعة .

إذن فالاختبار صادق .

* * *

الفصل الخامس والعشرون

ذَنْبٌ بالتداعى

guilt by association

يقع المرء فى هذه المغالطة حين يذهب إلى أن رأيًا ما هو باطلٌ بالضرورة بالنظر إلى مُعتنقِيه ، أو أن دعوى معينة هى كاذبةٌ لا لشىءٍ إلا لأن أناسًا يبغَضُهم يقبلونها ويأخذون بها ؛ فيعمد إلى رفضِ الدعوى لأنها "مرتبطةٌ" فى ذهنه بما لا يجب .

تستمد هذه المغالطةُ سطوتها من ميلٍ فطرى لدى البشر جميعًا : فالإنسان لا يحب أن يُقْرَنَ بمن لا يحب . لكأنما الحق أو الباطل ينتقل بـ " التداعى" association من أصحاب الشىء إلى الشىء ، أو من أنصار الرأى إلى الرأى .

يتخذ هذا الاستدلال الصورة التالية :

من الثابت أن أناسًا (أنظمة جماعات...) يبغضهم الشخص س
يقبلون الدعوى ص

إذن ص كاذبة

غنى عن البيان أن هذا استدلال خاطئٌ فاحش الخطأ : إنَّ نفورَ المرء من أن يقرن بمن يبغضهم هو أمر سيكولوجى لا دخل له بصدق القضايا ، ولا يبرر رفض أى دعوى . إن سفلة الناس يعتقدون (شأنهم شأن عليتهم) بكروية الأرض ؛ فهل ينال ذلك من هذه الحقيقة ؟! أو هل ينبغى أن يسوءنا الاقتران بهم حين نعتقد فى هذا الأمر اعتقادهم ؟!

كانت المكارثية ذات يوم صيغةً خاصةً من مغالطة "ذنبٌ بالتداعى"(*) : إذا كان الشخصُ ، أو المنظمة أو الرأى ، يُقرَن على نحوٍ ما بالشيوعية . وكان الاقتران يعقد من خلال فكرة مشتركة . من ذلك أن دعاة الحقوق المدنية ، مثل مارتن لوثر كنج ، كانوا يتهمون بالشيوعية ، بالنظر إلى أن الشيوعيين يؤيدون ، هم أيضًا ، الحقوق المدنية . ولتبيان هذا الخطأ نعيد صياغة هذه الحجة فى القياس التالى :

جميع الشيوعيين من دعاة الحقوق المدنية

مارتن لوثر كنج من دعاة الحقوق المدنية

إذن مارتن لوثر كنج شيوعى

وهو قياسٌ خاطئ صورياً . وكثير من الأمثلة الأخرى لمغالطة "ذنب بالتداعى" تقع فى نفس الخطأ .

أمثلة أخرى :

(١) كان النازيون دعاةً لـ "اليوجينيا " (تحسين النسل) **eugenics**

إذن لا بد من أن يكون تحسين النسل شراً مستطيراً .

(٢) كان هتلر نباتياً **vegetarian**

إذن النباتية إثم ينبغى اجتنابهُ

(*) عرضنا فى فصل " الاحتكام إلى الجهل" **ad ignoratiam** الرذيلة التى كان يرتكبها السيناتور جوزيف مكارثى، وهى : " نقل عبء البينة " أو تأسيس الادعاء على عدم وجود أدلة تكذب الادعاء !.

(٣) كيف تؤيد ملكية الدولة للصناعات الحيوية ؟ ألا تعلم أن ستالين أيضاً كان يفعل ذلك ؟

(٤) كيف تضيف الثومَ إلى الثريد (الفتّة) ؟ ألا تعلم أن اليهود أيضاً يفعلون ذلك؟

(٥) لم أوت أبداً للدكتور حسان لعمادة الكلية . أعرف أنه أجدر المرشحين وأكثرهم كفاءة ونزاهة ، ولكن أعرف أيضاً أن الخنزيرين سلمان ومؤنس يؤيدانه ويصوتان له.

(*) Stephen Law : "The Philosophy Gym", Headline. Book Publishing, London, 2003, p. 275.

الفصل السادس والعشرون

مغالطة التأثيل

etymological fallacy

"يُوشِكُ هُوَاةُ قُلْ ولا تقُلْ أن يُغادِروا الناسَ وهي لا تقولُ ولا تقول"

"اللغةُ هي.. ما يقولُه الناس!"

ثمة اعتقادٌ خاطئٌ يَقِرُ في أذهان الكثيرين مُفادُه أن المعنى الحقيقي لأي كلمة يجب أن يُلتمَس في الأصل التاريخي الذي أتت منه الكلمةُ، أو ما يسمى في اللسانيات بـ "التأثيل" etymology وهو اعتقادٌ فيه تبسيطٌ مُفرط لطبيعة اللغة ومنشئها وقوانينها المُسَيِّرة.

من ذلك أن كلمة "فنان" تأتي من كلمة "فن" وهو اللون (في لسان العرب: قال أبو منصور واحدُ الأفنانِ إذا أردتَ بها الألوانَ فن). قد تُلقي هذه المعلومةُ ضوءاً ما على استخدامنا الحديث لكلمة "فن" وكلمة "فنان"؛ غير أنه ضوءٌ شحيحٌ واهنٌ لا يغني كثير غناء في دراستنا لمعنى الفن وفلسفته وتجلياته وتذوقه وتقويمه ووظيفته في الزمن المعاصر والأزمنة السالفة.

وليس ما يمنع أن ينبري متحذلقٌ بتسفيه كلِّ أدبٍ شفاهي مرويٍّ، باعتبار أن كلمة literature (أدب) مشتقةٌ من الكلمة اللاتينية litera التي تعني الحرف الأبجدي (المكتوب).

ولا ما يمنع أن يجبهنا متحذلقٌ آخر بأن التعليم لا ينبغى أن يكون إلزاميًا؛ باعتبار أن كلمة "education (تعليم) مشتقةٌ من الكلمة اللاتينية educere التى تعنى يغريه بالكلام بحرية، وقد تفيد معنى الملاطفة والاجتذاب كمقابلٍ للقَسْرِ والإرغام.

يعنى ذلك إذن أن كلمة "prevent (يمنع) كان ينبغى لها أن تعنى "يسبق" أو "يستبق" لأنها مشتقة من الكلمة اللاتينية prae وتعنى "قبل" وكلمة venire وتعنى "يذهب"!

أو أن كلمة "nice كان ينبغى أن تكون لفظةَ ازدراءٍ وقَدْحٍ لأنها مشتقةٌ من كلمةٍ فرنسية قديمة تعود إلى القرن الثالث عشر وتعنى "أحمق" أو "غبى"!

إنما يُعَوِّلُ مستخدمو اللغة على السياق لاستشفاف المعنى المقصود للكلمة(*)، ولا يفكرون كثيراً فى "التأثيل" etymology، أى رد الكلمة إلى أصلها التاريخى، والذى قد لا يكون واضحًا على الإطلاق وبخاصة إذا كان مؤسَّسًا على لغةٍ أجنبية أو لغةٍ قديمةٍ بائدة.

تتناسى مغالطة التأثيل أن اللغة ليست كيانًا كلسيًا ثابتًا، وأن هناك تغيراتٍ كثيرةً تعترى اللغة، منها التغير الصوتى، والتغير النحوى، والتغير الدلالى (وهو ما يعنينا فى هذا المقام). وللتغير الدلالى semantic change أنواع عديدة منها ما يعرف بـ "الانحدار الدلالى" semantic deterioration وهو تغير يلحق بمعنى اللفظة فيكسبها دلالةً سلبية. مثال ذلك ما حدث لكلمة "notorious التى كانت فى الأصل تعنى "مشهور" ثم انحدرت دلالتُها وصارت تعنى "مُشَهَّر" أى مشهور بشيءٍ قبيح؛ وكلمة "dogmatic" التى كانت تعنى "موقن" أو "راسخ الاعتقاد" وصارت الآن تعنى "جازم متصلب غير عقلانى فى اعتقاده". وتقابل ظاهرةَ الانحدار الدلالى ظاهرةُ "التحسن الدلالى" "amelioration" حيث تكتسب اللفظة دلالة إيجابية أو يزايلها ما كان لها فى الأصل من دلالةٍ سلبية. مثال ذلك كلمة "minister (وزير) فقد كانت قديمًا تعنى "خادم" (وما تزال تُستعمَل كفعلٍ بمعنى يسعِف أو يعين أو يقدم خدمة)، وكلمة "nice" سالفة الذكر والتى كانت تعنى قديمًا "غبى" أو "أحمق". وهناك أمثلةٌ أخرى يخطئُها الحصر.

(*) أو يرجعون إلى التعريف الصريح لرفع الالتباس. انظر تفصيل ذلك فى "مغالطة الالتباس" fallacy of ambiguity.

كان منهجُ اللسانيات التاريخية فى القرن التاسع عشر وما قبله يعتمد على تتبع السببية التاريخية التى تفسر الظاهرة اللغوية بناء على أسباب تاريخية. وكان "التأثيل"، أى دراسة أصل الكلمات وتطورها هو وسيلتها المفضلة. يشير جون لاينز J. Lyons فى كتابه "اللغة واللسانيات ـمدخل" إلى أن إحدى المدارس الإغريقية فى القرن الخامس الميلادى كانت تقول إن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة طبيعية وليست اصطلاحية، وأنها اتخذت المنهج التأثيلى سبيلاً لإثبات أن أصل الارتباط بين الدال والمدلول فى كلمةٍ ما هو أصل طبيعى وليس اصطلاحياً. وباتباع هذا النهج فإنهم فى الواقع يبحثون عن الحقيقة الخافية على الناظر العادى فى العلاقة الظاهرة بين الدال والمدلول. وبعد تحليل عميق للتغيرات التى حدثت لمبنى كلمةٍ ما أو لمعناها بغرض اكتشاف أصل الكلمة، ثم، بناء على ذلك، معناها الحقيقى فإنهم يصلون إلى حقيقة من حقائق الطبيعة(*).

لقد كانت المسألة الهامة التى أثارها الإغريق والتى تركت بصماتها على الدراسات اللغوية اللاحقة حتى عصرنا الحاضر، تتعلق بطبيعة اللغة ونشأتها. فقد رأى بعضهم، ومنهم أفلاطون، أن اللغة ظاهرة طبيعية، وأن الكلمات وأصواتها جزء لا يتجزأ من المعنى؛ بينما رأى الفريق الآخر، ومنهم أرسطو، أن اللغة ظاهرة اجتماعية وأن أصواتها رموز اصطلاحية ليس لها بالمعانى علاقة طبيعية أو مباشرة. وقد نشأت عن هذا الاختلاف النظريتان المعروفتان: النظرية التوقيفية والنظرية الاصطلاحية (أو التواضعية)، واللتان امتد الجدل فيهما حتى العصر الحاضر. وقد نشأ عن النظرية الأولى نظريات متعددة عن أصل اللغات جميعًا منها: أن اللغة "توقيف" ووحى من الله، ومنها أن أصل اللغات جميعاً يرجع إلى محاكاة أصوات الطبيعة أو أصوات الحيوانات إلى آخره، ووصل الأمر بالبعض إلى أن يقول إن للصوت بحد ذاته قيمة تعبيرية(**).

(*) د. محمد محمد على يونس: "مدخل إلى اللسانيات"، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس ليبيا، ٢٠٠٤، ص ٦٣

(**) د. نايف خرما: "أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة"، عالم المعرفة، الكويت، عدد رقم ٩، سبتمبر ١٩٧٨، ص٩٦

وقد تأثر العرب بكلتا المدرستين، واتخذ بعضهم، مثل ابن فارس في القرن الرابع الهجري، موقف المدافع عن النظرية التوقيفية، واتخذ آخرون، مثل ابن جِنِّي، النظرية الاصطلاحية. يقول ابن جني "إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضعٌ واصطلاح، لا وحيٌ وتوقيف". كان ابن فارس يستشهد في نظريته التوقيفية بالآية الكريمة "وعَلَّمَ آدمَ الأسماء كلها"؛ أما ابن جني فيؤوِّل الآية بأن المقصود بكلمة "عَلَّمَ" هو "أقْدَرَ" أي أن الله أعطى آدم القدرة على الكلام والتسمية وترك له الوضع والاصطلاح بالنسبة للتفاصيل(*).

إن المشكلة التي يقع فيها أنصارُ المنهج التأثيلي هي ما سماه لاينز "مغالطة التأثيل" etymological fallacy، ذلك أنهم يحتجون بأن كلمةً ما تعود إلى أصل إغريقي أو لاتيني أو عربي أو غيره ولذا فإن معناها ينبغي أن يكون مطابقًا لما كانت عليه في الأصل. ويبدو زيفُ هذه الحجة في أن الافتراض الضمني بوجود صلة حقيقية أو مناسبة بين المبنى والمعنى، وهو ما تقوم عليه هذه الحجة، لا يمكن التحقق منه(**).

وشبيه بهذا ما يفعله بعض الباحثين عندما يفسرون المعنى الاصطلاحي لمفهوم ما بمعناه اللغوي مع أن احتمال ألا يكون المعنى الاصطلاحي مرتبطًا بالمعنى اللغوي أمر وارد. وقد سبق لابن تيمية (٧٢٨هـ - ١٣٢٨م) وابن قيِّم الجوزية (٧٥١هـ - ١٣٥٠م) أن اعترضا على استخدام أنصار المجاز المنهج التاريخي في التمييز بين الحقيقة والمجاز مع صعوبة التثبت من أصل اللفظ، وعدم وجود ما يفيد تاريخيًا بسبق أحدهما على الآخر(***).

(*) المرجع السابق، ص ٩٨

(**) John Lyons, Language and Linguistics: An Introduction, (Cambridge: Cambridge University Press, 1981), p. 55.

(***) د. محمد محمد يونس علي: مدخل إلى اللسانيات، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس _الجماهيرية الليبية، ٢٠٠٤، ص ٦٣

غير أن ما تَكَشَّفَ للتأثيليين وسَلَّمَ به اللسانيون عامة فى الوقت الحاضر هو أن معظم الكلمات فى معجم أية لغة لا يمكن أن تعزى إلى أصولها. وقد انتكس المنهج التاريخى بعد دعوة فرديناند دى سوسير(١٨٥٧-١٩١٣) إلى الفصل بين الدراسات التزامنية والدراسات التاريخية، وتكريسه لمبدأ "اعتباطية العلامة اللغوية" arbitrariness of signs (أى العلاقة الاعتسافية بين الدال والمدلول) على نحوٍ نهائى حاسم.

يقول دى سوسير فى "محاضرات فى علم اللغة العام" (التى جمعها تلامذته بعد وفاته): "إن علاقة الدال signifier بالمدلول signified هى علاقة اعتباطية أو تعسفية arbitrary فكلمة "أخت" مثلاً ليست مرتبطة بأية علاقة باطنة مع السلسلة المتتابعة من الأصوات: أ، خ، ت التى تُستعمَل كدال بالنسبة لهذه الفكرة. إذ يمكن تمثيلها بسلسلة أخرى من الأصوات. والدليل على ذلك هو الفروق القائمة بين اللغات، بل وجود لغات مختلفة: فللمدلول "ثور" الدال ث، و، ر فى محيطٍ معين، و B, O, E, U, F فيما وراءه. فإذا كان "الرمز" symbol (كالأسد للشجاعة والميزان للعدالة) مرتبطًا بمعناه بعلاقة طبيعية لا تنفصم، فإن العلاقة بين الدال والمدلول فى العلامة اللغوية لا تقوم على أية رابطة طبيعية"(*).

يعود الفضل أيضًا لسوسير فى إقامة التفرقة الحاسمة بين اللغويات السينكرونية (التزامنية/التواقتية) واللغويات الدياكرونية (التعاقبية/التاريخية) فى الدرس اللغوي، ومنح الصدارة للسينكرونى على الدياكرونى، وذلك عندما نظر إلى اللغة فى صميم نشاطها الوظيفى الفعلى فوجد أن الوجه السينكرونى للغة بالنسبة للجماهير المتكلمة هو الذى يمثل الحقيقة الواقعية لكل نشاط لغوى. وقد كانت اللغويات الدياكرونية هى السائدة فى القرن التاسع عشر، فجاء سوسير لكى يؤسس علم اللغة الحديث على

(*) لمزيد من التفصيل فى هذا الجانب اللغوى الهام انظر كتاب فرديناند دى سوسير "علم اللغة العام" ترجمة الدكتور يوئيل يوسف عزيز، بيت الموصل، توزيع الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٨

قطيعة مع التقليد اللغوى السائد، ولفت الانتباه إلى أهمية الدراسة الوصفية التى تقتصر على النظر إلى "حالات" اللغة، وضرورة استبعاد العامل التاريخى عند دراسة حالة من حالات اللغة. فاللغة عند سوسير هى مجرد نسق أو نظام وتؤدى وظيفتها باعتبارها "بنية" أو "نسقًا" لا ينطوى فى ذاته على أى بعد تاريخى. من ذلك مثلاً أن تاريخ كلمةٍ ما كثيراً ما يكون بعيداً كل البعد عن أن يفيدنا فى فهم المعنى الراهن لهذه الكلمة.

وتبلغ المغالطةُ التأثيلية مداها حين تُعمِل أدواتها التاريخية فى المصطلح العلمى أو التكنيكى، وتحاول أن تفهم المصطلح الفنى المتخصص بمعناه اللغوى الدارج، وهو ما يمكن أن نطلق عليه "ابتذال المصطلح" vernacularization . إن اللفظ اللغوى العادى حين يوضع بين هلالين ويتحول إلى مصطلحٍ علمى، فإنه يفارق دارَه وينسى ماضيه ويكتسى معنى جديداً قد لا يكون له أى علاقة بمعناه اللغوى الدارج، وبالتالى لا يجدى نفعًا تنقيبُنا عن أصله وفصله ولا يقربنا إلى فهم المصطلح فى وضعه الجديد. يقول جاستون باشلار فى كتابه "المادية العقلانية": "إن اللفظ عندما يوضع بين مزدوجتين فهو يَبرُز وتحتَدُّ نغمتُه. إنه يأخذ فوق اللغة العادية نغمةً علمية. ما أن يوضع لفظٌ من ألفاظ اللغة العادية بين مزدوجتين حتى يكشف عن تغير فى منهج معرفة تتعلق بميدان جديد للتجربة. وبإمكاننا أن نذهب حتى القول من وجهة نظر الباحث الإبستمولوجى إن هذا اللفظ علامة على قطيعة وانفصال فى المعنى، وإصلاح للمعرفة(*)".

وبعد؛ فحين يحاجُّ المرءُ بأن دعواه صائبة لا لشىء إلا لأن الأصل اللغوى نفسه للكلمة يفيد ذلك – فإنه يقع فى ضرب من "الاستدلال الدائرى" circularity، وفضلاً عن ذلك فإن افتراض أن الكلمات يجب أن تظل لصيقةً بمعناها التاريخى الأول هو

(*) محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي: اللغة – من سلسلة "دفاتر فلسفية" (نصوص مختارة)،الطبعة الثانية، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٩٨، ص ٤٦

افتراضٌ ينطوى على إغفالٍ عبثى للطبيعة الاصطلاحية للغة وتقييد لا مبرر له لنموها وتطورها.

إن اللغة لَفى سيرورةٍ دائمة وتحَوُّلٍ دائب. وهناك ألفُ سببٍ يلح على الألفاظ أن تخرج من جلدها وتكتسى معانىَ جديدة غير ذات صلة بمعناها القديم. ومادامت اللغة فى تغير مستمر فمن الطبيعى أن تواكبها فى ذلك علومُ اللغةِ المنوطُ بها رصدُ الظاهرةِ اللغوية وضبطُ حركتها، وأن يكون نهجُ العلوم اللغوية توتراً محسوباً بين "المعيارية" و "الوصفية": معيارية تحفظ اللغة من التحلل والانهيار، ووصفية تفتح لها آفاقًا للتطور والارتقاء.

الفصل السابع والعشرون

الاحتكام إلى الجهل

ad ignoratiam ; appeal to ignorance

"كان جحا غزيرَ الشعر فسأله أحدُ جُلسائه مداعبًا: كم
عدد شعرات رأسك يا جحا ؟ فأجابه جحا دون تردد:
عددها واحد وخمسون ألفًا وثلاثمائة وتسع وستون شعرة.
فقال له جليسُه متعجبًا: وكيف عرفتَ ذلك؟ فأجابه جحا:
إذا كنتَ لا تصدِّقنى فقم أنت وعُدَّها!!"

بديهى أن جهل الجليس بعدد شعرات جحا، من جراء الاستحالة العملية لعَدِّها، لا يقوم دليلاً على أن عددها هو ٥١,٣٦٩ شعرة! إن جحا فى هذا السياق "يقرر" أمرًا و"يُثْبِت" حكماً؛ ومن ثم فإن "عبء البينة" burden of proof - onus probandi فى ذلك يقع عليه. ومَكمَن الخطأ هنا هو أن جحا يريد أن يعفى نفسه من هذا العبء ويضعه على عاتق جليسه دون وجه حق، ويَحمِله على أن يؤدى له عملَه نيابةً عنه!

تفيد مغالطة "الاحتكام إلى الجهل" ad ignoratiam أن شيئًا ما هو حق بالضرورة مادام أحدٌ لم يبرهن على أنه باطل. والعكس أيضًا صحيح: أى أن شيئًا ما هو باطلٌ بالضرورة مادام أحدٌ لم يُثْبِتْ بالدليل أنه حق. فى كلا الحالين يؤخذ "غياب الدليل" مأخذَ "الدليل"، ويتم التذرع بغياب المعلومات التى تثبت شيئًا ما كدليل على بطلان ذلك الشيء، أو المحاجة بأنه مادام الخصم لا يستطيع أن يدحض دعوى ما فإن هذه الدعوى هى إذن حقٌ بالضرورة.

الجهلُ جهل، والجهل ليس دليلاً على شيء إلا على أننا نجهل.

تحقيقات مكارثي: مغالطةٌ أربَكَتْ أمة!

"من يعتذر إنما يتهمُ نفسه"

مثل فرنسي

من أشهر الأمثلة على مغالطة "ad ignoratiam" تلك التحقيقات التي كان يقوم بها السيناتور جوزيف مكارثي Joseph R. McCarthy في أوائل الخمسينات من القرن المنصرم: في سلسلة من جلسات الاستماع التليفزيونية وَجَّهَ مكارثي تهمةَ الشيوعية إلى عددٍ كبير من الأشخاص الأبرياء؛ في مناخٍ ارتيابي يُذَكِّر بمطاردة الساحرات witch hunt في القرون الوسطى. لم تكن تلك الاتهاماتُ قائمةً على أساسٍ ولا مستندةً إلى دليل وإن كانت بالغةَ الضررِ شديدةَ الإيذاء. كان مكارثي يَظهر في تلك الجلسات حاملاً حقيبةً منتفخةً بالملفات الخاصة بالمتهمين. غير أنه في معظم الحالات لم يكن يقدم بينةً حقيقية، وكان الشخصُ يُتَّهَمُ على أساس أنه ليس في ملفات مكارثي ما يدحضُ ميولَه الشيوعية! عن إحدى تلك الحالات يقول مكارثي في اجتماع مجلس الشيوخ عام ١٩٥٠: "ليس لديَّ معلوماتٌ وفيرةٌ في هذا الشأن عدا ما وَرَدَ في التقرير العام للوكالة من أنه لا يوجد في الملفات ما يثبتُ أنه غيرُ متصلٍ بجهاتٍ شيوعية"(*).

كان مكارثي في هذه الحالة متورطًا في مغالطة "ad ignoratiam" : لقد نَقَلَ "عبءَ البرهان" burden of proof، وبدلاً من أن يبرهن على ادعائه بالدليل فإنه يؤسسه على عدم وجود أدلة تُفَنِّد الادعاء. وهي مغالطة لأن مكارثي ينطلق في حجته من مقدمة تفيدُ غيابَ المعرفة (أي تفيد الجهل) إلى نتيجةٍ إيجابية تفيدُ أنه بذلك قد "عرف"، أو "أثْبَتَ"، أن الشخصَ المَعْنِيَّ مُدانٌ بالميول الشيوعية. إن التهمة التي يوجهها مكارثي هي تهمة خطيرة يتحتم أن تحمل عبءَ البينة وألا تُلْصَقَ بشخصٍ لمجرد أنه لا يملك أدلةً تدحضها.

(*) Douglas N. Walton: "The Appeal to Ignorance, or Argumentum ad Ignoratiam.", Argumentation, 1999, 13: p. 367.

هَبْ أن واحداً من ضحايا مكارثي أذعَنَ للموقف الاتهامي وشرع يثبت براءته من الميول الشيوعية بشتى الوسائل. فجعل يفرد لنا جدوله اليومي، والجماعات التى يلتقى بها فى تعاملاته المهنية، والأنشطة التى ينخرط فيها فى إجازته الأسبوعية، والأماكن التى يتواجد بها فى حلِّه وترحاله. إنه لو فعل ذلك فإنه يفتح على نفسه طوفاناً من المساءلات والاستجوابات من جانب مكارثي، ويستهدف لمزيدٍ من الشبهات، ويظهر فى النهاية بمظهر المذنب المُريب!

يحَذِّر واتلى Whately من هذه الاستراتيجية المُوبِقة فى الجدل ويشبهها بتصرف الجيش الذى يحتل حصناً منيعًا يستطيع الدفاعَ عنه كل الاستطاعة؛ فإذا به يبرز طواعيةً من حصنه ويتبعثر فى ميدانٍ مفتوح، فيأتيه أعداؤه من كل صَوبٍ ويمزقونه كلَّ ممَزَّق! كذلك الأمر فى الجدل: فإذا فاتك لحظةً أن تستمسك بخُلُوِّ جانبك حين يكون على خصمك عبء البينة، ورُحتَ بدلاً من ذلك تنسج حججاً إيجابية (قد تكون ضعيفة) لكى تبرئَ ساحتَك وتثبتَ براءتك، فإنك بذلك تُسَلِّمُ سلاحَكَ الأقوى بلا داعٍ وتستبدلُ به سلاحاً أضعف. يقول المثل الفرنسى "من يعتذر إنما يتهم نفسه!" qui s'excuse, s'accuse، يعنى ذلك أنك تُولى ظهرَك للواثبين وتتخذ مظهرَ المذنب تجاه الاتهامات الموجهة ضدك إذ تُحَمِّل نفسَكَ عبءَ الدليل حيث كان واجبك الوحيد هو أن تتحدى خصمَك أن يبرهنَ هو على اتهاماته لك برهاناً ساطعاً(*).

أمثلة أخرى :

(١) ليس هناك دليل على أن الأشباح (العفاريت) غير موجودة

إذن الأشباح موجودة

Douglas N. Walton: "Burden of Proof", Argumentation 2 (1988) p. 135.(*)

(٢) - أعتقد أن بعض الناس لديها قوى نفسية خارقة

وما دليلك على ذلك؟

- دليلي أنه لا أحد استطاع أن يُثبِتَ أن الناس لا تملك قوى نفسية خارقة

لاحظ أننا لسنا بصدد نفي وجود الأشباح أو نفي وجود قوى خارقة؛ إنما ننفي أن تكونَ الحجةُ الواردةُ صائبةً منطقيًا. إن ما يميز هذا الصنفَ من الحالات هو أن من الصعب أن نعرف ماذا عساه أن يكون دليلاً على مثل هذه الدعاوى أو دليلاً ضدها. فها هنا مشكلةٌ خاصة بقابلية التحقق verifiability : لأنه لا يوجد ثمة، فيما يبدو، أي ملاحظةٍ إمبيريقية قابلة للتكرار بحيث تفي بمعايير البَيِّنة العلمية في مثل هذه الحالات. تنطوي أمثلةُ الأشباح والقوى الخارقة إذن على عدة أخطاء منطقية، غير أن أبرز أخطائها هو "الاحتكام إلى الجهل" (التذرُّع بالجهل) ad ignoratiam. إنها حججٌ لا تقدم دليلاً حقيقيًا، بل تستغل غيابَ أدلةٍ مضادة لكي تقفزَ إلى نتيجة "عريضة" لا تقوم على ذلك الصنف من البينة الذي يتوجب التماسُه لكي تحظى مثلُ هذه النتيجة بالقبول.

متى تكون الحجة المستفادة من الجهل غيرَ مغالِطة؟

(١) يبدو أن هناك أحوالاً كثيرة يكون فيها "الاحتكام إلى الجهل" ad ignoratiam مقبولاً تمامًا كمُوَجِّهٍ للفعل الحصيف. مثال ذلك اتباع مبدأ السلامة في تناول الأسلحة: فإذا كنتَ "لا تعرف" (تجهل) ما إذا كان السلاحُ مُلقَمًا بالذخيرة أم لا فإن عليك أن تتعامل معه على أنه ملقَم، وأن تفتح خزانتَه قبل أن تُلَوِّح به، لكي تستوثقَ من أنه غيرُ مُلقَم(*).

(*) Ibid. p. 368.

(٢) فى كثيرٍ من الأحوال يكون من المقبول عمليًا أن ننتقلَ من واقعة أن شيئًا معينًا لم يتم العثورُ عليه إلى استنتاج أن هذا الشيءَ لا وجود له، شريطة أن يكون البحث جادًا وقمينًا فى حسابنا باكتشاف الشىء: من ذلك أن الأدوية الجديدة يتم اختبارها على الحيوانات، كالقوارض، للتَثَبُّتِ من أنها مأمونةٌ غير سامة. هنا يؤخذ غياب الدليل (على سُمِّيَّة الدواء) مأخذَ الدليل (على أنه مأمون للإنسان). ونحن فى مثل هذا السياق لا نستند إلى "الجهل" بل إلى "المعرفة" (معرفتنا بأنه لو كان للنتيجة التى تهمنا أن تنجم لَنَجَمَتْ فى حالةٍ ما من حالات الاختبار؛ وهو ما لم يحدث)(*). كذلك فى موقف اتهام شخص أو دولة بإحراز شيء محظور فإن إرسال مفتشين مؤهلين للبحث عن ذلك الشىء، والذى نفترض أنه قابلٌ للكشف ومستحيلٌ إخفاؤه عادةً، وحقيقة أنهم فشلوا فى العثور عليه بعد فترة كافية، لَيُمَثِّلُ دليلاً معقولاً على عدم وجود ذلك الشىء.

(٣) فى مجال التاريخ يسمى هذا الصنف من الحجة **ex silentio** (بحكم الصمت). مثال ذلك أن نقول إنه لم يكن من عادة الرومان أن يقلِّدوا الأوسمةَ شخصًا بعد وفاته. وذلك بناء على "الدليل السلبي" بخصوص هذه الأوسمة. فالكتابات المدونة وشواهد القبور لم تسجل قَط تقليدَ أيةِ أوسمةٍ لجنودٍ ماتوا فى الحرب، بينما تسجل حالات كثيرة لجنود تقلدوا الأوسمة أحياءً بعد الحرب. هكذا يمكننا أن نحاجَّ على أساسٍ سلبى بأنه لو كان مثل ذلك التقليد موجودًا لَتَبَدَّى لنا بشكلٍ أو بآخر فى الشواهد القائمة. وحيث إنه لا يوجد أى شاهد على ذلك فإن بإمكاننا، بواسطة حجة الصمت **ex silentio**، أن نستنتج أن من المقبول بعامة أن الرومان لم يقلدوا أحدًا وسامًا بعد وفاته(**).

(*) Ibid. p. 369.

(**) Ibid. pp. 371-372.

(٤) وفى مجال البحث العلمى يطلق اسم "الدليل السلبي" negative evidence على ذلك الصنف من البينة حيث تُلتمَس نتيجةٌ معينة بالاختبار فلا تحدث. تُعَد البينة السلبية فى العلم غير عديمة القيمة، إلا أن الأبحاث التى تسجل نتائج إيجابية تحظى بقبولٍ أكبر مما تحظى به الأبحاث التى تسجل نتائج سلبية؛ ويميل العلماء بصفة عامة إلى نشر أبحاثهم الإيجابية. ولعل هذا ضربٌ من ضروب الانحياز القائمة فى مرفق البحث العلمى، والذى يجعله أميل إلى التركيز على تحصيل نتائج إيجابية. ذلك أن النتائج السلبية هى أيضًا نتائج، ولها فوائد ليس أقلَّها أنها تعصم المؤسسة العلمية من تبديد الجهد والمال فى أبحاث لا طائل منها.

(٥) وفى مجال الحاسوب ومجال العلوم الاجتماعية تُعرَف الحجة المستقاة من الجهل باسم "الاستدلال القائم على افتقاد المعرفة" lack of knowledge inference، والذى يتم عندما تُلتمَس معلومةٌ معينة فى قاعدة البيانات فلا يُعثَر عليها. ومن ثم يُعقَد الاستدلال السلبى بأن هذه القضية كاذبة بالاستناد إلى القرائن. من ذلك أن برنامجًا حاسوبيًا يسمى "الأستاذ" Scholar وُجِّهَ إليه هذا السؤال: "هل تُنتِج جويانا المطاط؟" إن "الأستاذ" يعرف حق المعرفة أن بيرو وكولومبيا تنتجان المطاط، ويحيط علمًا بكل شيء عن إنتاج المطاط فى أمريكا الجنوبية؛ ومن ثم فإن لديه أسبابًا وجيهة للاعتقاد بأنه لو كانت دولةٌ ما منتجةً كبرى للمطاط لَعرَفَها. غير أن "الأستاذ" ليس لديه علم بما إذا كانت جويانا تنتج المطاط أم لا (أى ليست القضية ولا نفيها داخلاً بشكل صريح فى قاعدة بيانات "الأستاذ")، فما هو الجواب الذى ينبغى على الأستاذ أن يجيبه؟ يجيب الأستاذ كما يلى: "إن لديَّ من العلم ما يجعلنى أميل إلى الاعتقاد بأن المطاط ليس من المنتجات الزراعية لجويانا". إنه يَعقِد استدلالَ غياب المعرفة فيرى أنه مادامت جويانا ليست فى قاعدة بياناته كمنتجٍ للمطاط فإن له أن يستنتج بدرجةٍ متوسطةٍ من الثقة أن جويانا لا تنتج المطاط.

والآن، هـل هذا الاسـتدلالُ القائم على افتقـاد المعرفة هو "احتكام إلى الجـهل" ad ignoratiam بالمعنى المنطقى لهذا التـعبيـر؟ ليس هنـاك اتفـاقٌ بين المناطقـة بـهذا الشأن: فالبعض يذهب إلى أنـه "احتكام، غير مغالط، إلى الجـهل"، بينما يرى آخـرون أنه، فى حقيـقة الأمر، احتكامٌ إلى المعرفة! ذلك أن "الأستاذ" يحوز معرفةً إيجابيةً عن منتجى المطاط بأمريكا الجنوبية أمكَنَه فى ظلها أن يستبعد جويانا.

الانغلاق الإبستيمى : epistemic closure

حين أقول إن قائمـة المحطات التى يقف عندها هذا الديزل السريع هى "القاهرة، وبنها، وطنطا، ودمنهور، والإسكندريـة"، فإن بوسـعى عندئذ أن أستنتج أنه لا يقف عند كفر الدوار؛ وذلك لأن اسم هذه البلدة لم يرد فى قائمـة المحطات. وبعبارة أخرى يمكننا أن نفتـرض أن قـاعدة البيـانات هنا كاملـة أو تامة (مـغلقـة إبسـتيـميًا epistemically closed)، باعتبار أنه لو كان ثمة مـحطاتُ تَوقُّفٍ إضـافيـةٌ لَوَرَدَت فى القائمـة المدرَجة. يفيد مبدأ "الانغلاق الإبستيمى" أنـه "إذا كان س حقًا لَعَرَفتُه" أو "مادمتُ أعرف أنه لا يمكن أن تكون س حقًـا دون أن أعلم بذلك، فـإن لى أن أسـتنتج من غيـاب س أن س كاذبة"، أو "إذا كانت س صادقة لوردَ ذلك فى قاعدة بياناتى، ولكن س لم ترد فى قاعدة بياناتى، إذن س كاذبة".

ومن أمـثلة الانغلاق الإبسـتيمى قوائم أسمـاء الناجحين فى الامتحـانات. إنها مغلقة تمامًا من الوجهـة الإبستيمية، ومن ثم فمن لم يرد اسمُه فى القائمة فـهو راسب، لأنه لو كان ناجحًا لوَرَد اسمُه فى القائمة.

الاستدلال بالقرينة presumption

على أن الانـغـلاق الإبسـتـيـمى لا يكون تامًـا فى أغلب الأحـيان. ورغم ذلك يظل للاسـتـدلال العـملى مـجـالُه، كمـا فى مـثـال "برنامج الأسـتـاذ"؛ فنحن لا نتـوقف عن الاستدلال فى حياتنا العملية الملِحَّة، بل تبقى لدينا ضـروب من الاسـتدلال فى ضوء الغايات العملية التى نتوخاها، وبدرجاتٍ متفاوتة من اليقين.

من هذه الاستدلالات العملية ما يُعرف بـ "الاستدلال بالقرينة" presumption، وهو "فعل كلامي" speech act يقع مَوقعًا وسطًا بين الإقرار (أو الإثبات) assertion وبين مجرد الافتراض assumption إنه ضربٌ من الاستدلال المقبول عمليًا يتيح لنا أن نستنبطَ شيئاً، بصفةٍ مبدئية، وعلى نحوٍ قابل للإبطال defeasible، من واقعةٍ معينة في الأحوال المعتادة. مثال ذلك أن نقول "إن من يتغيب أكثر من سبع سنوات دون تفسير يعتبر في عداد المتوفين"، ونشفع ذلك بعبارة "ما لم يثبت عكس ذلك" till proved otherwise، بمعنى أنه استنتاج ظاهر الوجاهة يؤخَذ به ما لم يُنقَض بدليل prima facie أي أن له قوة مفترَضة تظل قائمةً ما لم تُنقَضْ باعتبارٍ أعلى.

يستند الاستدلالُ بالقرينة على مفهوم عبء البينة. فالسمة المحورية لهذا الاستدلال هي أنه يعكس عبءَ البينة وينقلها إلى الطرف الآخر. فالدواء الذي تبين أنه غير سام للقوارض يعد مأمونًا للإنسان مبدئياً، ولا تسقط عنه هذه الصفة ما لم يثبت بالدليل أنه سام للإنسان. ذلك أنه قد ينقذ حياةَ المرضى وقد يسعفنا في العلاج، ومن "الحكمة العملية" phronesis أن نجيز استعماله في ضوء معرفتنا المتاحة، ما لم يبرز لنا دليلٌ جديد في المستقبل يشير إلى أضرار للدواء لم تكن بحسباننا.

وفي مجال العقل العملي نحن نسترشد بمجموعة من القواعد الأخلاقية حين تدعونا مواقفُ الحياة إلى الفعل الفوري ولا تتيح لنا وقتًا للتَفَكُّر والتروي: لدينا قاعدة أخلاقية بألا نقتل، ولا نكذب، ولا نفشي الأسرار.. إلخ. إنها قواعد "قابلة للإبطال أو الإلغاء" defeasible، بمعنى أنها تظل نافذةً ملزِمة ما لم تُنقَض بحجةٍ عكسية ساطعة. إنها تضع عبء البينة على من يريد نقضها في موقف معين. مثال ذلك أن هناك قاعدة أخلاقية ضد الكذب: إن إطاعة هذه القاعدة ليست بحاجة إلى تبرير خاص. غير أن هناك ظروفًا قد يجوز فيها أن يكذب المرء، عندئذ تكون البينة عليه؛ أي أن عليه أن يبرر كذبَه بالحجة.(*)

(*) وليم جيمس إيرل: "مدخل إلى الفلسفة"، ترجمة د. عادل مصطفى، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، العدد ٩٦٢، القاهرة، ٢٠٠٥، ص ٢٧٥-٢٧٦

وفى مجال القضايا الجنائية يقع عبء الدليل على الادعاء. وعلى الدفاع أن يبين الثغرات أو نقاط الضعف فى حجة الادعاء، وليس عليه أن يثبت براءة المتهم ابتداءً (لأن الأصل براءة الذمة). ذلك مثال للمبدأ القائل: "البينة على من ادعى" He who asserts must prove . والحكمة فى ذلك الانحياز المبدئى (إلى جانب المتهم) هى أن الدليل فى القضايا الجنائية قد يكون ظنيًا لأنه يقوم على إعادة بناء أحداث الماضي، وهو أمرٌ يعتمد بالضرورة على الحدس والتخمين. ومن ثم فاحتمال الخطأ قائم. لذا يقوم المشرِّع بتقنين الجدل القانونى بطريقة من شأنها أن تُقَلِّص حالات إدانة أشخاص أبرياء إلى أدنى حد ممكن، حتى لو كان ذلك يكلفنا إفلات أشخاص مذنبين من العقاب فى أحيان كثيرة، باعتبار أن الظلم الحاصل من إدانة برىء واحد يفوق الظلم الحاصل من تبرئة عدة مذنبين.

وفى القضايا المدنية يقع عبء البينة على المدَّعِى plaintiff : (*) فإذا ادعى شخص، على سبيل المثال، أن مؤسسةً للغسيل الجاف قد ضيَّعت بذلتَه، فإن عليه أن يُبرِزَ إيصالَ الاستلام كدليل؛ وفى حالة عدم وجود إيصال لديه وعدم وجود إيصاله فى سجلات المؤسسة فإن الدعوى تسقط لغياب الدليل. أما أن يحاجَّ المدَّعِى بأن المؤسسة ليس لديها ما يُثبِت عدم استلامها للبذلة فإنه عندئذ يقع فى مغالطة "الاحتكام إلى الجهل" argumentum ad ignoratiam.

(*) هناك استثناءات لهذه القاعدة، واختلافات بين المدونات القانونية فى بعض الحالات.

الفصل الثامن والعشرون
سرير بروكرُسْت (البروكرُستية)

Procrustean bed (Procrusteanism)

تُرى كم "ثِيسيوس" يلزمنا اليوم

لكى نَبْرأ من تحيزاتنا المكينة

ونعدل منطقَنا المقلوب؟

كان بروكروست، فى الميثولوجيا اليونانية، قاطعَ طريقٍ يعيش فى أتيكا. وكانت له طريقةٌ خاصةٌ جداً فى التعامل مع ضحاياه. فقد كان يَستدْرِجُ ضَحيَّتَه ويُضَيِّفُهُ ويكرم وفادتَه؛ وبعد العَشاء يدعوه إلى قضاء الليل على سريره الحديدى الشخصي. إنه سريرٌ لا مثيل له بين الأسرَّة إذ كان يتميز بميزةٍ عجيبة: هى أن طولَه يلائم دائمًا مقاسَ النائمِ أيًا كان. غير أن بروكرست لم يكن يتطوع بتفسيرِ كيف يتأتَّى لسريرِه أن يكون على مقاس الجميع على اختلاف أطوالهم. حتى إذا ما اضطجع الضحيةُ على السرير بدأ بروكرست عملَه، فجعلَ يربطه بإحكامٍ ويشدُّ رجليه إن كان قصيراً ليمطهما إلى الحافة؛ أو يبترهما بَتراً إن كان طويلاً ليَفصِل منها ما تجاوز المضجع، حتى ينطبقَ تماماً مع طول السرير! وظل هذا دأبَه إلى أن لقِيَ جزاءَه العَدلَ على يد البطل الإغريقى ثيسيوس Theseus الذى أخضعَه لنفس المُثْلَة، فأضجعَه على السرير ذاتِه وقطعَ رقبتَه لينسجمَ مع طول سريره.

يشير مصطلح "سرير بروكرُست" Procrustean bed (أو "البروكرستية" Procrusteanism) إلى أية نزعة إلى "فرض القوالب" على الأشياء (أو الأشخاص، أو النصوص...) أو لَيِّ الحقائق وتشويه المعطيات وتلفيق البيانات لكى تنسجمَ قَسراً مع

مخطط ذهني مسبق. إنه القولبة الجبرية، والتطابق المُعْتَسَف، والانسجام المُبَيَّت. إنه افتئاتٌ على الواقع قلَّما يفلت من غَضبة المنطق وانتقام الحقيقة.

ألوان من البروكْرُستيَّة

البروكرستية التأويلية

حين نفرض على النصوص توقعاتنا وتحيزاتنا وإسقاطاتنا المسبقة، دون أن نكلِّف خاطرَنا بمراجعة هذه الإسقاطات فى ضوء ما يبزغ أمامنا فى فعلِ القراء؛ حين نُخْرِس النصَّ ونفرض عليه ما ليس فيه -فَثَم "البروكرستية التأويلية". وعسى أن يعِى ذلك بعضُ النقاد الذين يفرضون قوالبَهم على الأعمال الأدبية أو الفنية ويُلْبِسونها المعنى الذى يَتَلَبَّس بهم، أو المذهب الفنى الذى يستحوذ على اهتمامهم. وعسى أن يفهم ذلك هواةُ "المعجزات العلمية" الذين لا يخشعون لجلال النص القرآني، ويريدون أن "يحشروا الأكبرَ فى الأصغر!"، وأن يُفرِغوا النص من "بَلاغِه" kerygma الحقيقى ويُجَنِّدوه فيما لا يقصده ولا يَعنيه.

البروكرستية الإكلينيكية

حين ينخذل الطبيب المبتدئ أمام "الحالة"، فيَرهن ذهنَه لتشخيصٍ مسبقٍ يكيِّف عليه الأعراضَ والعلامات ويلوى بها لتأتى على مقاس تشخيصه؛ حين يمضى من التشخيص إلى العلامات بدلاً من أن يتجه من العلامات إلى التشخيص، فإنه يرتكب خطأ "البروكرستية الإكلينيكية". وما كان للواقع العنيد أن يرضخَ لحِيَل العقل والتواءاته ويدخلَ طواعيةً فى قوالبَ مسبقةٍ لا تلائمه ولا تَحْكُمه؛ إنك لا تجنى من الشوك العنب، وأكبر الاحتمال أن يؤدى التشخيصُ الخطأ إلى العلاج الخطأ، ومن ثم إلى تفاقم المرض وتَرَدِّى المآل.

الاستخبارات البروكرستية

حين توعز الإدارةُ السياسية لمرفق الاستخبارات بأن يُفَصِّل لها معلومات استخباراتيةً على مقاس قرارٍ سياسي مُبَيَّت، بدلاً من أن يكيف القرارَ السياسي وفقاً للمعلومات الاستخباراتية، نكون بإزاء صنف خبيث من البروكرستية ربما تُودى بمرتكبِها قبل أى طرفٍ آخر.

بروكرستية العولمة الثقافية

يطمح دعاةُ العولمة إلى صب الثقافات جميعًا فى قالبٍ واحد، ظنًا منهم أن إزالة الحواجز بين الأمم وتدفق الأفكار والمعلومات والبشر عبر الحدود من شأنه أن ينشر قيمَ التسامح والحرية وفهم الآخر، وأن يدمج البشرَ فى ثقافةٍ عالمية متجانسة. لم يتفطَّن هؤلاء إلى أن الانفتاح والاجتياح يثير فى النفوس أيضًا غريزةَ المحافظة والانكماش والتجمد والبحث عن حدود الذات وتدعيمها لإثبات الهوية وتجنب الانمحاء. هكذا انبعثت مع العولمة نزعاتُ الانفصالِ والتفكك الداخلى وظواهر التطرف والعنف والانتماءات الأولية (القَبَلية والإثنية والطائفية)، وتفككت دولٌ فى الشرق والغرب وواجهت دولٌ أخرى خطرَ التفكك. لم يقدِّر دعاةُ العولمة الأوائلُ سطوة الثقافات المحلية والنزعات القومية والأصولية ومقاومتها للتغيير، وإلى الأثر العكسى لقُوَى العولمة: مزيد من التفكك والحروب الطائفية والعرقية وتصاعد قوى اليمين المتطرف وانتشار التزمت والإرهاب وصحوة الانتماءات البدائية الهاجعة(*).

البروكرستية السياسية

تعمد البروكرستية السياسية إلى صب المواطنين جميعًا فى قالبٍ واحد، تعميماً للخير والتماساً للعدالة. تَتَجَذَّرُ البروكرستيةُ السياسيةُ فى "مذهب الماهية" -essential

(*) انظر المزيد عن العولمة الثقافية فى كتابنا "العولمة: من زاوية سيكولوجية" دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٦، ص ٥٣-٧١

de re essential "الفلسـفى. وهو الرأى القـائل بأن "للأشـيـاء خـصـائص مـاهوية ism" properties، أى خواص ضرورية بمعزلٍ عن تصنيفاتنا وتعريفاتنا . للإنسـان، من ثم، مـاهيةٌ حـقيقيةٌ تميزه عن غيره من الكائنات: قـد تكون هذه الماهيةُ هى الروح العاقلة (الإنسـان حيوان عاقل)، وقد تكون هى الميل إلى الحياة فى تجمعات مدنية (الإنسان حيوان مـدنى).. إلخ. المهم أن هناك مـاهيةً ثابتةً مـحـددة للإنسـان بهـا يكونُ إنسـانًا وبدونهـا يكونُ أىَّ شىءٍ آخر. هنـاك "مـثـال أفـلاطونى" أو "صـورة" eidos أو "فكرة" idea أزلية للإنسان ينبغى على الإنسان الحقيقى الأرضى أن يسعى إلى تجسيدها ويقتربَ منها . كل أولئك أفكارٌ ميتافيزيقيةٌ مأمونة، لا ضَيرَ أن يتداولها الفلاسفة فيما بينهم ويختلفوا حولها على مقاعدهم النظريةِ الوثيرة.

يبـدأ الخطـرُ، رغم ذلك، حين تقـعُ مـثـلُ هذه الأفكارِ فى أيدى (أو بالأحـرى رءوس) السـيـاسـيين أولى البـأسِ وذوى القـدرةِ على استـخـدامـهـا فى الواقـع الحى ووضعِها موضعَ التنفيذ. حين يقعُ للطاغية "المثالى" (idealist) تصورٌ واضحٌ عما تكونه الطبيـعةُ البشـرية فقد يرى نفسَـه مضـطراً إلى فرضـها بالقوة على رعاياه وصبهم فى قالبها ضـربةَ لازب، وسحقِ كل من تحدثه نفسُه بالتمـرد على هذا القـالب الأزلى الواحد.

هكذا ينشـأ مـا يسـمـيه أنتـونى فلو Antony Flew، مـؤلف كـتـاب "سـيـاسـة بروكرست" بـ "البروكرسـتـيـة الاشـتـراكيـة" socialist Procrusteanism أو "العدالة المحـافظة" conservative justice . إنهـا ضـرب من اليـوتوبيـا الاجـتمـاعـيـة تريد أن تفرضَ التـجـانسَ على الناس، وتفـرضَ المسـاواةَ المطلقـةَ على المواطنين، فـتـأخـذ من البعض وتعطى البعضَ الآخر حتى يعتدلَ الميزان (*).

(*) Antony Flew: Politics of Procrustes. Buffalo: Prometheus Books, 1981.

إن أنـتونى فلو هـو بمثابة "ثيسيـوس معاصـر" يريد أن يحـطمَ البروكرستيةَ بأن يَكشِـفَ زيفَها وتـهافتَـها ويفضحَ طبيعتَـها المؤذيةَ المظلمـةَ ويخرجها إلى وَضَحِ النهـار: الأمر هنا ليس مجرد مبدأ شخصى يدعو إليه من يدعو، بالحكمـة والموعظة الحسنة، أو ربما بتقـديم مثالٍ فى التضحيةِ والبر (على طريقة ليو تولستوى مثلاً)؛ ولكنه منـهجٌ سـياسى وإدارى يُراد فـرضُـه على نطاقٍ هائلٍ بقـوةِ الآلةِ الحكومـيـةِ الجبارة.

لم يقف جنونُ البروكرستيين السياسيين عند حد:

- فمنهم من لم يَقنَعْ بإعادة توزيع الثروة على الأفراد بالعدل والقسطاس، فذهب إلى ضـرورة تحطيم "نظام الأُسـرة" - منبعِ التـفـاوت بين الناس ومـعـقلِ اللامساواة وحصنِها الحَصين.
- ومنهم من ذهب إلى ضرورة فرض "المساواة المعرفية" cognitive equality، فلا ينبغى أن "يعرف" شخصٌ أكثرَ مما يعرف الآخرون.
- بل ذهب بعضُهم إلى ضرورة "تحسين النسل" (اليوجينيا eugenics) لاجتثاثِ التفاوتِ من المنبع .. من البيولوجيا!!

من السخرية أن البروكرستية يمكن أن تبلغَ مأربَها وتَشفى صدرَها بـ "المساواة فى الجهل" بقدرِ ما تَشْفيه بـ "المساواة فى العلم"، وأن تقضى وَطَرَها بالإساءة بقدر ما تقضيه بالإحسان! إن مذهب المساواة هو عِماد الرفاه، وعِماد الضنك أيضًا، ما لم يُستبدَل به مبدأٌ آخر من مبادئ الواجب.

يذهب أنتونى فلو إلى أن مُثُل المساواة فى الحرية وتكافؤ الفرصة لا تتفق مع مثل المساواة فى الحالة المعيشية أو فى النتيجة (وهى البروكرستية الحقيقية). يبدو أن هناك توترًا معينًا بين بعض القيم التى نَصبو إليها ونَوَدُّ أن نحققها جميعاً، بحيث إن الترتيبات الاجتماعية التى تدعم إحداها من شأنها بالضرورة أن تنال من الأخرى: ثمة

توترٌ بين "العدل" و "الكفاية الاقتصادية"، وتوترٌ بين "المساواة" (في الحال) و"الحرية"! ويبقى أن نختارَ القيمةَ الأكثرَ أهميةً للمجتمع والأَوْلَى من ثم بالتحقيق(*) .

تقوم الفكرةُ الديمقراطية على أن الناسَ سواسيةٌ قانونيًا وسياسياً. صحيح أنهم خُلقوا غيرَ سواسية في المواهب الطبيعية، إلا أن هذا التفاوت ليس حجةً على المساواة وإنما هو حجة لها؛ فالمساواة أمام القانون ليست حقيقةً موضوعية ولا قانونًا طبيعياً؛ إنما هي مطلبٌ سياسي قائمٌ على قرارٍ أخلاقي، ولا علاقة لها البتة بالنظرية القائلة بأن الناس وُلِدوا سواسيةً بالطبيعة. بل إن المساواة (في الفرصة) هي التي تضمن وترعى التفاوت العقلي بين بني البشر، لأن مساواة الفرصة تضمن للمواهب الفردية حق التميز والنمو وتحمي أصحابَ المواهب من أن ينالهم اضطهادٌ ممن يقلون عنهم موهبة.

في رواية "ثيسيوس" لأندريه جيد يقول ثيسيوس بعد أن أَسْهَبَ في تبيين طريقته في فرض المساواة: "وقد استمعَ بيريتوس لهذه الخطبةِ التي ألقيتُها على السادة، فقال لي إنها خطبةٌ رائعة، ولكنها سخيفة. وكان يعلل ذلك بأن المساواةَ بين الناس ليست طبيعيةً بل ليست شيئًا يُبتغَى. فمن العدل أن يتفوق الأخيارُ على طَغام الناس بما تُخَوِّلُهم الفضيلةُ من امتياز. وهؤلاء الطغام إذا لم تُثِر بينهم التنافسَ والتزاحم والغيرة ظلوا هامدين خامدين أشبهَ شيءٍ بالماء الراكد الآسن؛ فليس لهم بُدٌّ من حافز إلى العمل .. وسواء أردتَ أم لم تُرِد فإن هذه التسوية الأولى التي تطمح إليها وهي تكفل للناس جميعًا تكافؤَ الفرص ليسعوا إلى الحياة من مستوى واحد، ستنتهي قطعًا إلى الاختلاف والتفاوت، فتنشأ طبقات تتأثر بما يتمايز الأفرادُ به من الكفاية وحسنِ البلاء، ستنشأ طبقةُ العامة الشقية والأرستقراطيةُ السعيدة".

(*) يقول كارل بوبر: "لو أن هناك شيئًا من قبيل الاشتراكية المقترنة بالحرية الفردية لَوَددتُ أن أكون اشتراكياً؛ فليس أجمل من أن يعيش المرء حياةً متواضعة بسيطة في مجتمعٍ مساواة. غير أني أنفقتُ زمنًا قبل أن أدرك أن هذا لا يعدو أن يكون حلمًا جميلاً، وأن الحرية أهم من المساواة، وأن محاولة تحقيق المساواة من شأنها أن تهدد الحرية، وأن الحرية إذا فُقِدَت فلن يتمتع فاقدوها حتى بالمساواة.

وفى كتابه الكلاسيكى "نظرية فى العدل" a theory of justice يطرح جون رول John Rawl (1921-) نظريةً ربما تكونُ أهمَّ نظرياتِ العقد الاجتماعى المعاصرة وأبعدَها أثراً، فيصور المجتمع العادل بأنه ذلك المجتمع الذى سوف تختاره الكائنات العاقلة لو أنها حُمِلَت على اختيار المؤسسات والقوانين "من وراء حجاب من الجهل" behind a veil of ignorance – أى دون أن تعلم ما ستكونه مراكزُهم الاجتماعية الفعلية. قد يسبق إلى الظن أن مثلَ هذه الكائنات حَريَّةٌ عندئذ أن تختار حالةً من المساواة المطلقة كأفضل رهانٍ لها. إلا أن رول يَبْدَهُنا بغير ذلك، ويقنعنا بالحجة أن هؤلاء المتعاقدين الأصليين الذين حُجِبَتْ عنهم الحقيقةُ هم حَرِيُّون أن يختاروا (ويَعُدُّوه عدلاً) نظامًا اجتماعيًا ينطوى على تفاوتٍ فى الثروة مادام هذا التفاوتُ يجعل أقلَّ المواطنين حظًا هو أفضل حالاً مما يكون عليه تحت أى توزيعٍ بديل. بذلك يمكن أن تقوم حجة، باتباع طريقة رول، بأن الرأسمالية التنافسية هى نظام عادل رغم أن بعض الناس فيها أغنى من الآخرين بما لا يُقاس. إذ إن الأقل حظًا فى هذا النظام سيكون أسوأَ حالاً وأشد فقراً لو أنه كان فى نظامٍ آخر أكثرَ مساواةً (ولكن أقل فى الكفاية الاقتصادية)(*).

وعلى ذِكْر نظرياتِ العدل والبروكرستية الاشتراكية تقفز إلى الذهن أبياتٌ للعقاد تترجم شطراً كبيراً من هذا النقاش السياسى المحتدِم. يقول العقاد (على طريقته فى استقصاء المعنى):

إنَّا نُريدُ إذا ما الظلمُ حاقَ بنا ... عدلَ الأناسيِّ لا عدلَ الموازينِ

عدلُ الموازينِ ظلمٌ حين تنصبُه ... على المساواةِ بينَ الحُرِّ والدُّونِ

ما فَرَّقَتْ كفَّةُ الميزانِ أو عَدَلَتْ ... بينَ الحُلِيِّ وأحجارِ الطواحينِ

(*) Earle, W. J., Introduction to Philosophy. McGrow-Hill, Inc. 1992, p. 199.

بروكرستية الإدراك الحِسِّي

ثمة عنصرٌ بروكرستي فى كل إدراك حسي، وربما فى كل إدراك ذهنى على الإطلاق. فالإحساس البصرى المحض، على سبيل المثال، لا يقدم لنا أكثرَ من بقعٍ فسيفسائية مبعثرة، هى "المعطيات الحسية" sense data (sensa)، ثم يأتى "المخطط الذهني" schema، أو "النموذج" أو "الجشطلت"، فيُضفِى هيئةً ومعنى معينًا على هذا الهُلامِ الحِسِّيِّ الغُفل. ونحن فى إدراكنا الحسى لا نملك إلا أن نملأ الفراغات ونسد الثغرات ونسبغ الكمال على الأشكال الناقصة، ونُضْفى الاتصالَ على المنفصل، والاستمرار على المتقطع.. إلى آخر تلك الآليات التى فصلّها الجشطلتيون فى سيكولوجية الإدراك.

"المخطط الذهنى" أو "البناء الذهني" mental construct أو "النموذج المرشد".. هو شرطٌ ضرورى للإدراك. فنحن فى حقيقة الأمر لا نرى موضوعاتٍ محددةً من مثل البشر والحيوانات والأشجار والموائد والكراسي،.، بل نرى بقعًا لونية مشتتة، ومن هذه الخامة الحسية "نستدِلُّ" عندئذ على العالم المعتاد أو "نُشَيِّده". الإدراكُ الحسى إذن هو فى حقيقته "تشييدٌ ذهنى" mental construction تضطلع فيه قوالبُ العقل المسبقة (أَسِرَّة بروكرست) بدورٍ محورى!

وقد أشار الفيلسوف الأمريكى شارلس ساندر بيرس إلى أن الإدراك الحسى هو ضربٌ من التأويل أو الاستدلال: "..فالأمر اللافت فى "الخُدَع" illusions البصرية جميعًا هو أن نظريةً معينة لتأويل الصورة تبدو معطاةً فى الإدراك بوضوح تام. وحين تنكشف لنا للمرة الأولى تبدو خارجة تمامًا عن سيطرة النقد العقلى شأنها شأن أى إدراك حسى".

تلك هى البروكرستية المُقَدَّرَةُ على الكائن البشرى والمبيتةُ فى كل إدراكٍ يدركه، والتى تجعلنا نرى ما نتوقع أن نراه. ذلك أن إدراكنا يعتمد تمامًا على مخططاتنا التصورية، وهذه الأخيرة تعتمد بدورها على خلفياتنا الاجتماعية والثقافية؛ على

"نظرياتنا"! يقول نلسون جودمان: "ليست هناك عينٌ بريئة! المادة الخام للرؤية لا يمكن استخلاصُها من المنتَج النهائى. قد تتغير مخططاتنا وتتطور، قد تُنَقَّح وتُستبدَل، قد توحى بها أو ترشدُها عواملُ من كل صنف، غير أنه بدون مخططٍ ما فلن يكونَ إدراكٌ"(*).

هذا ما عَناه نوروود رسل هانسون N. R. Hanson بقوله، الذى أصبح من مأثورات فلسفة العلم الجديدة، "الإدراك مُحَمَّلٌ بالنظرية" Perception is theory-laden، فخلفياتنا النظرية، تصوراتنا واعتقاداتنا وتوقعاتنا، تؤثر فيما نراه، أو على الأقل فى كيفية رؤيتنا له. ويجرنا ذلك تلقائيًا إلى الحديث عن بروكرستية الملاحظة العلمية.

بروكرستية الملاحظة العلمية

على الرغم من أن الواقعَ قائمٌ "هناك" بمعزلٍ عن الملاحِظ، فإن إدراكَنا للواقع متأثرٌ بنظرياتنا التى تحدِّدُ طريقتَنا فى تَفَحُّصِ الواقع. يشمل ذلك إدراكاتنا ويشمل أيضًا أدواتنا العلمية التى هى امتداد لإدراكاتنا. مثال ذلك أن حجم التلسكوبات كان دائمًا يشكِّل ويعيد تشكيل فكرتنا عن حجم الكون. فحين نَصَبَ إدفين هوبل تلسكوباتِه الجديدةَ فى جنوب كاليفورنيا أتاحَ للفلكيين لأول مرة تمييزَ النجوم المفردة فى المجرات الأخرى. هنالك تَبَيَّنَ أن تلك الأشياءَ الغائمةَ المسماة "سُدُماً"، والتى كنا نحسبها ضمن مجرتنا، هى فى الحقيقة مجراتٌ منفصلة.

فى القرن التاسع عشر كان "قياس الجمجمة" craniometry يحدد الذكاء بأنه حجم المخ، وابتُكِرَت أجهزةٌ معينة لقياس الذكاء على هذا التعريف. واليوم يُعَرَّف الذكاء

(*) انظر فى ذلك فصل "نسبية الإدراك الحسي"، فى كتابنا "صوت الأعماق"، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٤، ص ٢٣٨-٢٤٧

بأنه كفاءة الأداء فى مهمات معينة يقيسها جهازٌ آخر هو "اختبار الذكاء" . I.Q test.

يوضح سير أرثر ستانلى هذه المشكلة بتشبيهٍ حاذق: فلنتصور أن عالمًا فى الأسماك ichthyologist يستكشف الحياة فى المحيط، فيلقى بشبكة فى الماء ثم يُخرِج تنويعةً سمكية. وإذ يقوم بفرز صيده فإنه يمضى على الطريقة المعتادة للعلماء وينظِّم ما اكتشفه، فيصل إلى تعميمين:

– ليس هناك كائن بحرى يقل طولُه عن بوصتين

– جميع الكائنات البحرية لها خياشيم

فى هذا "الأنالوجى" يرمز الصيد إلى مادة المعرفة التى تشكل العلم الطبيعى، وترمز الشبكة إلى الأدوات الحسية والفكرية التى نستخدمها فى تحصيل المعرفة. وترمز عملية إلقاء الشبكة إلى الملاحظات.

قد يعترض مشاهدٌ بأن التعميم الأول خاطئ: "فهناك كائنات بحرية كثيرة أقل طولاً من بوصتين، كل ما فى الأمر أن شبكتك غير مكيفة للإمساك بها". غير أن عالم الأسماك يرد على هذا الاعتراض بازدراء قائلاً: "كل ما لا يمكن إمساكُه بشبكتى.هو، بحكم طبيعته ذاتها (ipso facto)، خارجٌ عن النطاق المعرفى لعلم الأسماك وليس جزءًا من مملكة الأسماك التى تم تعريفُها بأنها الموضوع المعرفى الذى ينصَبُّ عليه علم الأسماك؛ أو، باختصار، ما لا يمكن لشبكتى أن تمسك به فهو ليس سمكًا".

كذلك الحال بالنسبة للتلسكوب والذكاء: ما لا يراه تلسكوبى ليس موجوداً هناك، وما لا يقيسه اختبارى ليس ذكاءً، من البديهى أن المجرات موجودة، والذكاء موجود. الخَطْبُ أن طريقةَ قياسِنا وفهمِنا لها تتوقف بشدة على أدواتنا المتاحة.

بروكرستية البحث الأكاديمى

كلما طال الأمَدُ على البحث الأكاديمى ترسَّخَتْ فيه معاييرُ معينةٌ للدراسة، تتحول فى النهاية إلى "سريرٍ بروكرستى" علينا أن نُطَوِّعَ له عملَنا وننتقى ملاحظاتنا وبياناتنا بحيث تفى بالمعايير وتأتى على مقاس السرير!

يطول الأمدُ فننسَى أننا أصحابُ المنهجِ وصانعوه، وأننا مسؤولون "عنه" بقدر ما نحن مسؤولون "أمامه"!. وما المنهجُ في نهاية التحليل؟ إنه عاداتٌ تحدِّد لنا الطريقةَ التي نُعَرِّفُ بها الأشياءَ ونمارسُ العمل، عاداتٌ شَكَّلَتْها أيديولوجياتٌ خفية (يسميها رولان بارت بالأساطير في السيميوطيقا الخاصة به)، ثم تَكَلَّسَت بفعل التكرار حتى أصبحت سريراً بروكرستيًا جاسيًا يحدد لنا حدودَ ما نقبله وما نرفضه، ويضع لنا مسبقًا معاييرَ "الصدق"(*) validity في عملٍ يُفترَض فيه أنه ابتكارٌ دائمٌ وكَشفٌ للخَفِي وارتيادٌ للمجهول. وما كان للحقيقة أن ترضخَ لمنهجٍ صنعناه بأيدينا ثم عبدناه كإلهٍ من الحلوى. وما ظنُّكَ بمآلِ ذلك في كل مرحلةٍ من مراحل العلم القياسي؟ إنه العُقمُ وجفافُ الدم في عروق البحث، تعقبه "أزمة" crisisوتراكم "شذوذات" anomalies، ثم "ثورة علمية" scientific revolution تمس المنهجَ نفسَه فيما تمس.

الحق أن "المنهج" method و "الموضوع" object لا يمكن أن ينفصلا: لقد حدد لنا المنهجُ مقدمًا ما سوف نراه! لقد أنبأنا ماذا يكون الموضوعُ بوصفه موضوعاً. لهذا السبب يُعَد كل منهجٍ تأويلاً بحد ذاته. غير أنه أحد التأويلات فحسب؛ والموضوع الذي يُرَى بمنهجٍ آخر سيكون موضوعًا آخر(**).

يبدو أن فكرة "المنهج" بألف لام التعريف لا تستقيم وفكرة "المجهول" الذي نريد ارتيادَه وكشفَه. المجهول "مجهول" بطبيعته وتعريفه فكيف نريد اصطياده بمنهجٍ "معلوم" يحدد لنا سلفًا ما سوف نصطاد؟! إنما يبزغ "المنهج" على رِسْلِه "بَعدِيًا" a posteriori من البحث وفي البحث. ربما لذلك لم تعد هناك إبستمولوجيا عامة تصلح لكل شيء، وانتقلنا الآن إلى "إبستمولوجيات جهوية" modal epistemologies على حد تعبير جاستون باشلار. يقول باشلار في "فلسفة لا": "في اعتقادنا أن مَهامَّ

(*) لا تزال كلمة " "validity تُتَرجَم بـ "الصدق" في مجالات العلوم الإنسانية، رغم ما ينطوي عليه ذلك من خلط بين "الصدق" الواقعي truth و "الصواب" الصوري validity.

(*) عادل مصطفى: "مدخل إلى الهرمنيوطيقا"، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٣، ص ٣٣

فلسفةِ العلوم تُطرَح فى مستوى كل مفهوم على حدة: فكل افتراض وكل نقطة، كل تجربة وكل معادلة تتطلب فلسفتَها الخاصة".

ويبدو أننا بحاجة، فضلاً عن مناهج البحث التقليدية، إلى منطقٍ آخر للحدس الذكى، لتلك اللحظة الفنية من لحظات الكشف العلمي، لتلك القفزة الإبداعية التى تتجاوز دائمًا المعلوماتِ المتاحةَ وتضيف إليها شيئًا غيبيًا لم يكن مبذولاً للإدراك العادى. نحن بحاجة إلى معايير أخرى لما هو افتراضى، مبدئى، تأملى؛ معايير استطيقية معينة تُقَدِّر جمالَ الظنى والحدسى.

المناعة الأيديولوجية، أو مشكلة بلانك

من دأبنا جميعًا، فى حياتنا اليومية كما فى صعيد العلم، أن نقاوم أى تغيير فى النموذج المعرفى الأساسى (النموذج الشارح paradigm) يطلق عالِم الاجتماع ستيوارت سنيلسون على هذه الظاهرة "جهاز المناعة الأيديولوجى" ideological immune system . يذهب سنيلسون إلى أنه كلما تراكمت المعرفة لدى الأفراد وترسَّخت نظرياتهم فإن ثقتهم بهذه النظريات يتعاظم ويكتسبون "مناعة" ضد أى نظريات جديدة لا تعزز النظريات السابقة. ويطلق مؤرخو العلم على هذه الظاهرة "مشكلة بلانك" Plank problem، نسبة إلى عالِم الفيزياء الشهير ماكس بلانك الذى أبدَى هذه الملاحظة فيما يتعلق بالعلم: فقلما اتفق لتجديد علمى هام أن يشق طريقًا هَيِّنًا سلسًا ويحمل مناوئيه على التخلى عن نموذجهم والتحوُّل إليه طواعيةً واقتناعًا. فمن النادر أن يتحول "شاول" إلى "باول"(*). أما الذى يحدث بالفعل فهو أن المعارضين يموتون عن

(*) أى يتحول شاول Saul مضطهِد المسيحيين الأوائل إلى القديس "بولس" Paul نصير المسيحيين ومؤسس المسيحية كمذهب منظم.

نموذجهم واحداً بعد الآخر، وينشأ الجيل القادم على إلفٍ بالفكرة الجديدة منذ البداية! ومن النتائج البحثية اللافتة ما وجده عالِم النفس ديفيد بيركينز من ارتباط موجب بين درجة الذكاء (كما تقدِّرها اختبارات الذكاء القياسية) وبين القدرة على تعضيد الرأى والدفاع عنه، وارتباط سالب بين الذكاء وبين القدرة على أخذ الآراء البديلة بعين الاعتبار؛ وبتعبير أبسط: كلما ارتفع معدل الذكاء كان الفرد أكثر مناعةً أيديولوجية وأقل قدرةً على الاستجابة للفتوحات الفكرية الجديدة!!

ويبدو أن المناعة الأيديولوجية هى شيء متأصل فى الأداء البحثي العلمي، حيث تعمل كـ "مُرَشِّح" أو "مصفاة" تُرَشِّد اندفاع التجديدات العلمية وتردها إلى الحصافة والحذر. من دأب المجتمع العلمى أن يقاوم التجديدات العلمية الثورية لا أن يفتح لها ذراعيه!! لأن لكل عالِمٍ ناجحٍ مصلحة مكتسبة (فكرية واجتماعية بل ومالية) فى الحفاظ على الوضع القائم. ولو أن كل فكرة جديدة ثورية استُقبِلَت بالترحاب لكانت النتيجة فوضى كاملة وشواشًا تامًا.

بوسعنا تعميم ذلك على أصعدة الحياة جميعًا فنرى إلى مسيرة التقدم فى كل شيء على أنه توتر محسوب بين بروكروست وثيسيوس! بين التقليد والتجديد، بين الموالاة والمعارضة، بين اليمين واليسار. فى مسرحية "أوديب" لأندريه جِيد يلخص "كريون" هذه القضية تلخيصًا مُحكَمًا فى الفصل الثاني، إذ يقول لأوديب: "... لو لم نكن متباينين إلى هذا الحد لما وَجَدَ أحدٌ منا هذه المتعة حين يفهم عن صاحبه: وإنى أيها الصهر العزيز لأحب حديثك؛ لأنك تفتح لى آفاقًا لم أكن لأهتدى إليها وحدي. فلك الابتكار والتجديد، أما أنا فيقيدنى الماضى، وأنا من أجل ذلك أحترم التقاليد والعادات والقوانين المقرَّرة. ولكن ألا ترى أن من الخير للدولة أن يمثل هذا كله، وأنى أحقق التوازن المفيد بإزاء عقلك المجدد، فأحول بينك وبين الاندفاع أو أُهَدِّئ من مغامراتك الجريئة التى توشك أن تحطم نظام الجماعة إذا لم تؤخذ بشيء من القصد يأتيها من هذا السكون ومن هذا التشبث بالقديم.."(*)

(*) أندريه جيد: أوديب، ثيسيوس ؛ ترجمة طه حسين: الطبعة الثانية، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٦٨، ص ٦٧

الفصل التاسع والعشرون

مغالطة المقامر

gambler's fallacy

تنطوي مغالطة المقامر على خطأ في فهم فكرة الاحتمالات probability وفكرة الأرجحية odds.(*) ونحن نرتكب هذه المغالطة عندما نظن أن ما وقع في الماضي له تأثير على الأرجحية، أو الاحتمالات، الحالية. حين نرمي قطعة العملة رميةً ترجيح فإن احتمال "الصورة" في كل رمية هو ٥٠٪ واحتمال "الكتابة" ٥٠٪، ولا صلة لاحتمالات كل رمية بالرمية السابقة عليها ولا بأية رمية أخرى على الإطلاق. فإذا رمى شخصٌ ست رميات كانت جميعًا "صورة" واستنتج من ذلك أن الرمية القادمة لا بد لها من أن تكون "كتابة" لأن "الكتابة" طال غيابُها ولا بد أنها الآن متوقعة أو مرجحة جداً، يكون هذا الشخص قد ارتكب "مغالطة المقامر". ذلك أن نتائج الرميات السابقة "لا ضغط لها" البتة على الرمية السابعة. فالرمية السابعة لديها احتمال ٥٠٪ للكتابة و ٥٠٪ للصورة مثلها مثل أي رمية أخرى.

أمثلة :

(١) لقد اشتريتُ ثمانية بطاقات حظ الأسبوع الماضي، ولم تكن بينها أي بطاقة رابحة. وحيث إن فرص الكسب هي واحد لكل تسعة، فإن بطاقتي القادمة ستكون رابحة على الأرجح.

(٢) – أما زلتَ تشتري أوراق اليانصيب هذه؟

– نعم، لقد ظللتُ أشتريها بانتظام لمدة سنتين ولم أربح

– إذن لماذا تحرص على شرائها؟!

(*) الأرجحية odds تعني نسبة النجاح إلى الفشل، والاحتمال probability يعني نسبة المحاولات الناجحة إلى المجموع الكلي للمحاولات.

– حسنٌ، بما أنني لم أربح حتى الآن، فإن الوقت قد حان لكى أربح عاجلاً

(٣) – أما زلتَ مصمماً أن تراهن على الحصان "فارس"؟ لقد خسر ثلاثة من سباقاته الأربعة الأخيرة

– لذلك سوف أراهن عليه الآن. لقد راجعتُ السجلات وعرفت أن "فارس" قد ربح نصف سباقاته فى العامين الأخيرين، وحيث إنه خسر ثلاثة من سباقاته الأربعة الأخيرة فلا بد من أنه سيفوز فى هذا السباق

– هل أنتَ واثق من ذلك؟

– بالتأكيد، لقد حان فوزه الآن

فى كل مثال من الأمثلة السابقة يأخذ شخصٌ احتمالَ وقوع حدث "أ" خلال فترة من الوقت، ويلاحظ أنه خلال الشطر الأول من تلك الفترة كان الحدوث الفعلى لـ "أ" أقل بكثير من المتوقع، فيستدل من ذلك على أن حدوث "أ" سيكون أكثر احتمالاً فى بقية الفترة؛ وهو استدلال مغلوط بالنظر إلى مفهوم الاحتمالات والأرجحية.

وقد تمضى المغالطة أيضًا فى الاتجاه المقابل: فيفترض المرء أن الحدوث الزائد عن المتوقع لـ "أ" لا بد من أن يؤدى إلى انخفاض احتمالية "أ" فيما سيأتي، وذلك لكى تتحقق الاحتمالات وتستوى الأمور فى نصابها:

– أتشترى بطاقات الحظ ثانيةً هذا الأسبوع؟

– نعم

– أى الأرقام سوف تختار؟

– حسنٌ، إن الأرقام التى كثر فوزها حتى الآن هى ٣، ٧، ٢٨. لذا فلن أختارها بكل تأكيد، فقد آن لها أن تتلقى نصيبها من الخسارة لفترة غير قصيرة.

وصفوة القول فى المقامرة أن ما تم حدوثه حتى اللحظة الآنية هو شيء لا يقدم ولا يؤخر فى احتمالات السحبة القادمة، ولا يؤثر على أرجحيتها، بحد ذاتها، مثقال ذرة من التأثير. فاحتمال "الصورة" فى رمية العملة القادمة هو ٥٠٪ مهما تكن النتائج السابقة، واحتمال فوز أى رقم فى اليانصيب الأسبوعى للملكة المتحدة هو واحد إلى أربعة عشر مليونًا.

الفصل الثلاثون
المظهر فوق الجوهر
style over substance

وسَرى فى فؤاده زُخرُفُ القَوْ ... لِ يراه مستعذَبًا وهو داءُ

شوقى

بنى الآدابِ سَرَّتْكُمْ قديمًا ... زخارفُ مثلُ زَمزمةِ الذبابِ

المعرى

"اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول كما نعوذ بك من فتنة العمل"

الجاحظ

"البيان والتبيين"

ليس بالأمرِ جَديرًا ... كلُّ من ألقَى خطابا
أو رأى أُمَّةً فاخْـ ... تَلَبَ الجـهلَ اختلابا

شوقى

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

يقع المرء فى هذه المغالطة عندما يولى أهمية زائدة للأسلوب الذى تم به عرضُ حجةٍ ما، بينما يهمِّش، أو يتغافل، مضمونَ الحجة ومحتواها. للطلاء دائمًا رونقٌ يموِّه

ما تحته، ورُواءٌ يَشغَل العينَ عن تَبَيُّنِ الثغرات والتشققات والتجاعيد والأخاديد. والبيان دائمًا سحرٌ يعمل عملَه بمعزلٍ عن الفَحوَى، وللقول سحرٌ يفتن المرءَ عن المَقول. هكذا يقر فى رُوع الناس أن مظهر الحجة ينم عن جوهرها ويضيف إلى مُفادها ومؤداها، ويؤثر بطريقةٍ ما فى تحديد قيمة صدقها.

أمثلة :

(١) من المؤكد أن حجة رئيس المجلس ضعيفة وأنه قد خسر الجدال. ألا ترى كم كان جبينه يتفصد عرقًا ووجهه يحمر ارتباكاً؟

(٢) لا شك أن هذه الغسالة الكهربائية هى الأفضل صنعةً والأطول عمراً من غيرها، لأن البائع كان يتحدث عنها بطلاقة وإقناع، كما أنه شديد التأنق والوسامة وتبدو عليه أمارات الذكاء والفهم.

(٣) إن مرسى يعرف كيف يختلب الجمهور؛ لا ريب أنه على صواب فيما يقول.

(٤) – مربع ثلاثة هو تسعة. تسع رصاصات يفقأن عينك أيها الفاشل الأبله

– بل ستة. ولا داعى لهذه البذاءة وهذا التجريح

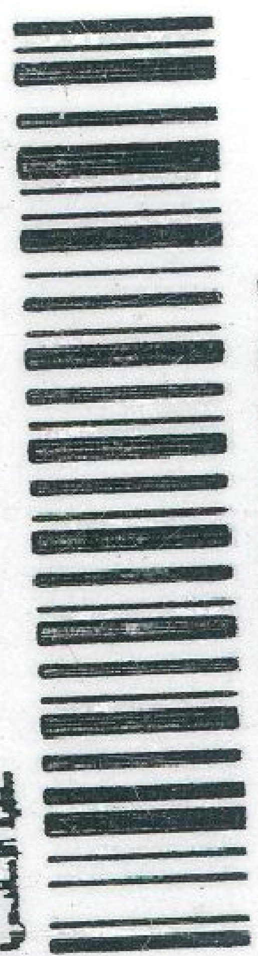
(لاحظ أن البذاءة والإفحاش فى القول لا دخل لهما فى صواب العبارة: "مربع ثلاثة هو تسعة" قولٌ صائب وإن كرهنا بذاءةَ قائله وإقذاعَه فى الحديث. "مربع ثلاثة هو ستة" قولٌ خطأ ولو شفَعَهُ قائلُه بنهجِ البردة!)

التصحيح اللغوى : عبد الرحمن حجازى .

الإشــراف الفنى : إنچــى چــورچ .

كان الدافع إلى كتابة هذه الفصول ما يشاهده المؤلف كل يوم فى الفضائيات التلفزيونية ووسائل الإعلام الأخرى من أغلاط أساسية فى منطق الحوار والجدل تجعل المناقشات غير مجدية من الأصل وتجعلها عقيمة أو مجهضة منذ البداية وبذلك كان لابد من العودة بالقارئ إلى أصول الحوار المثمر وقواعد الجدل الصحيح التى أصبحت مبحثًا قائمًا بذاته هو المنطق غير الصورى أو المنطق العملى.

وعلى الرغم من مرور أكثر من ربع قرن على نشأة المنطق غير الصورى فإنه ما زال فى طور التكوين تصطرع فيه تيارات متباينة وتتنازعه اتجاهات مختلفة، وما زال يتلمس طريقه ويفتش عن هويته.







الغلاف / أنجي جوج